

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

محور العدد
نفحات تربوية

السنة الرابعة - العدد السادس عشر - شوال ١٤٢٩ هـ - أكتوبر ٢٠٠٨ م

١٦

أرجوكم أن تكتبوا

◆ تربية الطفل في الإسلام

◆ قيود الغريزة الجنسية في القرآن

◆ التربية الدينية في ضوء الدراسات النفسية

◆ عندما يتحدث الجسد أخلاقاً

◆ دور الإمام علي عليه السلام في زمن الخلفاء

◆ حادثة الصلح في كلمات الإمام الحسن عليه السلام

Resalat Alqalam

رسالة القمر

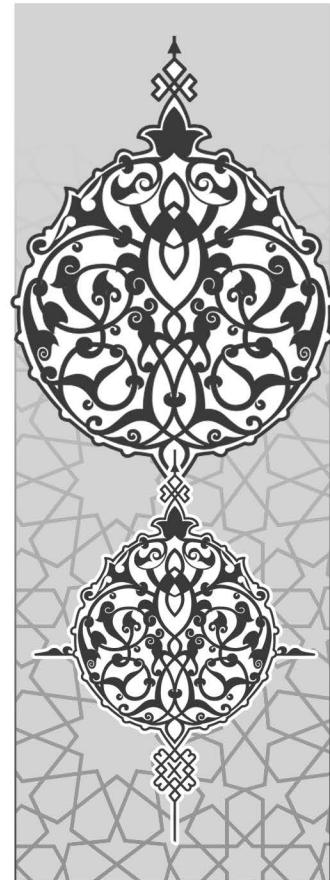
إسلامية ثقافية شاملة

فصلية تصدر عن

طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة

برعاية

مكتب البيان للمراجعات الدينية



- المشرف العام والمدير المسؤول:
عبد الله علي الدقاق
- رئيس التحرير:
علي أحمد الكريباudi
- مدير التحرير:
علي أحمد الجفيري
- هيئة التحرير:
عبد الرؤوف حسن الربيع
عزيز حسن سلمان
غازي عبد الحسن إبراهيم
فاضل عبد الجليل الزاكي



كتابات

١٦

- ٥ تربية الطفل في الإسلام
في حوار مع سماحة الشيخ حبيب الكاظمي
- ١٤ إشارات تربوية
السيد عباس جعفر شبر
- ٢٤ قيود الغريزة الجنسية في القرآن
عبد الرؤوف حسن آل ربيع
- ٤٣ هدية العدد.. للوالد وما ولد في بعض شؤون الأولاد وال التربية والأسرة
محمد صالح رضي
- ٦٥ التربية الدينية في ضوء الدراسات النفسية
قصي الشيخ علي العربي
- ٧٨ عندما يتحدث الجسد أخلاقاً
رائد ميرزا الستري
- ٩٠ جواز التقصير أو الحلق ليلة العيد للنساء والضعفاء
علي فاضل الصدري
- ٩٨ البيان الويفي في حال إسماعيل الجعفري
محمد علي العربي
- ١١٣ دور الإمام علي عليه السلام في زمن الخلفاء
عزيز حسن الخضران
- ١٤٧ بحث في أدلة الشفاعة عند المعتزلة القسم الأول
سعید جعفر حماد
- ١٧٥ حادثة الصلح في كلمات الإمام الحسن عليه السلام
فاضل عبد الجليل الزراكي
- ١٨٧ دروس في الأخلاق السياسية في الإسلام
عادل علي الشعلة

الصداقة بين الجنسين

أقحمت تقنيات الاتصال الحديثة شباب اليوم وشاباته في لجة العاطفة والهيجان من غير مقدمات، وولدت معها مفاهيم الحب والصداقـة، ثم قسمـت الحب إلى حـبين؛ حـب عذري بـريء، وحب آخر غير بـريء.

ولـيسـتـ هذهـ العـلـاقـاتـ والـتيـ طـفـحتـ بـهـاـ بـيـوـتـ الـأـمـةـ سـرـاـ يـذـاعـ، فـالـرـغـبةـ الـجـامـحةـ عـنـ أـطـرافـ هـذـهـ الصـدـاقـةـ أـلـقـتـ بـنـدـاءـاتـهـاـ الـمـسـتـنـجـدـةـ إـلـىـ كـلـ الـأـطـرافـ، وـلـكـ أـنـ تـتـصـورـ حـجمـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ الـمـتـلـقـةـ مـنـ قـبـلـ مـكـاتـبـ الـفـقـهـاءـ تـبـحـثـ حـولـ الـمـنـقـذـ مـنـ هـذـهـ الـضـغـوطـ الـنـفـسـيـةـ.

وإـذـاـ رـاجـعـتـ بـعـضـ الـمـخـتصـينـ وـالـدارـسـينـ لـمـثـلـ هـذـهـ الـعـلـاقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـقـدـ لـاـ تـجـدـ لـدـيـهـ تـلـكـ الـكـمـيـةـ الـمـعـتـدـ بـهـاـ مـنـ الـعـلـاقـاتـ النـاجـحةـ وـالـمـسـتـمـرـةـ عـلـىـ شـبـكـاتـ الـاتـصـالـاتـ، بـيـنـماـ تـجـدـ لـدـيـهـ قـائـمةـ مـنـ الـعـلـاقـاتـ الـتـيـ انـقـطـعـتـ مـنـ غـيرـ استـئـذـانـ عـنـدـاـ تـحـصـلـ عـلـىـ مـاـ يـأـمـنـ حاجـتـهـاـ الـعـاطـفـيـةـ، وـيـسـدـ رـغـبـتـهـاـ الشـهـوـيـةـ، بلـ تـجـدـ قـائـمةـ أـطـولـ مـنـ الضـحاـياـ، وـلـاسـيـماـ الـفـتـيـاتـ، وـقـائـمةـ أـخـرىـ مـنـ الـمـطـلـقـاتـ، أوـ الـمـطـلـقـاتـ وـهـذـاـ أـسـوـاـ حـالـاـ، وـإـذـاـ مـاـ اـزـدـادـ تـفـاقـمـ هـذـهـ الـحـالـاتـ فـحـيـنـهـاـ لـابـدـ أـنـ يـأـتـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ الـذـيـ يـتـعـقـلـ فـيـهـ الرـأـيـ الـدـيـنـيـ وـالـمـتـمـثـلـ فـيـ رـوـاـيـاتـ أـهـلـ الـبـيـتـ عـلـيـهـ الـسـلـامـ فـيـ مـقـامـ تـحـصـينـ الـمـرـأـةـ وـالـرـجـلـ.

فـأـمـامـ اـزـدـحـامـ الـوـجـوهـ وـالـمـفـاتـنـ عـنـدـ أـعـيـنـ الـطـرـفـيـنـ، وـالـنـغـمـاتـ وـالـوعـودـ عـنـ مـسـعـ الـطـرـفـيـنـ، تـكـثـرـ الـمـشـاـكـلـ الـأـسـرـيـةـ، وـتـتـفـاقـمـ قـضـاـيـاـ الـطـلاقـ، وـإـنـ الرـجـلـ

إن أمكنه سد هذه الثغرة عن طريق تعدد الزوجات، إلا أن المرأة لا تجد سبيلاً إلا الفرار من زوجها وطلب الطلاق، أو أن تقع في الفاحشة وقد استشرت بأبشع صورها.

وأمام كل هذه الأمور يقف الحكم الشرعي من غير أن يغير المعادلة كثيراً، ولسنا في هذا المقام من المحاربين للظاهر الشرعي بدعوى توفير البديل.. نعم نحن مع توفير البديل، ولكن يبقى الشرع هو سيد الموقف سواء وجد البديل أم لم يوجد، ولا يعقل تعطيل الشرع حتى تولد البديل.

إلا أن المهم في نهاية المطاف هو تحسّن هذه الحاجة العاطفية الجامحة، وتعرف حاجتها، وتلبيتها وفقاً لبرامج التزويج المدروسة وبالطرق المشروعة.

وفي اليوم الذي يكون فيه الزواج ميسراً ومذلّل العقبات، ستزول فيه كثير من هذه المفاهيم الموهومة، وستفلق ملفات الاستفتاء التي لا تبحث عن الحكم، بل تبحث عن المنقد، والمنقد هو تصحيح بعض الأعراف المعيبة للزواج الشرعي، وتصدر برامج التزويج المستقطبة لهذا الجمهور المؤمن، كما هو شعار مجلسنا العلمائي في البحرين لهذا العام.

رئيس التحرير

التربية في الإسلام

في حوار مع سماحة الشيخ حبيب الكاظمي

حاوره: علي جاسم عاشور

كذلك يعتبر موضوع تربية الطفل والراهق من المواجهات المهمة والمعقدة والتي ألفت فيها البحوث وكتبت فيها الكتب الموسعة، وأهميتها نابعة من الحاجة الملحة لذلك النشء الذي سيصوغ المجتمع في يوم من الأيام وسيقود ركب السفينة التي يرتد لها أن تبحر في فلك الإسلام العظيم وتنشر ثقافته ومبادئه، وأما تعقيدها فهو لا يرتبط بحال من الأحوال في بعده النظري، إذ أن جانب التطبيق دائمًا ما يكون عقبة كؤود في إسقاط النظريات على الواقع العملي نظرًا لما يتاز به كل طفل من خصوصيات ومتانز به كل بيئه وما تحتاجه التربية من جهد وصبر قد يطول..

ولعل الجدل القائم في المطولات في تأثير العوامل الوراثية أو البيئية في تنشئة الطفل لا يهمنا -بشكل أساسي- هنا، إلا أن مجموعة من الأسئلة التي كثيراً ما ترتبط بواقعنا محتاجة لإنجذبات بروية إسلامية واضحة تكفياناً عناء البحث والتأمل في الكتب والموسوعات المتخصصة التي قد لا نصادف الإجابات فيها بنحو صريح.. لذا كان لقاءنا هذا مع شخصية متخصصة في مجال التربية وقد أمضى فترة طويلة في إهتمامه بالقضايا المرتبطة بهذا موضوع...

ولهذا انطلق اللقاء مع سماحة الشيخ حبيب الكاظمي:

■ ما أهم وسائل تربية البعد المعنوي في الطفل في بداية عمره، مع مراعاة



● اعطائه الحرية للعب؟

● إن تربية الطفل - في بعده الروحي - تبدأ من المراحل الأولى حتى قبل الزواج، وذلك من خلال اختيار النبت الصالح ل التربية الولد، فقد ثبت تجربيا وشرعياً بأن الصفات الوراثية تنتقل من خلال البنية الجينية للأب و الأم، ومن بعد ذلك يأثر دور الآداب الشرعية للحمل، وما تراعيه الأم في هذه الفترة الحاسمة من التكوين المادي والروحي للطفل، ثم مرحلة الرضاع والتي لا شك أنه مع كونه حركة تغذية مادية إلا أن الأمر يتعدى إلى نقل الشحنات العاطفية من الأم إلى الطفل، وبعد ذلك تأتي مرحلة التربية الأساسية في السنوات الأولى من عمره.. والمعروف في هذا المجال أن السنوات الست الأولى لها دورها الحاسم في تحديد المستقبل النفسي والفكري والعاطفي للطفل.

■ ما معنى ما روى عن النبي الأكرم عليه السلام: «عramaة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره»^(١)؟ وهل هذا مختص بالذكر فحسب دون الآنسى؟

● قد يكون الملاك أعم من الذكر والأنسى، فإن سرعة التحرك والتقلب لدى الطفل إذا لم تصل إلى حد المشاكلة وإيذاء الغير، فإن هذا قد يكون دليلا على سلامه البنية العصبية والجسمية للطفل، وهذا أيضا لا يعني إهمال الطفل وعدم وضعه في الجهة الصحيحة التي فيها يفرغ شحناته الباطنية بشكل يجمع بين عدم كبت قابلاته ووضع الحدود الالزامية لعدم التعدي على حقوق الغير.

■ كيف يستطيع الآباء أن يكون لهم الصبر الكافي لتحمل مشاكلة الطفل وتصرفاته المزعجة لهما؟

● إن الأمر يحتاج إلى عناصر متعددة في هذا المجال، فمنها المعرفة النظرية

بأساليب التربية الحديثة وكيفية مواجهة التقلبات النفسية للطفل بحسب المراحل التي يمر فيها .. أضف إلى ذلك ضرورة التنسيق بين الأبوين وعدم وجود الخلاف في التعامل مع الطفل كزيادة للدلائل من احدهما، ونقصا منه في الآخر.. وتذكر أنَّ الطفل أمانة إلهية يُسأل عنها العبد يوم القيمة.

ول يكن معلوماً أن تقصير الأبوين في تربية الطفل -لو أدى إلى تحقق بعض الأزمات في كبره- فمن الممكن أن يحمل الوزر للأبوين يوم القيمة من جهة أن «من سنَّ سنةٍ سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها»^(٢)، ومن الممكن أن نعتبر أنَّ تربية الطفل سلباً أو إيجاباً من مصاديق جعل السنة الواقعية التي تسري على الطفل وأحفاده إلى يوم القيمة والتي قد تصل إلى الآلاف في بعض الحالات.

وأخيراً ينبغي أن لا ننكر دور الدعاء في استنزال المدد الإلهي في هذا المجال، فقد ورد في القرآن الطلب من الله تعالى أن يهب الله تعالى للإنسان قرة عين^(٣)، بل أن يكون من ذرية الإنسان من هو إمام للمتقين^(٤) لا من المتقين فحسب، وهذا غاية الطموح في العبد المؤمن.

■ **كيف يستطيع الأبوان أن يؤسسوا علاقة مع ولديهما بحيث يلجمَا لهما عند حدوث المشاكل، ويصارحهما عند وقوعه في المأزق، حتى لا يلجمَا من لا يؤمن منه عليه؟**

● قد لا يكون الأمر متيسراً في السنوات الأولى للتربية، ولكن من الواضح أن الأمر يتتأكد في سنوات ما قبل البلوغ، حيث الفورة الخطيرة الداخلية والتي إذا لم تقع تحت السيطرة فمن الممكن أن يدمر الكيان النفسي له.. ومن هنا نؤكد على ضرورة تحاشي الأبوين أي مظهر من مظاهر الخلاف والتنفير عن الأبوين حتى في السنوات

المبكرة، لأن هذا من شأنه أن يجعل إحساساً باطنياً ولو في اللاشعور - حباً أو كراهاً سينعكس يوماً ما في تعامل الأولاد مع الآبوين وفي موقفهم النفسي منهمما.

■ ما هي الفوارق التربوية التي ينبغي للأبوين مراعاتها بين الذكر والأنثى؟

● لا شك أن الأنثى تحتاج إلى شحنة عاطفية مضاعفة كما يفهم من قوله تعالى ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٥)، والذكر في المقابل يحتاج إلى ترين عملي في ساحة الحياة كاصطحاب الطفل إلى الأماكن العامة كالمساجد وغيرها، طبعاً كل ذلك في جو عدم إثارة الغيرة الباطلة بين الأولاد، فلا ينبغي إثارة الذكور مثلاً من خلال التمييز العاطفي للإناث، ولا إثارة الإناث من خلال إتاحة فرصة أكبر للذكور للتحرك الخارجي.

■ ما هو السن المناسب لتعوييد الطفلة على نسق الحجاب الإسلامي، وما هي الطريقة المناسبة لذلك؟ وهل حدد الشارع ذلك؟

● إن الواجب - كما هو معلوم - الالتزام بالحجاب في سن البلوغ ولكن مقتضى الاحتياط الشرعي هو الالتزام قبل ذلك، بل إننا ننصح الآباء بوضع ولو قطعة قماش صغيرة على رأس الفتاة حتى في السنوات المبكرة، لتنعود على جو الحجاب الشرعي فإن هذه الشعارات ينبغي ترسيخها في نفوس الناشئة التي باتت هذه الأيام تفهم الكثير من المعاني السلبية والإيجابية فإن مستوى الاستيعاب هذه الأيام لهذا الجيل أصبح أرقى من الأجيال في الأزمنة السابقة.

■ ما هو السن المناسب لتعوييد الفتاة على تجنب الحديث مع الأجنبي إلا للضرورة، ومراعاة آداب العفة التي تجب على المرأة أو تستحب لها؟

● ليست هناك قاعدة ثابتة في هذا المجال، فالامر قد يرتبط بنباهة الفتاة

وتأثيرها بالعوامل الخارجية، وكذا البيئة التي تعيش فيها، والقاعدة العامة في هذا المجال هو تجنب الفتاة من كل مثير، ولو ظهر تأثيره مستقبلاً فإن دفع الضرر المحتمل واجب كما هو معلوم.

■ كثير من ألعاب الأطفال تحتوي على موسيقى محللة من الجهة الشرعية، ولكن السؤال هل من المحبوب تجنبها؟ وهل لها آثارها التكوينية السلبية على الطفل؟

● إن النصيحة العامة في هذا المجال هي أن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها، ولا شك أن حمى الله تعالى حدوده القاطعة، فعليه نقول إن تعويد الأذن على الموسيقى المشتبهة من الممكن أن يرفع قوة التمييز لاحقاً في تحديد الحلال والحرام في هذا المجال.

■ ما رأيكم في مسألة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل؟

● إذا لم يكن بنحو التشريع الاستحبابي فلا مانع منه، وأما رجحانه فيتوقف على وجود أثر تربوي لهذا الأمر بعيداً عن ترف المسرفين، ودلال الطفل المضر، أو إثارة الحسد والأحقاد، كما لو أقيمت ذلك في وسط فقير بما قد يتغير جواً سلبياً لدى أولاد الآخرين مثلاً.. فالنبي يعقوب عليه السلام منع ابنه من قص الرؤيا لئلا يكون ذلك سبباً للكيد، وهذه قاعدة عامة مفادها أن العاقل يتحاشى في أي مجال ما قد يتغير له الضرر ولو كان أصل الفعل مباحاً.. ونحن نرى أن الأنفع من حفل الميلاد هو (حفل التكليف) لما في ذلك من دعم لمسيرة الالتزام والتقوى.

■ كثير من الآباء يهتم بولده في الجانب الدراسي، وكذلك يهتم كثير بصحته ومستقبله الدنيوي، ولكنه يتعامل مع تربيته الدينية بشكل هامشي فماذا

تقدم لهم من نصائح في هذا المجال؟

● إن من الواضح أن الباقي مقدم على الفاني، فإذا كانت الدراسة الدنيوية المتعددة أثارها بسنوات هذه الحياة الدنيا بهذه الثابة من الأهمية، فكيف بما يبقى أثره إلى أبد الآبدين؟!

وهذه ملاحظة نسجلها حقا، إن اهتمام الآباء بما يتعلق بالدين لا يقاس أبدا بما يتعلق بالدراسة، وهذا من موجبات تحميم المسؤولية للأبوين وخاصة إذا أدى إلى خلل في التقصير في الجانب الفقهي لمعرفة التكاليف الشرعية الأولية، ومن الممكن أن يعاتب الولد في المستقبل أبواه، فيما لو اكتشف خللا في عبادته يقتضي الإعادة المرهقة، وكان من الممكن تدارك ذلك من خلال التنبيه على ذلك.

■ كثير من أفلام الأطفال الكارتونية تعرض مواقف العنف والقتل والمقاتل، وكذلك مواقف علاقة المحبة بين الذكر والأنثى الأجنبيين، فهل مشاهدة الطفل لها آثار سلبية؟

● لا شك أن ذلك مما لا رجحان فيه، فإن الفطرة التي فطر الله تعالى عليها الطفل من الممكن أن تتأثر بمثل هذه المناظر السلبية، وتحول الطفل الوديع إلى موجود هجومي يضر الآخرين بفعله.

■ بماذا تناصر الآباء فيما يرتبط باستفادة الأبوين من التلفاز لتربية أولاده تربية صالحة؟

● كما نعلم فإن هذا الجهاز سلاح ذو حدين، شأنه شأن أي آلة مضررة في المنزل، والتي عادة نصر على تجنب الأطفال عنها.. ومن هنا نقول: إنه لا بد من السيطرة على الأمر، ولا معنى أبدا لجعل هذا الجهاز يعمل على مدار الساعة من

دون رقيب وحسيب، وخاصة في سنوات المراهقة.

وتبلغ المصيبة مداها عندما يتاح للأبوان فرص الدخول على القنوات المحرمة، فإننا نعتقد أنها من موجبات مصادرة جهود سنوات من التربية، وذلك في مشاهدة واحدة في ليلة مظلمة، فان الأمر لا يخلو مع الأيام من تتحقق حالة من الإدمان على الحرام كما اعترف أصحابها بذلك، حتى بعد سنوات الزواج وتكون الأسرة.

■ ما هو الحل لمشكلة عدم رغبة بعض الأطفال في الدراسة؟

● لا بد من دراسة الخلفيات الحقيقة لذلك، فقد يكون المنشأ في كثير من الأحيان، حالة الشروق الذهني والذي سببه هو الاضطراب الباطني، والذي يعود بدوره إلى الأبوين من خلال القسوة غير المبررة، أو إظهار الخلاف الزوجي أمام الأطفال.

وقد يكون من المنشئ الجو المدرسي غير المشجع، ومن هنا نؤكد على أنه يرجح الصرف الزائد في هذا المجال إذا كان ذلك في اتجاه تحنيب الطفل من بيئته المنكر والفساد.

■ كيف يتعامل الوالدان مع الطفل عندما يكون مشاكسا بصورة كبيرة جدا، كأن يتعدى على الغير بالضرب، ويتصرف في أموال الآخرين، وأمثال ذلك ولا يسمع لأحد أبدا، بل يصر على العناد مهما عاقباه؟

● اعتقاد أن هذا الحالة المتقدمة في السوء لها منشائ، إذ الولد يولد على الفطرة^(٦)، فالأمر إما أن يعود إلى الأبوين، أو البيئة الأسرية، أو المدرسية.. وأما مع تفاقم الأمر وعدم سيطرة الأبوين على الأمر، فإنه يرجح مراجعة الأخصائي

النفسي، وهذا كله لا ينافي الاستعانة ببعض المؤثرات في هذا المجال والوجبة لتهدئه من أصيب بمثل هذا الاضطراب.

■ كثير من الناس يستخدم كلمة (شيطان) للتعبير عن مشاكلة الطفل،
فما رأيكم بهذا الاستعمال لهذه الكلمة؟

● لا شك أن سياسة التعنيف والتقرير والتمييز سياسة مرفوضة في عالم الطفل وغيره، بل قد توجب حالة من التباعد النفسي مع الطرف المقابل، بل مما قد يوجب حالة النفور والعناد فيرتكب الطفل ما هو خطأ حتى باعتقاده لمجرد إغاظة الطرف الآخر، وهذه مرحلة خطيرة جداً في عالم التعامل مع الأولاد.

■ يسأل الطفل أحياناً عن بعض العقائد التي من المتسرر عليه أن يفهم جوابها لقصور عقله عن ذلك، كأن يسأل عن مكان الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يفهم معنى أنه لا مكان له، وأمثال ذلك من الأسئلة، فكيف يتعامل المجيب مع أسئلة الطفل هذه؟

● نفضل في هذا المجال صرف الطفل عن هذا الجو ب مختلف الأسلوب التربوية، فإن الإجابة الصحيحة على مثل هذه التساؤلات تحتاج إلى مقدمات فلسفية ليست في مستوى الطفل بل حتى البالغين منهم.

■ هل المشاكل بين الزوجين التي تسبب حالة نفسية سلبية على الأم لها تأثير سلبي على جنينها إذا كانت حاملاً؟

● لا شك في ذلك، فإنه كما ينتقل الدم إلى جسد الطفل من خلال المشيمة، فإن الحالات الروحية أيضاً تنتقل إلى الطفل، وهذا مما لا ينكره حتى الأطباء، ومن هنا نقول للزوجين المتخالفين إنه يرجح ولو مؤقتاً إيقاف التنازع في هذه المرحلة

حفظا على الجنين، والذي ستكون سلامته من موجبات راحتهم في مقبل العمر، أضف إلى ما هو أهم من ذلك ألا وهو رضى الله تعالى عنهمما حيث أحسنا تربية الأمانة.

■ **كيف يحبب الطفل في دراسة العلوم الدينية من مفاهيم وأخلاق وأحكام وعقائد؟**

● أعتقد أن مشاهدتهما لسلوك أهل العلم وإظهار عطفهم عليه من موجبات غرس هذا المعنى اللاشعوري في قلب الطفل، ومن هنا نؤكد على حقيقة الاحتياط التام للأب إذا كان من أهل العلم من أجل أن لا يرى الطفل ما يوجب له التنفير من الدين، كما لو رأى تعاملًا سلبيًا مع أمه مثلاً، فإنه من الممكن أن يغرس في نفسه حالة من التخلخل الداخلي بما يجعله ينصرف عن هذا المجال ولو كان راجحاً في أصله عنده.

المواهش:

(١) ميزان الحكمة: ج ٣ ص ١٦١٤.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٥٤ ، مستدرك الوسائل ١٢ : ٢٢٩.

(٣) سورة الفرقان: ٧٤.

(٤) سورة البقرة: ١٢٤.

(٥) سورة الزخرف: ١٨.

(٦) الكافي: ٤١٧ ، وعلل الشرائع: ٢ : ٣٧٦.

إشارات تربوية

السيد عباس جعفر شبر

إن مسألة تربية الطفل تشغّل مكانة مرموقة من المسائل الاجتماعية في العصر الحديث، فهي من أهم أركان السعادة البشرية، ولقد بحث العلماء كثيراً حول مختلف الجوانب النفسية والتربوية للطفل وألفوا الكتب العديدة في هذا المجال. ولذلك فإن الدول العظمى تنشئ المؤسسات والمنظمات العظيمة لغرض تنشئة الطفل تنشأة تتناسب والمعتقدات التي تراها سليمة في تكوين اللبنة الأولى لفهمه الخارجي.

لذلك ركز الإسلام أيضاً على التربية وأهميتها سواء المستوى الروحي والمعنوي للألم ما قبل الولادة، أو بعد وضعها الجنين إلى أن يكبر ففي المنظور الإسلامي تعرف تربية الطفل أنها إغاثة الغرائز المعنوية، والاهتمام باعتدال الغرائز المادية، فسعادة الطفل تتحقق في التعامل الصحيح مع نفسه وليس مع جسده، كاللباس والخلي أو المظهر الجذاب الذي يحصل عليه، ويتخلص الطفل من الألم حين يتلذك الوقاية من الإصابة بالأمراض النفسية، كالغيرة والعناد والكذب.

ويجدر بالوالدين امتلاك الوعي اتجاه هذه الحقيقة التي جعلها الإسلام من الواجبات عليهمما فيها من أثر كبير على المجتمع.

التربية وأثرها على المجتمع:

إن التربية الاجتماعية للأطفال ضرورة حيوية لأن الأطفال على وشك

الارتباط بقوة في المجتمع وسيتحملون مسؤوليات معينة لا بد من الاضطلاع بها طبقاً لقواعد الشرع والعرف والتفكير العميق.

وأكثر العظماء الذين قضوا حياتهم في خدمة الناس، كانوا نتاج تربية صحيحة تلقوها في صغرهم، فأثرت على صناعة أنفسهم وأصبحوا عظماء بها، والقرآن الكريم حين يحدثنا في أطول قصة جاءت فيه تدور أحداثها عن الصراع القائم وال دائم بين الحق والباطل.

ومن أبرز الشخصيات التي واجهت الظلم بكل أبعاده وعنوانه هو النبي موسى عليه السلام، الذي جعله القرآن رمزاً في التحدي والمواجهة للظاهرة الفرعونية على الأرض، ونجد أن طفولته عليه السلام، كانت تحت رعاية أم وصلت من خلال تربيتها لنفسها إلى درجة من الكمال الإنساني أوصلها إلى درجة أن يوحى إليها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أُمُّ مُوسَى﴾^(١) ثم تلقته يد أخرى لها مكانة أيضاً في مدارج التكامل الإنساني، وهي آسية زوجة فرعون، التي تخلت عن كل ما تحلم به المرأة من زينة ووجهة اجتماعية مقابل المبدأ والحركة الرسالية، و تعرضت لوحشية فرعون الذي نشر جسدها بعد أن وتده على لوحة خشبية، وأصبحت بذلك مثلاً للمؤمن من ضربه الله للمؤمنين: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبُّ ابْنِ لِي عِنْدِكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَتَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلَهِ وَتَجْنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وبالمقابل نجد أن أكثر من يعيش في الأرض فساداً أولئك الذين وجدوا في صغرهم أيادي جاهلة تحيط بهم، ومبراجعة بسيطة في مزبلة التاريخ تلحظ طفولة المجرمين والطغاة نساء ورجالاً قاسية جافة، بسبب سوء التعامل مع النفس البريئة، وفي وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام أبي محمد الحسن عليه السلام: «يا بني إني لما

رأيتني قد بلغت سنا، ورأيتني أزداد هنا، أردت بوصيتي إياك خصالاً منها: أني خفت أن يعجل بي أجلي قبل أن أقضي إليك بما في نفسي وأن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى، وفتن الدنيا، فتكون كالصعب النفور فإن قلب الحدث كالأرض الخالية ما القى فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسوا قلبك، ويستغل لبك، ل تستقبل بجد رأيك ما قد كفاك أهل التجارب بغيبة وتجربة، ف تكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة فأراك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما أظلم علينا فيه»^(٣).

ومن جهة أخرى ذكر صاحب كتاب الطفل في الإسلام في كتابه أنه -يجب أن يكون التعليم غير مقتصر على القراءة والكتابة بل يكون شاملًا لكل جوانب العلم، في مجالاته المختلفة كعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية كالآداب والتاريخ والفلسفة وغيرها، إضافة إلى التركيز على الجوانب الروحية والعبادية مستندًا إلى قول الرسول الأكرم ﷺ في تأكيده على تعليم القرآن: «من قبل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيمة، ومن علمه القرآن دعي بالأبوين فكسيا حلّتين تضيء من نورهما وجوه أهل الجنة»^(٤).

ومن الحديث الأول يتضح أن نفسية الطفل كالأرض الخالية التي تنبت ما ألقى فيها من خيرٍ أو شرٍ يتلقاه الطفل من والديه من خلال التعليم والسلوك، ومن الحديث الثاني تتضح ضرورة الإسراع في إلقاء مفاهيم الخير في نفسه الخصبة، قبل أن يسبقنا إليه المجتمع ليزرع في نفسه أفكارًا أو مفاهيم خطأ.

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن محمد بن علي، عن عمر بن عبد العزيز، عن رجل، عن جميل بن دراج، وغيره، عن أبي عبد الله عاش عليه السلام قال:

«بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»^(٥). وفي بعض النسخ، عن ابن سالم عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: «بادروا أحداثكم» أي علموهم في شرخ شبابهم بل في أوائل إدراكيهم وبلوغهم التمييز من الحديث ما يهتدون به إلى معرفة الأئمة عليهما السلام والتشييع قبل أن يغويهم المخالفون ويدخلوهم في ضلالتهم فيعسر بعد ذلك صرفهم عن ذلك، والمرجئة في مقابلة الشيعة من الإرجاء بمعنى التأخير لتأخيرهم علياً عليهما السلام عن مرتبته.

وفي الجهات الأخرى يبقى التأثير الحقيقى للطفل على قسمين:

الأول: جهة المؤثر بلحاظ القوة والضعف.

الثانى: جهة القابلية وحدودها سعة وضيقاً.

بالنسبة للأول فالعوامل الرئيسية كالوالدين والأسرة والمجتمع عوامل أساسية في تقويم سلوكه أو زرع المفاهيم فيه وكما جاء في الحديث عن النبي عليهما السلام: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويogenesis»^(٦).

الثانى جهته القابلية كالظروف المحيطة والميل النفسي والتى تفرز اندفاع فى معظم الأحيان خارجاً عن المألوف تجاه المجتمع أو المحيط بحيث يكون للطفل طموح أعلى من الطموح الطبيعي يحرك فيه عقله الباطن فينتتج أمراً مميزاً وجديداً.

تقويم السلوك:

تبقى التربية في الصغر عاملاً مؤثراً على سلوك الفرد وليس حتمياً، بمعنى أنَّ الفرد حين يكبر بإمكانه أن يعدل سلوكه وفكره، فيما لو تلقى تربية خاطئة في صغره، فله أن يجتثُّ في سن الرشد أصول الزرع الشائكة، الذي بذرها الوالدان في نفسه صغيراً، وبإمكانه أن يُذهب العقد التي خلفتها التربية الخاطئة ويحوِّل رؤاسها.

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق ع: «إِنَّ نُطْفَةَ الْمُؤْمِنِ لَتَكُونُ فِي صُلْبِ الْمُشْرِكِ فَلَا يُصِيبُهَا مِنَ الشَّرِّ شَيْءٌ، حَتَّىٰ إِذَا صَارَ فِي رَحْمِ الْمُشْرِكَةِ لَمْ يُصِيبَهَا مِنَ الشَّرِّ شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَجْرِي الْقَلْمَ»^(٧)، ويعني ع: بقوله: «حَتَّىٰ يَجْرِي الْقَلْمُ».

هو بلوغ الفرد مرحلة الرشد والتکلیف، فيكون مسؤولاً عن نفسه وعمله، ليحصل بذلك على سعادته وشقائه باختیاره وإرادته.

متى نكون أصدقاء لأبنائنا:

هناك العديد من الآباءاليوم الذين يعانون من مشكلة عدم التمييز ما بين الأبوة والصداقة. ويکن أن يسبب سوء الفهم هذا العديد من النكسات في علاقة الآباء بأولادهم. فخلال مرحلة النمو يحتاج الأطفال لأن يلعب أبواؤهم دور الأهل بجدية تامة.

لذا فإذا تمكّوا بأن يكونوا أبوبين جيدين لأبنائهم فسيأتياليوم الذي تتتطور فيه علاقتهم إلى صداقة. ولكن إذا لم يكونوا متأكدين بعد من طبيعة علاقتهم بأطفالهم فتعال معنا لنعرف كيف تكون أصدقاء لأطفالنا.

الخطوات:

للأم بالخصوص والأبوبين بالعموم:

- 1- كوني أمّاً في جميع الأوقات. الحقيقة، الحكمة، المعرفة، الاهتمام، التعليم، المحبة؛ هذه المكونات يجب أن لا تغيب أبداً عنك، فهي كاللبنة التي تعزز بناء علاقتك بالأطفال. وإذا تخليت عن أحدى هذه المكونات فلن يكون البناء سليما.

٢- استمعي له كصديق، لكن استعملني سلطاتك كأم للمساهمة. إذا كان ابنك قلقاً بشأن رفاقه الذين يريدونه أن يشرب أو يقود السيارة، حاوي منعه من الاستجابة لضغوط رفاقه. وبيني له الأسباب.

٣- ردِي كأم فقط. لا تكوني متساهلة. لا تقولي له مثلاً بأنه لا يستطيع التدخين أو قيادة السيارة، ولكن إن فعل فسوف تتفهمين ذلك. أنت بذلك تضللين أبنائك، وتقولين لهم بأنك غير موافقة على الخطأ ولكنك لن تقومي بأي عمل رادع إذا أخطأوا. فكيف سيستجيبون لك؟

٤- تعرفي على أصدقاء أبنائك، ولكن بأسلوب شخص بالغ وبإصدار التوجيهات فقط عند الطلب. لا تحاولي أن تتصرفي كمراهاقة لتكتسي إعجابهم، فأنت بالنسبة لهم أم صديقة لهم.

٥- استمتعي بوقت الفراغ مع أبنائك. اضحكِي عندما تكونين مع أبنائك، فالذكريات الجميلة وخصوصاً المضحكة تبقى في الذكرى دائماً. لا تكوني تلك الأم المتغطرسة القوية والمستبدة في أذهان الأطفال فلن يتقبلوك كصديقة لاحقاً في سن المراهقة.

٦- امضي وقتاً برفقة أبنائك. ولكن هذا لا يعني بأن تمضي كل الوقت معهم، يجب أن يتعود المراهق على أن يكون لديه وقت له ولأصدقائه أيضاً ولكن تحت إشرافك. العلاقة الجيدة تبدأ بالثقة والتواصل بينكم.

نصيحة:

محاولتك لمصادقة أطفالك في سن النضوج سيجعلهم مشوشين فقط ويغضبهم لأنهم يحتاجون لك كأم أكثر. أثناء السنوات الأساسية والثانوية، تزداد الحاجة أكثر

لوجود الأم والأب في حياة الأبناء، بعد ذلك يكمن محاولة مصادقتهم.

ملاحظة:

ربما يلاحظ القارئ في الخطوات السابقة كان خطابي موجهاً للام، لأن دور الأم خصوصاً في تلك الخطوات هو الأهم لكنها تتواجد مع الأطفال فعلياً أكثر من تواجد الأب معهم.

أزمة التفاهم بين الآباء والأبناء:

من المتعارف عليه أن مرحلة المراهقة – التي تنتهي في الغالب بين سن الثالثة عشرة وحتى الثامنة عشرة من العمر – تتسم على الأرجح بالمواجهة في العلاقة بين الآباء والأمهات من جانب، والأبناء من جانب آخر، لاسيما حول السيطرة، وطبيعة القيم والحرية، حيث يدور الصراع بين رغبة الآباء والأمهات في فرض السيطرة والقيم التي يؤمنون بها على أبنائهم المراهقين، في حين يسعى هؤلاء الأبناء إلى تأكيد استقلالهم وحرrietهم.

وتُعدُّ هذه العلاقة جزءاً من الصراع الذي يمر به المراهقون في هذه المرحلة بحثاً عن شخصية مستقلة.

هذا، وتكتسب علاقة الآباء والأبناء أهمية خاصة في مرحلة المراهقة، فبقدر ما يتجاوز الجميع تلك السنوات العاصفة بسلام بقدر ما يمكن التنبؤ باستقرار العلاقة بين الطرفين في مراحل العمر التالية.

ومن المفيد التعرف على صورة الآباء والأمهات كما يراها أبناؤهم في مراحل العمر المختلفة، ففيما يعتقد الآباء والأمهات أنهم يؤدون مهمتهم على الوجه الأكمل، فإن الأبناء قد يعتقدون العكس تماماً.

ومن خلال الانتقادات الشائعة التي يوجهها الأبناء إلى آبائهم وأمهاتهم حين يعاملونهم على أنهم غير ناضجين لم تكتمل شخصياتهم بعد، وذلك من خلال سيل النصائح المستمرة.

ومن المنطقي أن يؤدي اختلاف القيم بين الجيلين إلى حدوث مشاكل يومية، ولا سيما على فرض ما يعتقده الآباء والأمهات أنه الأفضل للأبناء.

وقد يعتد هذا الاتجاه ليؤثر على جيل آخر عندما يتدخلون في تربية أحفادهم، هذا، فضلاً عن تكرارهم الدائم للوعيد والتهديد للأبناء بما ينتظرون من المعاناة عندما يصبحون آباءً وأمهات لأبناء يتصرفون مثلهم، فتكرار هذه العبارة يترك في نفس الأبناء إحساساً مستمراً بالذنب، وبوجود ديون في أعقابهم للأباء والأمهات، وهي نوع من الديون التي يستمتع الطرف المدين في الغالب بالطلبة بها بدون أن يكون لديه تصور واضح حول كيفية ردتها، لأن أي محاولة للرد لن تكون كافية. وقد يكون السبب وراء فتور العلاقة بين الجانبيين هروب الابن، أو البنت من فكرة تحوله حتماً إلى شخصية شبيهة بشخصية أبيه من والديه عندما يكبر.

وأياً كانت الصورة التي يظهر بها الآباء والأمهات في عيون أبنائهم، وأياً كان نصيب هذه الصورة من الحقيقة أو الأوهام، فإن ما يؤكده علماء النفس أن الأب والأم هما أكثر شخصين يعرفان الإنسان ظاهرياً ونفسياً، وإذا كان الإنسان يستطيع في سنوات عمره اللاحقة أن يخفى جانباً من ذاته عن الآخرين، فإن معرفة الآباء والأمهات بأبنائهم تبدأ في فترة مبكرة من حياة الأبناء، وقبل أن يتعلموا إخفاء ذاتهم الحقيقية عن الآخرين.

وقد تُسبب هذه الحقيقة ضيقاً للأبناء في بعض الحالات، لكنها تساعدهم من ناحية أخرى في الاستمتاع بالتوازن النفسي، ومعرفة الذات الحقيقية.

دور الأم في البناء الثقافي للطفل:

في السنوات الأولى من عمر الإنسان تتشكل ملامح شخصيته، وتنغرس بذور صفاتها الأساسية، لذلك يسميهما خبراء التربية بالسنوات التأسيسية. وفي تلك السنوات لا أحد أقرب إلى الطفل وأشد التصاقاً به من الأم، وبذلك تكون هي الجهة الأكثر تأثيراً في تشكيل شخصيته وصناعتها.

ويتيح لها الارتباط العضوي وال النفسي بينها وبين الطفل أكبر فرصة للتأثير، فهو في الأساس جزء منها، تكون في أحشائها، وتغذى من دمها، ثم ينشأ في حضنها وينمو جسمه من لبnya، فمن الطبيعي أن تتعلق به، وأن ينشد إليها، هذه العلاقة الخاصة والانشداد الوثيق، هي التي تجعل بيد الأم أدوات الرسم والتشكيل لشخصية الولد.

ولا تستطيع أي جهة أخرى أن تأخذ نفس مكانة الأم وتأثيرها، حتى وإن مارست وظائف الأم العملية كالإرضاع والحضانة، لأنها لا تملك آليات التفاعل والارتباط النفسي والعاطفي الموجود لدى الأم، بل يمكن القول أن هناك برمجة غريزية أودعها المخالق جلَّ وجلَّ للاستجابة والتفاعل بين الأم ولديها، ليس في عالم الإنسان فقط، بل في عوالم سائر الحيوانات أيضاً، فحقى عند الشدييات الدنيا مثلاً يبدأ التعلق مباشرةً بعد الولادة، فالصغير يتعرف على أمه ويبقى إلى جانبها دون غيرها، والأم بدورها ترعى وتغذى وتحمي ولديها دون غيره.

لقد حاولت بعض النظريات في مجالات التربية وعلم النفس، أن تقصر تفسير ظاهرة التعلق والانشداد، بين الطفل والأم، على أساس تلبية الأم لل حاجات البيولوجية للطفل، حيث توفر له متطلباته الأساسية، لكن هذه النظريات لم تصمد

أمام النقد العلمي، واللاحظة التجريبية، ويرى (بولي - Bowlby^(٨)) وجموعة من العلماء المتخصصين:

أن هذه النظريات ليست مقنعة في تفسيرها لظاهرة التعلق عند الإنسان، ويستند (بولي - Bowlby) إلى نتائج البحوث والدراسات التي تبين أن التعلق يمكن أن ينمو ويتطور تجاه أفراد غير معنيين بالعناية الجسدية للطفل وتطور العلاقة بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية، ويعتمد إلى حد كبير على طبيعة التفاعل بين الجانبين، فإن رضا حاجات الطفل الأساسية عملية ضرورية، ولكنها غير كافية لنمو التعلق بين الأم والطفل، وغالباً ما يكون إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله، فعندما ترضع الأم طفلها، تشعره بحرارة جسدها، وبجنون لمساتها، وبرقة عبارتها ومناغاتها ويظهر الطفل بدوره علامات الرضا والارتياح، مما يشجعها على الاستمرار في التفاعل معه.

المواهش:

- (١) سورة القصص: ٧.
- (٢) سورة التحرير: ١١.
- (٣) نهج البلاغة: ٤٠ ، ٤٠ ، باب المختار من كتبه ٣١.
- (٤) الكافي: ٦: ٤٩.
- (٥) الكافي: ٦: ٤٧.
- (٦) مسالك الأفهام: ٣: ٤٣.
- (٧) المحسن: ١: ١٣٨.
- (٨) الدكتور جون بولي أخصائي الأمراض العقلية ومدير إحدى العيادات السيكلولوجية الكبرى بمدينة (لندن)، وهو من أكثر العلماء الذين اهتموا بدراسة التعلق بين الطفل والأم.

قيود الغريزة الجنسية في القرآن

عبد الرؤوف حسن آل ربيع

تتكالب الأبواق المعادية للقيم والمبادئ الإسلامية منذ القدم للنيل من سمعة الدين وقدرته على البت في قضايا الحياة، واصفةً إياها بالرجعية والتخلّف وأسر المحرّيات وكتبتها في أحكام تشدد الحنّاق على انطلاق الإنسان وسعادته في هذا الوجود، وما ذلك إلا خطوة لبث مشاريعهم الإباحية وتحقيق بعض المأرب الخبيثة، وقد قامت بوجات واسعة من التضليل والخلط بين المفاهيم بين العوام والنائمة، مستفيدة من التطور التقني والإعلامي السهل النفاذ، ومستغلةً ميل الناس للإسترخاء والفرار من بعض التكاليف وغفلتهم عن الأسباب الحقيقة لتشريعها، ومن بين هذه السموم التي أثاروها ما يتعلّق بنظرية الإسلام للغريزة الجنسية، وما يتفرّع عنها من أحكام كحربة الإختلاط والممارسات المفتوحة، مما جعل البعض - حق من المسلمين - يتساءل عن جدوى بقاء هذه القيود المحدّدة للعلاقات الجنسية إلى يومنا هذا، ولماذا الإصرار عليها في حال تتسابق فيه معظم الدول والمجتمعات إلى إشاعة المحرّيات وإطلاقها، وغير ذلك من التشكيكات والإيحاءات التي ملّها إلى تخねنة الدين في استصداره وسنّه لمثل هذه الأحكام.

من هذا المنطلق يأتي هذا البحث لشرح موجز عن الخلفية والأهداف التي يرومها ديننا الحنيف وراء سنّ هذه التكاليف، وبيانُ أبرز القيود التي تؤثّر في الحرمة أو الجواز للغريزة الجنسية بحسب منظور القرآن الكريم، ويحتوي على ثلاثة محاور وخاتمة، الأوّل حول بيان مفهوم الغريزة الجنسية، والثاني حول نظرية القرآن وأهدافه

منها، والأخير يتناول قيود الحرمة والجواز لها.

المحور الأول- مفهوم الغريزة الجنسية:

لتسلیط الضوء ووضع اليد على محل البحث يحسن التطرق إلى مفهوم الغريزة الجنسية وتحديد المراد منها بالضبط، وذلك:

أ- من منظار اللغة:

تطلق كلمة الغريزة في الكتب اللغوية بمعنى: الطبيعة والقريحة، والجمع غرائز. وغرزها في الخلق بالتخفيض والتشدید أي رکبها فيهم^(١)، وهي من خير أو شر^(٢)، من خلق صالح أو رديء^(٣).

أما كلمة الجنس فهي: كل ضرب من الشيء والناس والطير، وحدود النحو والعرض والأشياء ويجمع على أجناس^(٤). ولك أن تقول: هو اللفظ الجامع لأفراد الحقيقة^(٥).

وبدمج الكلمتين معاً ونسبة الثانية إلى الأولى نخلص إلى أن مفهوم الغريزة الجنسية هو سجية مودعة في بعض الأجناس التي لها القابلية لذلك - كالإنسان وسائر الحيوانات - تستدعي نوعاً من الميل والجاذبية الطبيعية بين مجموعة وأخرى في الجنس الواحد، والقول بأنها من خير أو شر يوحي بافتقارها للضابط الوعي الذي يسيرها من صميم ذاتها.

ب- من حيث الاصطلاح القرآني:

لا يوجد في مفردات القرآن الكريم استخدام لهذه المفردة بعينها حتى تنصرف في معنىً ما وإن كانت هناك إشارات متعددة لما يرجع إلى نفس معناها اللغوي لكن

بألفاظ وأساليب مختلفة، والمراجع لكتب التفاسير - وخاصة الحديثة منها - يجد استعمال واحد لها وهو ما ذكر في اللغة.

ج- من خلال المعنى الشائع:

الاستعمال المتداول اليوم للغريزة الجنسية ينصرف بالأساس وبالشكل الأول إلى العلاقة الطبيعية بين أفراد جنس الإنسان دون سائر الأجناس - وإن صح استعماله لها أيضاً كما ذكر - وبغض النظر عن أسباب ذلك سيكون محط الحديث ومدار الاستخدام لهذه المفردة في هذا البحث لخصوص هذا المعنى، ومعه يمكن تصور العلائق القائمة بين أفراد الإنسان - عقلاً - بالآتي:

- ١ - علاقة الذكر بالأنثى.
- ٢ - علاقة الذكر بالذكر.
- ٣ - علاقة الأنثى بالأنثى.

المotor الثاني- نظرة القرآن وأهدافه من الغريزة الجنسية:

للتدريج المنطقي والإقتراب شيئاً فشيئاً من موضوع البحث لابد من المرور بإطالة عامة على رؤية القرآن حول الغريزة الجنسية والتعرّف على الأغراض والأهداف التي يرجوها وراء ذلك.

أولاً- نظرة القرآن للغريزة الجنسية:

يعتبر القرآن الكريم الغريزة الجنسية أمراً تكوينياً ركبه الله تعالى في الإنسان وأودعه للناس كافة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٦)، وعد التجاذب الحاصل في

المجتمعات بين الذكر والأنثى مما تقتضيه أصل الخلقة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٧)، غاية الأمر أنه حصر المصلحة والمطلوبية في خصوص علقة الزواج منه: ﴿فَإِنْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاء﴾^(٨)، وحظر ما كان منه سفاحاً وزنى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْسِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ﴾^(٩).

أما عداه من الميول والعلاقات التي تنشأ بين المماثلين (الذكر والذكر، الأنثى والأنثى) فعددها من الشذوذ ومن المحرمات: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾^(١٠).

بتقرير: أن المقصود من الفاحشة هو علاقة الرجل بالرجل والتي تسمى لواطاً بدليل: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ وأن هذه الفعلة الشنيعة لم تكن موجودة قبل قوم لوط^(١١) ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مما يعني أنها ليست من شؤون الفطرة التي وجدت مع خلق الإنسان.

وبالإمكان ملاحظة ذلك أيضاً فيما ورد حول أصحاب الرس الذين شاعت لديهم علاقة الإناث بالإناث، والتي تسمى بالسحاق^(١٢).

ثانياً- أغراض وأهداف القرآن من الإرتباط الجنسي:

هناك ارتباط وثيق بين معرفة أهداف القرآن الكريم من الغريزة الجنسية وبين البحث عن قيود الحرمة والجواز لها؛ وذلك بحكم أن القيود ليست اعتباطية و مجردة عن الغايات، إضافة لكونها بمثابة الضمان والوقاية للحفاظ على الأهداف، وتقديم

ذكر هذه الأغراض يسهم كثيراً في استباحة القيود وهضمها بعد ذلك، ويكون وفق إطار معين أن نقسم الأهداف إلى قسمين:

أ- الأهداف العامة المشتركة:

وهي التي لا تختص بالغريرة الجنسية وتصلح أن تكون غاية لكل الأفعال والمارسات الإنسانية، من قبيل الكمال والطاعة والعبادة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيكُمْ﴾^(١٣) ،
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَنَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾^(١٤).

ب- الأهداف الخاصة:

وهي التي لوحظت فيها الغريرة الجنسية بوجه الخصوص، ومن أبرزها:

١- التكاثر وحفظ النسل والنوع الإنساني:

لا شك أن بقاء النوع لأي مجموعة رهين بكون الزوجين الذين يتم بهما التكاثر من جنس واحد، وهذا الأمر نلمسه من عدة آيات منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْضَ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١٥).

فقوله ﷺ : ﴿خَلَقْتُكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ شاهد على ذلك، كما أن قوله ﷺ : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ دليل على أمرین، الأول هو أن التكاثر يتم بالرابطة الزوجية، والثاني أن هذه الرابطة ملحوظة في أصل خلق الإنسان بهدف التناسل^(١) ، والنتائج أن التكاثر وحفظ النوع الإنساني هو من أهداف الغريرة الجنسية.

٢- التحسين وحفظ الفرج:

يعتبر القرآن الكريم الكائن البشري مخلوقاً ذا سمو واحترام ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَم﴾^(١٧) وأن الحفاظ على سلامه فرجه وعرضه من أولويات هذا الإحترام، وبالتالي يكون العبث بهذا الفرج وتلويته من التعدي على هذه الكرامة وخرق سور الإنسانية الذي يجب أن يبقى حصيناً:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْواجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُون﴾^(١٨) ،
﴿وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْسِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِين﴾^(١٩).

«قوله تعالى: ﴿مُحْسِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِين﴾ بيان لقاعدة كلية في التمييز بين الطريق الصحيح والباطل في النكاح فكل نكاح شرعى متتحقق في الخارج، سواء كان بالعقد الدائم أو بملك اليدين أو بعقد انقطاع، إنما هو لأجل تحسين النفس والعفاف، وهو يغاير السفاح الذي لا يكون إلا استجابة وقتنية لداعي الشهوة واستيلائها على داعية العقل والعفة»^(٢٠).

٣- الستر والوقاية من الفجور:

يقول ﷺ : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَئْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(٢١).

في هذه الآية يشبه الله تعالى كلًا من الزوجين باللباس بالنسبة للأخر، المعروف أن اللباس هو ما يتخذ لستر العورات والعيوب، ويتحقق به من الحر والبرد وأمثالهما، كما يستعمل للتزيين، وحينها يصبح معنى الآية أن الزوجين يستر كل منهما الآخر

من العيوب، ويحفظه من الإنحراف والفجور، ويوفر له سبل الراحة والطمأنينة، ويكون زينةً وجمالاً معنوياً له أمام الآخرين^(٢٢).

٤- السكن الروحي وتشييد الأسرة المتينة:

يقول ﷺ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢٣).

تعلينا هذه الآية الشريفة على مبدأ مهم في الحياة؛ وهو أن كلاً من الزوجين لا يستقرّ وضعه إلا بالآخر، فكما أن الفرد يعيش تائهاً من غير سكن مادي، كذلك الأمر بالنسبة للحياة المعنوية والتي هي الأساس لدينا، فالجميع ينشد الراحة والإستقرار، والزوج لوحده فقير وناقص، ويرفع نقصه ويكمّل ويبني أسرته باتصاله بنصفه الآخر الذي يشاطره نفس الحاجة، فيصبح كل منهما سكناً للثاني.

ثمّ أن هذا السكن لا يكمّل ب مجرد الإتصال الجسدي الأجوف؛ بل لابد له من عامل يضفي عليه جوًّا من التفاهم والبهجة والسكون، وهنا تنشأ الحاجة إلى عنصري المودة - والتي هي الحبة إذا كان معها ميل الطياع^(٢٤) فيصل أثرها إلى المحبوب - والرحمة - والتي هي رقة تقتضي الإحسان إلى المَرْحُوم^(٢٥) - الذين يلآن الكيان الأسري تضحيةً وصبراً وإيثاراً فتتكلّل حياة الزوجين وكذلك الأبناء بالراحة والإستقرار، ويكون جو البيت حينئذ مهيئاً ل التربية صالحة ومتينة.

٥- إشباع الغريزة بالعدالة والإعتدال:

يقول الحق ﷺ : ﴿وَإِنْ خَفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَأَنْكِحُوهَا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنِي وَتَلَاثَ وَرَبِيعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أُمَّاَنَّكُمْ ذَلِكَ أَذْنِي أَلَا تَعُولُوا﴾^(٢٦).

نستفيد من هذه الآية أن الغريزة الجنسية مباحة ومشروعة للإنسان بالقدر الذي تتوق إليه نفسه شريطة ألا يتعدى فيها على كرامة وحق الآخرين فيصيّبهم بظلم، وألا يفرط فيها ويخرج عن الحد المعقول الذي قرره الشرع المقدّس وفاصلاً للمصالح العليا.

فالآية بمعنى: إن خفتم الوقوع في ظلم اليتيمات والإجحاف بحقهن حين النكاح بين فاتركوهن وتزوجوا بغيرهن من النساء، وأنتم بالخيار في الزواج بثنائية وثالثة ورابعة إذا أمنتم الوقوع في الظلم وإلا فواحدة فقط، وحينها إذا أردتم الزيادة في العدد فعليكم بالإماء فأمرهم أيسر وأسهل من جهة العدل وبعض الأحكام^(٢٧).

٦- التشجيع على الزواج وتنظيم وصلاح المجتمع:

إن كل الأهداف السابقة تعود بالنفع على المجتمع وتسهم في إصلاحه، ولكن هنا نود الإشارة إلى بعد الترويج للزواج وإساعته في تنظيم المجتمع والذي تعرضه لنا هذه الآية المباركة:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامِي مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءٌ يُعْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ * وَلَيُسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّىٰ يُعْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢٨).

«النكاح الترويج، والأيامى جمع أيام بفتح الممزة وكسر الياء المشدة وهو الذكر الذى لا أنتى معه والأنثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيام، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال»^(٢٩).

الآية فيها تحفيز كبير ودعوة صريحة للتزويج العزاب في المجتمع، وفيها وعد بالرزق والغنى لكل من ينافس النكاح بسبب متطلبات الحياة المادية، ومن جهة

أخرى تطلب من العزّاب الذين لم يوفقا بعد للزواج أن يتغفّلوا حتى يتيسّر لهم ذلك.

لو سألنا عن الهدف وراء هذا التشجيع والتحثي المغربي لوجدنا أن أهم الأسباب ومكمن السر يقع في مشكلة العزوّبة وتأخير الزواج وانعكاس ذلك على تنظيم المجتمع وتقديمه، ولتوسيع هذه النقطة أكثر نقول: إن هناك فروق إجتماعية ونفسية عديدة بين الأعزب والمتزوج، منها أن الأعزب عادة شعوره للمسؤولية أخف، وحجمه من خلال نظرة المجتمع له أقل، وهو جسمه النفسي من جهة المستقبل وبناء الأسرة والإستقلالية في الحياة أكثر، واضطراباته العاطفية واستعداده للإنحرافات الجنسية أكبر، وهذه الأمور تأخذ من عقله وجده كثيراً فتؤثر سلباً على عطائه وعلى مجتمعه، بخلاف المتزوج فإنه أقدر على مواجهة هذه الأمور وبالتالي يصبح استعداده للعطاء مضاعفاً، ولو نظرنا إلى المجتمعات للمحنا بجلاء أن أكثر الإنحرافات وخاصة الجنسية هي في فئة العزّاب أو الذين يؤخرون الزواج أو يتملّصون منه.

٧- زكاة النفس وطهارة الروح:

يقول ﷺ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكِي لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّلْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾^(٣٠).

الشاهد في هذه الآية هو ﴿ ذَلِكَ أَزْكِي لَهُمْ ﴾ حيث مفهوم الزكاة: تنحية ما ليس بحق وإخراجه عن المتن السالم. وذلك كإزاله رذائل الصفات عن القلب، وتنحية الأعمال السيئة عن برنامج الحياة الإنساني^(٣١)، وبيانه أن تعلييل غض الأبصار وحفظ الفروج بالتزكية دليل على كونها من الأهداف المطلوبة للغريرة الجنسية.

المحور الثالث- قيود الحرمة والجواز للغريزة الجنسية في القرآن:

وصل بنا الحديث الآن إلى المقصد من عقد هذا البحث، وهو التعرّف على قيود الحرمة والجواز للغريزة الجنسية كما يطرحها القرآن، ونقصد بالقيود تلك التي إذا تّقت رعايتها جاز استعمال الغريزة واشباعها، وإذا لم تراع لم يجز وتحرم، وهي كثيرة وممتداة، ويرجع روحها والنبع الذي ترشحت منه إلى الأهداف التي ذكرت في المحور السابق، لذا قد نلحظ فيها نوعاً من التكرار والشبه، وعلى كل الأحوال يمكن عرض هذه القيود وفق التفصيل الآتي:

أولاً- قيد الفطرة:

يعني أن اشباع الغريزة الجنسية لابد أن يكون ملائماً لنوع الطبيعة والخليقة الإنسانية؛ فالمعلوم أن الذكر من الإنسان مزوّد بالآلة تتناسب مع عضو الأنثى منه، وصفات الرجل بها كمالات مهيّنة لسد نقائص المرأة وكذلك العكس، فلا يمكن بناء توافق وانسجام بعلاقة خارجة عن هذا الإطار، وهذا الأمر ثابت لا يتغيّر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلّدِينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ﴾^(٣٢).

وقد سبق الذكر أن القرآن يعتبر هذه العلاقات الخارجية شذوذًا كما هو حال عمل قوم لوط: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَئْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفُونَ﴾^(٣٣) ، ﴿بَلْ أَئْتُمْ قَوْمًا عَادُونَ﴾^(٣٤) ، ﴿..... بَلْ أَئْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾^(٣٥) ، فالإسراف والعداون يعني التجاوز عن الحد وهو الخروج عن الفطرة، وهو ضرب من الجهل.

ثانياً- قيد الحفاظ على النسل:

من الأمور الواضحة أن استغلال شهوة الجنس إذا انصرفت في اللواط والسحاق

وحتى الزنى لا يكون قصد فاعلها الحفاظ على النسل؛ إذ المبني على أصل التوالد هو الزواج لا الإشتراك ومطلق الاتصال، وشياع ذلك يعني الخراب في الأرض واندراس النوع البشري: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْثُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبَيلَ﴾^(٣٦).

روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «علة تحريم الذكران للذكران والإإناث للإناث لما ركب في الإناث وما طبع عليه الذكران، ولما في إتيان الذكران الذكران والإإناث الإناث من انقطاع النسل وفساد التدبير وخراب الدنيا»^(٣٧).

وكشاهد معاصر على ذلك تحكي إحدى الإحصائيات: أنَّ معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا (وهي من البلدان التي تشيع فيها الممارسات المفتوحة) لا يتجاوز السبعة أو الثمانية في الألف^(٣٨).

ثالثاً- قيد التكريم الإلهي والحفظ على مكانة العقل:

وببيان ذلك يرتكز على ملاحظة المكانة العظمى التي أولاها القرآن للإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَهَمْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٣٩)، والتي دليلها هو نعمة العقل التي حباه الله تعالى إليها بحيث تغيب وتنزهه عن سائر الحيوانات، وتكون هي التي تقوده وتهديه، وحينها يصبح كل ما يسد الطريق أمامها وينزل الإنسان بمستوى البهائم مرفوضاً ومحظوراً البتة.

وفتح المجال لشهوة النفس والغرائز الجنسية بالحالة التي تسسيطر على كيان الإنسان وتهزم فيه قوة العقل هي من هذا القبيل؛ إذ يتساوى فيها مع العجمادات والأنعام إن لم يكن أدون: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَثْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤٠).

رابعاً- قيد التحسين والعفة وتحصيل الكمالات الرفيعة:

وهذا القيد له ارتباط بما قبله من جهة أن التحسين والعفة تحافظ على كرامة قيمة الإنسان، إلا أن العفاف بحد ذاته صاحب أثر إيجابي على الروح، فهو كمالٌ لوحده، ويكسب صاحبه فرحة بالغة في تسمّن الكمالات وطي المراتب العالية: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا النَّوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^(٤١) ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكِي لَهُمْ﴾^(٤٢).

ناهيك عمّا يورثه في النفس من أنفة توقي من تعدّي وتطاول المغرضين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِّي أَتَقَيَّنَ فَلَا تَخْضُعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾^(٤٣).

خامساً- قيد العدالة:

وهو أن يكون الإستعمال للغريرة في دائرة المحافظة على حق الآخرين وعدم التعدّي والجور عليهم، وهذا الأمر واضح بالفطرة والعقل والنقل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَائْكِحُوهُ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٤٤)، الجدير بالذكر أن الآية ذكرت ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا﴾ ولم تقل وإلّم تقطّعوا، مما يدل على أن خوف عدم العدالة كاف في النهي المذكور ولا يشترط التيقن.

سادساً- قيد الإعتدال:

ويقصد منه عدم الخروج عن الحد المقبول سواءً كان بالكم أو الكيف.

ويترك تحديده في أغلب الأحيان بيد الشارع العارف بالصلاح - إذ قد يجمع العلاء على قبح وفضاعة التعدّي على حد في بعض الموارد وهنا الشارع لا يخالف - كما هو الحال في تقييد الزواج بما لا يزيد عن أربع نساء: ﴿فَائْكِحُوهُ مَا طَابَ لَكُمْ

مِنَ النِّسَاءِ مَنْفِيٌ وَثُلَاثَ وَرَبِاعَ ^(٤٥).

سابعاً- قيد التربية والمسؤولية الأسرية:

سبق وأن قلنا أن البيت الأسري السعيد حتى يكتمل بناؤه الداخلي ويعاً بما عليه من مسؤوليات ويصبح محيطاً متازاً ل التربية الأبناء لابد أن يبتنى على التفاهم ويحتوي على عنصري المودة والرحمة: **﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** ^(٤٦).

وهنا نضيف مزيداً من التوضيح بأن التربية تفتقر إلى نية صادقة في تولي الأبناء، وتستدعي متابعة حثيثة لسلوكهم واحتياجاتهم، وفيها إلزام باتخاذ مأوى يجتمع فيه الأفراد وغيرها من الموارد المتعارفة، فإذا شرع الباب للعلاقات المطلقة كالزندي، وصار الذكر يسرح ويمرح مع من شاء من الإناث والعكس، ترى هل سيبقى نصيب لعش مقدس يسمى بالبيت الأسري؟ وإذا حصل إنجاب طفل من أحد الممارسات اللاشرعية - وكثيراً ما يتافق - فمن المسؤول عنه؟ وإلى أي منزل جامع للأبوبين يأوي؟ وهل يجتمع أبواه بشكل دائم حتى يراقبانه ويتابعانه؟ بل قل: هل أبواه ينويان تبنيه أصلاً؟!

من هذا المنطلق نفهم السر والمغزى من اشتراط هذا القيد في الغريزة الجنسية.

ثامناً- قيد المصالح الإجتماعية:

هذا القيد له علاقة وتأثر بكل القيود السابقة؛ لأن المجتمع هو المسرح الذي تظهر عليه آثار التقدم أو التأخر للأفراد والأسر، لكن هناك نكتتان مهمتان لابد من الإشارة لهما ليكتمل الإيضاح وتجلو الفكرة:

النكتة الأولى: أنه من الممكن أن توجد قضية إذا نظرنا إليها من باب فردي محض تكون صالحة أو على الأقل ليست بضارّة، ولكن إذا نظرنا إليها من

زاوية المجتمع وأثرها في المجموع تكون في غاية الفساد والضرر، والعكس قد يكون صحيحاً أيضاً، ومن هذا الباب لابد من لحاظ الغريزة الجنسية من بعد المجتمع أيضاً، ويكون الصلاح الاجتماعي قيداً مستقلاً من قيودها أيضاً.

النكتة الثانية: ليس من الصحيح أن نجعل من عقولنا المحدودة - والتي تجهر بالكثير من الأسرار والخفايا في تكوين الخلق وغيره - هي المعيار في التشخيص الاجتماعي، فنحرّم ونخلّل اعتماداً على ما هو قاصر وفقير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤٧)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾^(٤٨).

والنتيجة أن تشخيص المصالح الاجتماعية هي بيد الغني المطلق والعالم الذي لا يفوته شيء حَلَلَهُ ، إلا أن تكون القضية من الوضوح بمكان بحيث يستقل العقل والعقلاء بمعونة حسنها أو قبحها فهنا الشارع لا يخالف كما ثبت ذلك في قوله.

تاسعاً- قيد السعادة واللذة الحقيقية:

هناك ضربان من اللذة، أحدهما خادع وكاذب تخاله النفس سعادة إلا أنه في الواقع فارغ عن المحتوى وأثره آني، والآخر صادق ويعكي عن واقع ذي قيمة معتبرة، وأثره غير محدود، والعاقل لا يرضى بالثاني بدلاً.

وبالإمكان توضيح ذلك ببيانين:

الأول: قيل في الغريزة ما مضمونه:

الغرizia نوع من الميل غير الواعي في أعماق الإنسان يعمل على دفعه في سبيل

إشباعها وإطفاء هبّ الشهوات في أي ظرف كان، وهذا تسمى بالآماره **﴿إِنَّ التَّفْسَرَ لَآمَارَةً بِالسُّوءِ﴾**^(٤٩) وإنما وصفت «بالسوء» لأنها لا تراعي الظروف الإجتماعية والعلقية والشرعية في طلب الإشباع^(٥٠).

إذا اتضح هذا نقول: أن مجرد الاستجابة لهذه الغريزة الغير واعية بدون أن ترتبط بها يقوّمها من عقل أو شرع تكون فاقدة للغرض والمحظى وتصبح غير ذات قيمة، وما يكون كذلك هيئات أن تلازمها لذّة حقيقّة.

الثاني: ورد في معنى الشهوة ما مضمونه: الرغبة الشديدة من النفس إلى شيء يلائمها، وهي إما فيما يلائم الروح وتحت حكم العقل فممدوحة (عند الشرع والوجود الإنساني) وموجّبة للسعادة، وإما فيما يلائم البدن من جهة التمايلات النسانيّة الصرف - الغير تابعة لجهة - فمذمومة (عند العقل والشرع) وموجّبة للانحطاط.

ومن أمثلة القسم الأول: **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ وَتَأْذَنُ الْأَعْيُنُ﴾**^(٥١)، **﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾**^(٥٢)، والإشتاء فيها ممدوح لأنه تابع لطلب الله حَمَدَهُ وَلَأَجْلِ رِضاَهُ لَا مِنْ أَجْلِ التَّمَايِلِ النَّفْسِيِّ.

ومن أمثلة القسم الثاني: **﴿وَيَرِيدُ الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾**^(٥٣) ، **﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾**^(٥٤) ، والإشتاء هنا مذموم لأن الشهوات متّعة من حيث هي، لا من أجل كونها تابعة لجهة تقوّمها^(٥٥).

النتيجة: هي أن الشهوة إذا كانت لأجل التمايلات النفسيّة فقط تكون غير ذات قيمة وبالتالي لا تلازمها لذّة حقيقّة، وكتطبيق على هذا القيد:

يكوننا المقارنة بقيمة اللذة الحاصلة بالزواج الشرعي الذي عبر عنها القرآن بعدّة

تعابير كالسكن واللباس والمودة والرحمة، وبين اللذة الناجمة عن اللواط مثلاً والذي عَبَر عنه القرآن بِالْفَاظِ الْمُنْكَرِ وَالْفَاحِشَةِ وَالْعَدْوَانِ وَالْإِسْرَافِ وَالْجَهَلِ وَالْفَسْقِ.

عاشرًا - قيد المصالح الخاصة:

وهي المصالح التي يرى الشارع الأقدس لها حكمة ما بنظره وإن خفت علينا كلها أو بعضها، وهي عديدة، من قبيل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنْ﴾^(٥٦)، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتَأً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٥٧)، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الْلَاّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبِكُمُ الْلَاّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِسَائِكُمُ الْلَاّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَّلَ أَبْنَائُكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمِعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٥٨).

الختامة:

بعد التعرّف على قيود الحمرة والجواز للغريرة الجنسية والوقوف على خلفيتها أصبح بقدورنا الإلتفات لمجموعة من النتائج، أبرزها:

أ- أن الإسلام حينما يشرع لحكم ويؤسس له لا يلفظه اعتباطاً من غير ارتکاز على أصل قويم ومصلحة موضوعية.

ب- الإطّلاع على قيود الغريرة الجنسية مفيد جداً في رفع الإستيحاش والتشكيك من قبل المنكرين أو المتسائلين عن مدى جدوى بعض الأحكام المتعلقة بها، وكذلك ينفع لزيادة درجة اليقين بالمسائل الدينية للذى يؤمن بها.

جـ- أن الضابطة الموضوعية لاستعمال الغريزة الجنسية كما يطرحها القرآن تتلخص في مقدار انسجامها وتلاؤمها مع الكمال الإلهي المنشود والأهداف الإنسانية العالية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الموافق:

- (١) الطريحي، مجمع البحرين، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

(٣) الفراهيدى، كتاب العين، ج ٤ ، ص ٣٨٢ .

(٤) ن م ، ج ٦ ، ص ٥٥ .

(٥) الطريحي، مجمع البحرين، ج ٤ ، ص ٥٩ .

(٦) سورة النساء: ١ .

(٧) سورة الأعراف: ١٨٩ .

(٨) سورة النساء: ٣ .

(٩) سورة المائدة: ٥ .

(١٠) سورة الأعراف: ٨٠ - ٨١ .

(١١) انظر: الطباطبائى، الميزان في تفسير القرآن، ج ٨ ، ص ١٨٤ .

(١٢) انظر: الكليني، الكافي، ج ٧، ص ٢٠٢ ، أيضاً علي ابن إبراهيم، تفسير القمي، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(١٣) سورة الأنفال: ٢٤ .

(١٤) سورة الذاريات: ٥٦ .

(١٥) سورة النساء: ١ .

(١٦) مصباح الزيدي، الأخلاق في القرآن الكريم، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

- .٧٠) سورة الإسراء: .١٧)
- .٧) سورة المؤمنون: ٥ -
- .٢٤) سورة النساء:
- .٢٥) السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج ٨ ، ص ٢٥.
- .١٨٧) سورة البقرة:
- .٥٣٧) انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١ ، ص ٥٣٧.
- .٢١) سورة الروم:
- .٦١٥) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج ٣ ، ص ٦١٥.
- .٣٤٧) الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤٧
- .٣) سورة النساء:
- .٨٨) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٦٧، وأيضاً: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٨٨.
- .٣٢) سورة النور: ٣٢ -
- .١١٣) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١١٣.
- .٣١) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٤ ، ص ٣٣٧.
- .٣٠) سورة الروم:
- .٨١) سورة الأعراف:
- .١٦٦) سورة الشعراء:
- .٥٥) سورة النمل:
- .٢٩) سورة العنكبوت:
- .٥٤٧) الصدوق، علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٤٧.

- (٣٨) الموقع الإلكتروني لمركز آل البيت العالمي للمعلومات، شؤون الأسرة.
- (٣٩) سورة الإسراء: ٧٠.
- (٤٠) سورة الأعراف: ١٧٩.
- (٤١) سورة الأنعام: ١٥١.
- (٤٢) سورة النور: ٣٠.
- (٤٣) سورة الأحزاب: ٣٢.
- (٤٤) سورة النساء: ٣.
- (٤٥) سورة النساء: ٣.
- (٤٦) سورة الروم: ٢١.
- (٤٧) سورة الإسراء: ٨٥.
- (٤٨) سورة فاطر: ١٥.
- (٤٩) سورة يوسف: ٥٣.
- (٥٠) فرهاديان، أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث، ص ٢٨.
- (٥١) سورة الزخرف: ٧١.
- (٥٢) سورة المرسلات: ٤٢.
- (٥٣) سورة النساء: ٢٧.
- (٥٤) سورة الأعراف: ٨١.
- (٥٥) مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٦، ص ١٤٤.
- (٥٦) سورة البقرة: ٢٢١.
- (٥٧) سورة النساء: ٢٢.
- (٥٨) سورة النساء: ٢٣.

هدية العَبْد.. للوالد وما ولد

في بعض شؤون الأولاد والتربيـة والأسرة

محمد صالح رضي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بَارِئِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ الَّذِي
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُؤًا أَحَدٌ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى أَفْضَلِ وَالَّدِ وَمَا
وَلَدَ^(١) نَبِيًّا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَوْصِياءِ مِنْ وَلَدِهِ خَيْرُ الْوَسَائِلِ وَالْعِدَادِ وَعَلَى أَمْهُمْ فَاطِمَةُ
الزَّهْرَاءُ سَيِّدَةُ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَسْبِقُهَا فِي الْفَضْلِ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَحَدٌ وَاللَّعْنُ عَلَى
أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مَا دَامَ الْأَبْدُ..

أَمَّا بَعْدُ.. فَهَذَا مُخْتَصِّرٌ فِي ذِكْرِ غَاذِجٍ مِنْ مَصَادِيقِ رِعَايَةِ الأُسْرَةِ وَالتَّرْبِيَّةِ وَالثَّوَابِ
الَّذِي يَنْالُ الْآبَاءُ بِسَبِيلِ ذَلِكَ وَالَّذِي يَنْالُ الْأَبْنَاءُ بِسَبِيلِ بَرِّهُمْ بِوَالِدِيهِمْ وَإِطْاعَتِهِمْ
لِمَا فِي مَا يَرْضِي خَالقَهُمْ تَبارُكُ وَتَعَالَى.

قَسْمَتِهِ إِلَى ثَلَاثَ هَدَائِيَّا فِي كُلِّ هَدِيَّةٍ ثَلَاثَ تَحْفَاتٍ، كُلُّ تَحْفَةٍ مَرْصُوعَةٌ بِجوَاهِرٍ
مُجْمُوعَهَا أَرْبَعُونَ.

مقدمة:

فَطَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا عَلَى حِبِّهِ لِلتَّنَاسُلِ وَالْتَّكَاثُرِ حَبًّا وَاعِيًّا، لَا بِهِمْيَا تَحرِكُهُ
الْغَرِيزَةُ الصرفةُ البحتة، فَتَجِدُ إِلَيْنَا آدَمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلِيهِ السَّلَامُ يَعيِشُ
فِي مُجَتمِعَاتٍ قَوَامُهَا الأُسْرَةُ، ذَلِكَ النَّظَامُ الرَّاقِيُّ الَّذِي أَمْدَى حَيَاةَ إِلَيْنَا بِمَا أَمْدَى مِنْ

نضج وتكامل وراحة وهناء..

ربما يحتاج المؤمن -في بعض الحالات- إلى تأمل أكثر من غيره ليدرك نعمة الله تعالى وببركات هذا النظام الراقي لأنه متنعم به.

بينما يغضُّ على أنامله ندامةً من فرطٍ فيه، سواء كان هذا المفرط من المجتمعات الالادينية التي سحقتها المادة، فأخلدت بها إلى الأرض وصار رأس هرمها السكاني أكبر وأضخم من قاعدته، فباتت تواجه خطر الانفراط نتيجة تفكير خاطئٍ فادح وجهل فاضح. من أخطر مفرزاته هدمها صرح الأسرة بمعاول الرذيلة والمخرافات التي ظنتها فكراً وتطوراً وفوا، فابتعدت وفرت من رحمة الله إلى غضبه وباءت به، أم كان هذا المفرط من لم يتلقَ الله حقَّ ثقاته، وكان من يخربون بيوتهم بأيديهم وخسر أسرته.

ولكي لا تزلَّ عن الصواب قدمه، ولا يخرب فطرته بيده، لم يتركه خالقه سبحانه سدىً يسلك سُلُّ الحياة دون هدى. بل أرسل رسلاه تترى -صلوات الله عليهم أجمعين - لتدلَّه على الطريقة المثلثي لصلاح الآخرة والأولى.

فمما بينه الرسُلُ والأنبياءُ يتبعهم الأووصياءُ عَلَيْهِمُ الْأَكْلُ من الشرائع الغراء، ما يتعلق بالآباء والأبناء وبهندس للأسرة حتى تبني خير بناء. فقد ضربوا عِلَيْهِم في هذا المجال خيرَ المُثُلِ العملية ولم يكتفوا، بل بينوها بالحكَم النورانية والإرشادات القولية لتكون للإنسان خير معين في دنياه على هذا الأمر العظيم. ولم يكتفوا، بل بينوا ما أعدَه الله سبحانه من ثوابٍ جزيلٍ - لجميع أفراد الأسرة للآباء على رعاية الأسرة والتربية الصالحة وللأبناء على البرِّ بهم، - ثوابٌ في الآخرة هو مع الحياة الهائمة في الدنيا خير هدية.

الهدية الأولى- هدية العواطف الأسرية:

وفيها ثلاثة تحف:

فيها إكسير يُبقي جوًّا الأسرة عطراً، ويقوى ترابطها، ويجمع قلوب أفرادها، وما أدرك ما اجتماع القلوب..

التحفة الأولى من الهدية الأولى- في حب الأولاد وثوابه:

لا يخفى ما يمثله حبُّ الأولاد من أساس لإحياء روح الأسرة ولإنعاش جوّها ودعاية للرعاية والتربية، كما لا يخفى انعكاس ذلك الحب على روح الأب والابن، وعلى استجابة الابن ل التربية الأب له، وتفهم الأب لاحتياجات ابنه ومشاكله لأنَّه سيكون قريباً منه بروحه - على الأقل - دائمًا.

وفوائدُ جمَّةُ لها مجال للذكر غير هذا، نطوي عنها في هذه التحفة وفي غيرها - وعلى هذه الطريقة سيكون السير - مراعاة للاختصار وإسراعاً للاستنارة بنور جواهر الأطهار عليهم السلام.

جواهر التحفة الأولى من الهدية الأولى:

١- عن النبي ﷺ قال: «أحبوا الصبيان وارحموه...» الحديث.^(٢)

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال موسى بن عمران عليه السلام يا رب أي الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حبُّ الأطفال فإني فطرتهم على توحيدِي فإنْ أ茅ُّهم أدخلتهم برحمتي جنتي».^(٣)

٣- وما كتبه يعقوب على نبينا وأله وعليه السلام إلى عزيز مصر، من حديث عن أبي جعفر عليه السلام قال : «... وإنَّه كان لي ولد لم يكن في الدنيا أحد أحب إلى منه. وكان قرة عيني وثرة فؤادي، فأخرجته إخوته ثم رجعوا إلىَّ، وزعموا أنَّ الذئب

أكله، فاحدو دب لذلك ظهري، وذهب من كثرة البكاء عليه بصرى..» الحديث.^(٤)

٤- عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُرِحُّ الْجَنَاحَ لِشَدَّةِ حَبَّهِ لَوْلَدَهُ». ^(٥)

أقول: لعل تخصيص ذكر الرجل في الحديث الرابع لكونه أبعد من الأم في رحمتها وعطفها وحنانها وحبها لولدها، والله العالم، وسيأتي ذكر ثواب الأم في (محلمه) إن شاء الله تعالى.

مسك ختام التحفة:

٥- عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا علي لقد أذهلني هذان الغلامان -يعني الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - أن أحب بعدهما أحداً أبداً، إن ربي أمرني أن أحبهما وأحب من يحبهما». ^(٦)

التحفة الثانية من الهدية الأولى - في الحث على تقبيل الأولاد وثوابه والنهي عن تركه:

أمورٌ مهمة لا تكلف شيئاً، مردودها عظيم. قد تبدو بسيطة فيستهان بها، وقد تنسى تحت ضغط مشاغل الحياة... .

جواهر التحفة الثانية من الهدية الأولى:

٦- عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَبِّلُوا أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ قَبْلَةٍ دَرْجَةً فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرْجَتَيْنِ خَمْسَمَائَةِ عَامٍ». ^(٧) ونقله في البحار ^(٨) بلفظ: «أكثروا من قبلة أولادكم فإن لكم....» وبدل «درجتين» لفظ «درجة».

٧- قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قبلة الولد رحمة وقبلة المرأة شهوة وقبلة الوالدين عبادة وقبلة الرجل أخيه دين». ^(٩)

أقول: قبلة الولد مصدق من مصاديق الرحمة المأمور بها في الحديث الأول

«أحبوا الصبيان وارحموه...»، والله العالم.

٨- عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهما السلام قال: «قال علي عليهما السلام: أبصر رسول الله عليهما السلام رجلاً له ولدان فقبل أحدهما وترك الآخر فقال رسول الله عليهما السلام: فهلا واسيت بينهما». ^(١٠)

٩- وقال الصادق عليهما السلام: «من قبل ولده كان له حسنة ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيمة ومن علم القرآن دُعيَ الأبوان فكسيا حلتين يضيئ من نورهما وجوه أهل الجنة».

١٠- «وجاء رجل إلى النبي عليهما السلام فقال: ما قبلت ولداً قط. فلما ولَّى قال النبي عليهما السلام: هذا رجل عندنا من أهل النار». ^(١٢)

١١- شرف النبي عن الخركوشي والفردوس عن الديلمي عن ابن عمر والجامع عن الترمذى عن أبي هريرة وال الصحيح عن البخارى ومسند الرضا عن آبائه عن النبي عليهما السلام واللّفظ له، قال: «الولد ريحانة والحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا».

قال الترمذى: هذا حديث صحيح وقد رواه شعبة ومهدى بن ميمون عن محمد بن يعقوب. ^(١٣) ويروى عنه عليهما السلام أنه قال: «إنكما من ريحان الله».

وفي رواية عتبة بن غزوان أنه وضعهما في حجره وجعل يقبل هذا مرة وهذا مرة، فقال قوم: «اتحبهما يا رسول الله؟ فقال: ما لي لا أحب ريحانتي من الدنيا». ^(١٤)

التحفة الثالثة من الهدية الأولى - في الحث على شراء التحف والهدايا للأولاد وعلى التوسيعة على العيال وثوابه وبعض ما يتعلق به:

١٢- عن النبي عليهما السلام أنه قال: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويف، وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرّح ابنته

فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقرَّ عينَ ابنِ فكأنما بكى من خشية الله
ومن بكى من خشية الله أدخله الله جنات النعيم».^(١٥)

١٣- عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «قال رسول الله عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَنَبِيِّهِ أَطْرُفُوا أَهَالِيكُمْ فِي كُلِّ
جَمِيعِ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَاكِهَةِ أَوِ الْحَمَّ حَتَّى يَفْرُحُوا بِالْجَمِيعِ». ^(١٦)
* بيان: أطْرَفْتُ فلاناً شَيْئاً: أي أَعْطَيْتَه شَيْئاً لَمْ يَمْلِكْ مُثْلَه فَأَعْجَبَهُ.

١٤- عن أبي الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «ينبغى للرجل أن يوسع على عياله لثلا يتمنوا
موته. وتلا هذه الآية ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(١٨)
قال: الأَسِيرُ عِيَالُ الرَّجُلِ يَنْبَغِي إِذَا زَيَّدَ فِي النَّعْمَةِ أَنْ يَزِيدَ أَسْرَاءَهُ فِي السُّعَةِ عَلَيْهِمْ»
الحاديـث.^(١٩)

* بيان: عيال الرجل: ما يتکفل به ويتوئه، فيشمل الأولاد والزوجة وغيرهم.

١٥- عن علي بن الحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «أَرْضَاكُمْ عَنْدَ اللَّهِ أَسْبَغُوكُمْ عَلَى عِيَالِهِ». ^(٢٠)
* بيان: أي أوسعكم عليهم في النفقة.

١٦- وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْخُذُ بِآدَابِ اللَّهِ إِذَا وَسَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ
اتَّسَعَ وَإِذَا أَمْسَكَ عَنْهُ أَمْسَكَ». ^(٢١)

* بيان: هذا الحديث لبيان اتساع المؤمن في معيشته واستفادته من نعم الله عليه
في عامة أموره ومنها بلا شك رعاية الأهل.

انظر إلى هذه الأسرة روحـي لها الفداء وتأمل التواضع والتـفاهم والاحترام
والتقدير والرعاـة ووو..

١٧- عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «إِنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ الْكَلَمُ ضَمَّنَتْ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ عَمَلَ الْبَيْتِ
وَالْعَجِينَ وَالْخَبْزَ وَقَمَّ الْبَيْتِ، وَضَمَّنَ لَهَا عَلِيٌّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ مَا كَانَ خَلْفَ الْبَابِ مِنْ نَقْلٍ

الحطب وأن يجيء بالطعام، فقال لها يوماً: يا فاطمة هل عندك شيء؟ قالت: لا والذى عظم حرقك ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شيء نقريرك به. قال: أفلأ أخبرتني؟! قالت: كان رسول الله عليه وآله نهاني أن أسألك شيئاً. فقال: لا تسألي ابن عمك شيئاً إن جاءك بشيء عفو وإلا فلا تسأليه. قال: فخرج الإمام علي فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً، ثم أقبل به وقد أمسى فلقي مقداد بن الأسود، فقال للمقداد ما أخرجك في هذه الساعة؟ قال: الجوع والذى عظم حرقك يا أمير المؤمنين.

قال: قلت لأبي جعفر: ورسول الله عليه وآله حي؟ قال: ورسول الله عليه وآله حي.

قال: فهو أخرجنى وقد استقرضت ديناراً وساوثرك به، فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول الله عليه وآله جالساً وفاطمة تصلي وبينهما شيء مغطى، فلما فرغت أحضرت ذلك الشيء فإذا جفنته من خبز ولحم، قال: يا فاطمة أنتِ لك هذا؟ قالت: هو من عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فقال رسول الله عليه وآله: ألا أحدثك بذلك ومثلها؟ قال: بلـى. قال: مثل ذكريـا إذا دخل على مريم المـحراب فـ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرِيمَ أَنِّي لَكِ هـذا قـالتْ هـوَ مـنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢٢)، فأكلوا منها شهراً وهي الجفنة التي يأكلـ منها القائم عليه وـ هي عندـنا^(٢٣).

* بيان: «قُمُّ الـبيـت»: أي كنـاستـه وإـزالـة قـمامـته.

الهدية الثانية - هدية التربية والتعليم: وفيها ثلاث تحف:

التحفة الأولى من الـهدـية الثانية - الحـث على تـربية الأولـاد وتأـديـبـهم وـمراـحل ذلك وـثـوابـه: ((ـجوـاهـرـها)):

١٨- عن النبي عليه وآله أنه قال: «لأنـ يؤدبـ أحدـكمـ ولـدهـ خـيرـ لهـ منـ أنـ يتـصدقـ

بنصف صاع كل يوم».^(٢٤)

١٩- عن الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «أَكْرَمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسَنُوا أَدْبِرَهُمْ يُغْفَرُ لَكُمْ».^(٢٥)

٢٠- عن النبي ﷺ أنه قال: «الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت أخلاقه لإحدى وعشرين وإلا فاضرب على جنبه فقد أعتذر إلى الله تعالى».^(٢٦)

٢١- وعن الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدب سبع سنين وألزمـه نفسـك سبعـ سنـين، فإنـ أـفـلـحـ وإـلاـ فـلـخـيرـ فـيـهـ».^(٢٧)

أقول: في بعض الروايات الشريفة ست ثم ستم ثم سبع، وفي بعضها سبع ثم سبع، وفي بعضها ست ثم سبع، مع شيء من الاختلاف في التعبير. ولا يخفى على الآباء تفاوت الأبناء في مستويات الإدراك والفهم وسرعة النضوج، فلكل طريقة التي تناسبه في التربية، ولكل صنف مستوى من التدرج معه في شؤونه. فالروايات في مقام بيان الحاجة للتدرج مع أمثلة له، ثم على الآباء ضبطه بما يناسب أبناءهم.

التحفة الثانية من الهدية الثانية - الحث على تعليم الأولاد وتاديـهم
ومراحل ذلك وثوابـه:

جواهرـها:

٢٢- عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «الغلام يلعب سبع سنين ويتعلم الكتاب سبع سنين ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين».^(٢٨)

٢٣- عن علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «عَلَّمُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّا عَلِمْنَا مَا ينفعُهُمُ اللَّهُ بِهِ، لَا تُغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْمَرْجَةَ بِرَأْيِهَا».^(٢٩)

ذكره الحر العاملي تدشّن في باب استحباب تعليم الأولاد في صغرهم الحديث قبل أن ينظروا في علوم العامة [أي المخالفين لأهل البيت عليهما السلام ومذهبهم]، أورد فيه ستة أحاديث ثم قال: "أقول: والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى...".^(٣٠)

٢٤- عن أبي جعفر عليهما السلام في وصية أمير المؤمنين عليهما السلام لولده الحسن عليهما السلام وهي طويلة منها أن قال: «فبادرتك بوصيتي لخصال منها (أن تعجل) بي أجلي. إلى أن قال: وأن يسبقني إليك بعض غلبة الهوى وفتن الدنيا وتكون كالصعب النفور وإثما قلب الحَدَثِ كالأرض الخالية ما أُلْقِيَ فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسُو قلبك ويشتغل لبُّك».^(٣١)

مراحل تعليمه الصلاة:

٢٥- عن أبي عبد الله أو أبي جعفر عليهما السلام قال (راوي الحديث عبد الله بن فضالة): سمعته يقول: «إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له سبع مرات: قل لا إله إلا الله. ثم يترك حتى يتم له ثلات سنين وبسبعة أشهر وعشرون يوماً فيقال له: قل محمد رسول الله سبع مرات. ويترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له سبع مرات: قل صلى الله على محمد وآله.

ثم يترك حتى يتم له خمس سنين ثم يقال له: أيهما يمينك وأيهما شمالك؟ فإذا عرف ذلك حُوّل وجهه إلى القبلة ويقال له: أُسجد.

ثم يترك حتى يتم له ست سنين، فإذا تم له ست سنين صَلَّى وَعَلَمَ الرُّكُوعَ والسجود حتى يتم له سبع سنين. فإذا تم سبع سنين قيل له اغسل وجهك وكفيك فإذا غسلهما قيل له: صَلَّى.

ثم يترك حتى يتم له تسع سنين فإذا قمت له علّمَ الوضوءَ وضربَ عليه وأمرَ بالصلاهَ وضربَ عليها فإذا تعلم الوضوءَ والصلاهَ غفرَ اللهُ لوالديه إن شاءَ اللهُ تعالى».^(٣٢)

أقول: الضرب للتربية جاء في جمع من الروايات، وله حدوده التي تذكر في الفقه استنبطاً منها.

ولا تحزن كثيراً إذا لم يكن ابنك هادئاً محباً للمدرسة في صغره:

٢٦ - عن العبد الصالح (الإمام الكاظم عليه السلام) كان يسمى هكذا للتقية: أن الراوي صالح بن عقبة - سمعه يقول: «تستحب عرامة الصبي في صغره ليكون حليماً في كبره، ثم قال: ما ينبغي أن يكون إلا هكذا». ^(٣٣) وروي أن أكياس الصبيان أشدتهم بغضًا للكتاب.^(٣٤)

وقال العلامة الجلسي نقش شارحاً: بيان: «العرامة» [لغة] سوء الخلق والفساد والمرح والأشرار. والمراد [في هذا الحديث] ميله إلى اللعب وبغضه للكتاب. أي عرامة في صغره علامه عقله وحمله في كبره وينبغي أن يكون الطفل هكذا فاما إذا كان منقاداً ساكناً حسن الخلق في صغره يكون بليداً في كبره كما هو الجرب والكتاب بالتشديد المكتب.^(٣٥) وهو محل تعليم القراءة والكتابة والقرآن أي (المعلم) بحسب التعبير الدارج والمدرسة وبالنسبة للصغار (الروضة)، في أيامنا هذه.

وأما ثواب تعليمه ما ينبغي:

وقد تقدم شيء منه في الحديث^(٩). فهذا نوذج منه كافٍ.

٢٧ - عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في حديث مفصل بعد أن نقل عن النبي صلوات الله عليه وآله فقرة في فضائل القرآن وعظمته قال :

«قال رسول الله ﷺ... فلذلك قال: ﴿هُدٰى﴾ يعني هذا القرآن هدى وَبَشْرٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ»^(٣٦) يعني بشاره لهم في الآخرة.

وذلك أن القرآن يأتي يوم القيمة بالرجل الشاحب [أي متغير اللون والجسم، مهزوله] يقول لربه عز وجل: يا رب هذا أظلمات نهاره، وأسهرت ليه، وقويت في رحمتك طمعه، وفسحت في مغفرتك أمله، فكن عند ظني فيك وظنه.

يقول الله تعالى: أعطوه الملك بيمنيه، والخلد بشماله، واقرئوه بأزواجه من المور العين، واكسوا والديه حلة لا تقوم لها الدنيا بما فيها.

فينظر إليهم الخالق فيعظمونهما وينظران إلى أنفسهما فيعجبان منها ويقولان: يا ربنا أثني لنا هذه ولم تبلغها أعمالنا فيقول الله تعالى: ومع هذا تاج الكرامة، لم ير مثله الراؤون، ولا يسمع بمثله السامعون، ولا يتذكر في مثله المتفكرون.

فيقال: هذا بتعليكم ولدكما القرآن، وتبصيركم إياه بدین الإسلام ورياستكم إياه على حب محمد رسول الله وعليه ولی الله، وتفقیهكم إياه بفقہهما لأنهما اللذان لا يقبل الله لأحد إلا بولايتهما ومعاداة أعدائهما عملا، وإن كان ملء ما بين الشرى إلى العرش ذهباً تصدق به في سبيل الله. فتلك من البشارات التي يبشرون بها، وذلك قوله عز وجل:

﴿وَبَشْرٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ شيعة محمد وعلي ومن تبعهم - من أخلاقهم وذرارتهم». ^(٣٧)

التحفة الثالثة من الهدية الثانية - ماذا نعلم أبنائنا؟

اتضح من التحفة السابقة شيء مما ينبغي تعليمه للأبناء، كالتوحيد والنبوة

والولاية والصلة والقرآن والحديث ومعالم الدين والآداب السلوكية، وهنا شيء من ذلك.

جواهرها:

تعليم الابن فوائد التجارب وتنبيهه على ما يحتاج إليه منها:

فاللأب وبما يكبر به الولد من سنوات قد خاض تجاربها بنفسه، ونظر فيما جربه غيره، فاستفاد من مفیدها باثبات صالحة واجتناب فاسده، وغض الطرف عن غيره. فينبغي أن يصل ما استخلصه واستنتاجه من تلك التجارب لابنه حتى لا يبدأ من الصفر بل يكمل مشوار التكامل وتكون له دروساً وحصناً منيعاً والله يواجه بها معترك الحياة، وإلا فما فائدة التجارب.

وفي هذا المجال يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

٢٨ - من وصيته لابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ : «فبادرتك بالأدب قبل أن يقسوا قلبك ويستغل لك ل تستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته ف تكون قد كُفيتَ مؤونة الطلب وعوفيت من علاج التجربة فأتأك من ذلك ما قد كنَّا نأتيه واستبان لك منه ما ربنا أظلم علينا فيه.

أيُّ بني، إني وإنْ لم أكنْ عُمِّرْتُ عَمَراً من كان قبلـي، فقد نظرت في أعمالهم وفكـرت في أخبارـهم، وسرت في آثارـهم، حتى عـدت كـأحدـهم بل كـأني بـما انتـهـى إـليـّ من أـمورـهم قد عـمرـتـ معـ أـوـلـهـمـ إلىـ آخرـهـمـ، فـعـرـفـتـ صـفـوـ ذـلـكـ منـ كـدرـهـ، وـنـفـعـهـ منـ ضـرـرـهـ، فـاستـخـلـصـتـ لـكـ مـنـ كـلـ أـمـرـ نـخـيلـهـ، وـتـوـخـيـتـ لـكـ جـمـيلـهـ، وـصـرـفـتـ عـنـكـ مـجـهـولـهـ، وـرـأـيـتـ حـيـثـ عـنـانـيـ مـنـ أـمـرـكـ مـاـ يـعـنـيـ الـوـالـدـ الشـفـيقـ، وـأـجـمـعـتـ عـلـيـهـ مـنـ

أدبك أن يكون ذلك، وأنت مقبل العمر ومقبل الدهر ذو نية سليمة ونفس صافية، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم، مثل الذي التبس عليهم، فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيئك له، أحب إلى من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهمة...».^(٣٨)

شعر العبدى:

٢٩ - عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ أنه قال: «يا معاشر الشيعة علموا أولادكم شعر العبدى فإنه على دين الله». ^(٣٩)

للشعر كبير الأثر في تكوين أفكار الإنسان وحفظ اعتقاداته، فهو يخاطب الفكرة والروح معاً ولا يخفى أن تعلم الصغير الشعر المفيد لهم للغاية. يكفيك ما نراه من حفظ الناس أشعاراً تعلموها في الصغر يكادون لا ينسوها، فما أجمل أن نختار لقلذات أكبادنا ما يحفظون والأجمل منه أن يختار المعصوم عَلَيْهِ الْكَلَمُ لهم ذلك فمما ينبغي حفظه وتعليمه للأطفال من شعر، شعر العبدى...

من هو العبدى ؟

قال العالمة الأميني جليل في الغدير^(٤٠) حيث ذكر ترجمته وغمازج وافرة من أشعاره وبعض الشرح لها: «العبدى، هو أبو محمد سفيان بن مصعب العبدى الكوفي، من شعراً أهل البيت الطاهر المتزلفين إليهم بولاته وشعره، المقبولين عندهم لصدق نيته وانقطاعه إليهم؛ وقد ضمّن شعره غير يسير من مناقب مولانا أمير المؤمنين الشهيرة، وأكثر من مدحه ومدح ذريته الأطبيين، وأطاب وتفجّع على مصائرهم ورثاهم على ما انتابهم من المحن، ولم نجد في غير آل الله له شعراً».

وكان يأخذ الحديث عن الصادق عَلِيُّهِ فِي مَنَاقِبِ الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ فَيَنْظُمُهُ فِي الْحَالِ
شُمْ يَعْرُضُهُ عَلَيْهِ.

و من شعر العبدى:

يَا آلَ طَهِ وَآلَ صَادِ	يَا سَادِي يَا بَنِي عَلِيٌّ
خَلَائِفُ اللَّهِ فِي الْبَلَادِ	مَنْ ذَا يُوازِيْكُمْ وَأَنْتُمْ
يَهْدِي بَهَا اللَّهُ كُلَّ هَادِ	أَنْتُمْ نَجُومُ الْمَهْدِيِ الْلَّوَاتِي
وَالتَّبَسَّرُ الْغَيُّ بِالرَّشَادِ	لَوْ لَا هُدَاكُمْ إِذَا ضَلَّلَنَا
عُمْرِي وَفِي بُعْضِكُمْ أُعَادِي	لَا زَلْتُ فِي حُبِّكُمْ أُوَالِي
إِيَّاكمُ وَهُوَ خَيْرُ زَادِ	وَمَا تَزَوَّدَتُ غَيْرَ حَبِّي
فِي عَرْصَةِ الْحَشْرِ اعْتَمَدَيْ	وَذَاكَ ذُخْرِيُّ الذِّي عَلَيْهِ
يَشْنَأُكُمْ اعْتَقَادِي	وَلَا كُمْ وَالْبَرَاءُ مَمْنُ

انتهى النقل عن الغدير وفيه الكفاية.

السباحة:

خُصوصاً في بلد مثل بلادنا العزيزة البحرين حرستها الله وصانها وسواحلها وما
تبقي من عيونها وأهلها المؤمنين من فتن آخر الزمان...

٣٠- عن أمير المؤمنين عَلِيُّهِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمُوا أَوْلَادَكُمْ
السباحة والرميّة».^(٤١)

حديث مشهور، وورد هذا في غيره أيضاً.^(٤٢)

الهدية الثالثة - هدية البر والخدمة: وفيها ثلات تحف:

التحفة الأولى من الهدية الثالثة - في البر بالأم والنهي عن عكسه:

قدمنا الأم لتقديمها على الأب في الروايات الحاثة على البر وشدة التأكيد على ذلك في الشريعة المقدسة..

جواهرها:

٣١- عن أبي عبدالله عليهما السلام قال: « جاء رجل إلى النبي عليهما السلام فقال: يا رسول الله من أَبْرُّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم من؟ قال: ثم من؟ قال: أباك ». ^(٤٣)

٣٢- عن أبي عبدالله عليهما السلام في خبر إبراهيم بن مهزم قال: خرجت من عند أبي عبدالله عليهما السلام ليلةً مُمسِيًّا، فأتيت منزلـي بالمدينة، وكانت أمي معـي، فوقع بيـني وبينـها كلامٌ فأغـلـظـتـ لهاـ. فـلـمـ أـنـ كـانـ مـنـ الـغـدـ صـلـيـتـ الـغـدـةـ وـأـتـيـتـ أـبـاـ عـبـدـ اللهـ عـلـيـهـ الـسـلـامـ فـلـمـ دـخـلـتـ عـلـيـهـ فـقـالـ لـيـ مـبـدـئـاـ: « يـاـ أـبـاـ مـهـزـمـ مـاـ لـكـ وـلـلـوـالـدـةـ أـغـلـظـتـ فـيـ كـلـامـهـ الـبـارـحةـ ؟ـ أـمـاـ عـلـمـتـ أـنـ بـطـنـهـ مـنـزـلـ قـدـ سـكـنـتـهـ ؟ـ وـأـنـ حـجـرـهـ مـهـدـ قـدـ غـمـزـتـهـ ؟ـ وـثـدـيـهـ وـعـاءـ قـدـ شـرـبـتـهـ ؟ـ قـالـ: قـلـتـ: بـلـىـ. قـالـ: فـلـاـ تـغـلـظـ لـهـ ». ^(٤٤)

هـذـاـ نـهـيـ عـنـ الإـغـلـاظـ وـالـقـسـوةـ عـلـيـهـ فـيـ الـكـلـامـ فـالـعـيـادـ بـالـلـهـ مـاـ هـوـ أـعـظـمـ مـنـ ذـلـكـ..

٣٣- عن أبي جعفر عليهما السلام قال: « كان في بني إسرائيل عابدٌ يقال له جريح، وكان يعبد الله في صومعة فجاءته أمه وهو يصلي فدعنته فلم يجدها ولم يكلمها فانصرفت وهي تقول: أسأله بني إسرائيل أن يخذلك. فلما كان من الغد جاءت فاجرة وقعدت عند صومعته قد أخذها الطلاق فادعـتـ أـنـ الـوـلـدـ مـنـ جـرـحـ، فـفـشـاـ فـيـ بـنـيـ

إسرائيل أن من كان يلوم الناس على الزنا زنى. وأمر الملك بصلبه. فأقبلت أمه إليه تلطم وجهها.

فقال لها: اسكتي إنما هذا لدعوك. فقال الناس لما سمعوا منه ذلك: وكيف لنا بذلك؟ قال: هاتوا الصبي. فجاءوا به فأخذته فقال: من أبوك؟ فقال: فلان الراعي لبني فلان. فأكذب الله الذين قالوا ما قالوا في جريح فحلف جريح أن لا يفارق أمه ^(٤٥) يخدمها».

التحفة الثانية من الهدية الثالثة - في بعض حقوق الأب والبر به وثوابه:
وكم يغفل عن حقوقه وبره وهو الذي أعرق جبينه وأدمى أياديه وأحرق قلبه،
أفالجفاء يجازى؟!

جواهرها:

٣٤- عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال : «سأله رجلٌ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حقُّ
والد على ولده قال لا يسميه باسمه ولا يشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا
يَسْتَسِبُّ له». ^(٤٦)

قال العلامة المجلسي شارحاً: "تبیان: أن لا يسميه باسمه": لما فيه من التحقيق
وترک التعظیم والتوقیر عرفاً بل يسمیه بالکنية لما فيها من التعظیم عند العرب أو
الألقاب المشتملة على التعظیم أو اللطف والإكرام كقوله يا أبة وقال أبي أو والدي
ونحو ذلك.

«ولا يجلس قبله»: أي زماناً أو رتبة والأول أظهر ويحمل التعميم وإن كان
بعيداً.

«ولا يستسب له»: أي لا يفعل ما يصير سبباً لسب الناس له كأن يسبهم أو

آباءهم وقد يسب الناس والد من يفعل فعلاً شنيعاً قبيحاً [وعلية الروايات].^(٤٧)
انتهى.

٣٥- عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ في خبر إبراهيم بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن أبي قد كبر جداً وضعف فنحن نحمله إذا أراد الحاجة». فقال: إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل ولقمه بيده فإنه جُنَاحُ لك غداً». ^(٤٨)
انظروا إلى البر ما يفعل بأهله!!:

٣٦- عن أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ (أن الراوي البزنطي) سمعه يقول:
«إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثم أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثم جاء يطلب بدمه. فقالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن سبط آل فلان قتلوا فلاناً. فأخْبَرُونَا مِنْ قَتْلِهِ». قال: ايتوني ببقرة ﴿قَالُوا أَتَشَخَّذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤٩) [وحدث ما حدد بما هو معروف من عنادهم له وقد حذفته اختصاراً، إلى أن ألمتهم الحجة] فطلبوها فوجدوها عند فتي من بني إسرائيل فقال: لا أبيعها إلا بـ[أي جلدتها] ذهبًا فجاءوا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا له ذلك. فقال: اشتروها. فاشتروها وجاءوا بها فأمر بذبحها ثم أمر أن يضرب الميت بذنبها فلما فعلوا ذلك حيي المقتول وقال: يا رسول الله إن ابن عمي قتلني دون من يدعى عليه قتلي. فعلموا بذلك قاتله.

قال: رسول الله موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ لبعض أصحابه: إن هذه البقرة لها نبأ.
قال: وما هو؟ قال: إن فتي من بني إسرائيل كان باراً بأبيه وإنه اشتري تبيعاً، فجاء إلى أبيه ورأى أن المقاليد تحت رأسه فكره أن يوقظه فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره فقال له: أحسنت خذ هذه البقرة فهي لك عوضاً لما فاتك.

قال: فقال له رسول الله موسى بن عمران انظروا إلى البر ما بلغ بأهله». (٥٠)

التحفة الثالثة من الهدية الثالثة - في ثواب خدمة العائلة والتربيّة والحمل والولادة:

العائلة، الكل فيها خادم، حتى السيد (الأب)..

حواله‌ها:

ثواب النساء في خدمة الأزواج وتربيّة الأولاد والحمل والولادة:

٣٧- عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآتَاهُ قَالَ: «أَيَا امْرَأَةً رَفَعْتَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا شَيْئًا مِنْ مَوْضِعٍ تَرِيدُ بِهِ صَلَاحًا نَظَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهَا، وَمَنْ نَظَرَ اللَّهَ إِلَيْهِ لَمْ يَعْذِبْهُ.

فقالت أم سلمة حَدَّثَنَا: ذهب الرجال بكل خير، فأي شيء للنساء المساكين؟

فقال عليه السلام: بلـيـ. إذا حـمـلتـ المـرـأـةـ كـانـتـ بـنـزـلـةـ الصـائـمـ الـجـاهـدـ بـنـفـسـهـ وـمـالـهـ
فـيـ سـبـيلـ اللهـ، إـذـاـ وـضـعـتـ كـانـ هـاـ مـنـ الـأـجـرـ مـاـ لـاـ تـدـرـيـ مـاـ هـوـ لـعـظـمـهـ، فـإـذـاـ أـرـضـعـتـ
كـانـ هـاـ بـكـلـ مـصـةـ كـعـدـلـ عـتـقـ مـحـرـ منـ وـلـدـ إـسـمـاعـيلـ. إـذـاـ فـرـغـتـ مـنـ رـضـاعـهـ ضـرـبـ
مـلـكـ عـلـىـ جـنـبـهـاـ [ـجـنـبـهـاـ]ـ وـقـالـ اـسـتـأـنـفـ الـعـمـلـ فـقـدـ غـفـرـ لـكـ»ـ.⁽⁵¹⁾

٣٨- عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «النفساء تبعث من قبرها بغير حساب، لأنها ماتت في غم نفاسها».^(٥٢)

وأمّا إعانة الرجل امرأته في بيتها وخدمته عيالهُ وثوابه:

فتاملوا يا رجال !!

٣٩- عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ فِي كِتَابِ الْمَاقِبِ:

" أنه اشتري عَلَيْهِ تِرَا بِالْكُوفَةِ فَحَمَلَهُ فِي طَرْفِ رَدَائِهِ فَتَبَادَرَ النَّاسُ إِلَى حَمْلِهِ وَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ نَحْمِلُهُ فَقَالَ عَلَيْهِ: «رَبُّ الْعِيَالْ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ».

وكان علي عَلَيْهِ يَحْمِلُ التَّمْرَ وَالملحَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ:

«لَا يَنْفَصُّ الْكَامِلُ مِنْ كَمَالٍ مَا جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إِلَى عِيَالِهِ»^(٥٣)

٤٠- عن رسول الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حديث عن علي عَلَيْهِ قَالَ: «دخل علينا رسول الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وفاطمة جالسة عند القدر وأنا أنقي العدس. قال: يا أبا الحسن. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: اسمع مني وما أقول إلا من أمر ربِّي.

ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنها عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلاها، وأعطاه الله تعالى من الثواب مثل ما أعطاه الله الصابرين وداود النبي ويعقوب وعيسى عَلَيْهِ.

يا علي من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله تعالى اسمه في ديوان الشهداء وكتب الله له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمره وأعطاه الله تعالى بكل عرق في جسده مدينة في الجنة.

يا علي ساعة في خدمة العيال خير من عبادة ألف سنة وألف حج وألف عمرة وخير من عتق ألف رقبة وألف غزوة وألف عيادة مريض وألف جمعة وألف جنازة وألف جائع يشع لهم وألف عار يكسوهم وألف فرس يوجهها في سبيل الله وخير له من ألف دينار يتصدق على المساكين وخير له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ومن ألف أسير أسر فأعتقها وخير له من ألف بدن يعطي للمساكين ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة.

يا علي من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب يا علي خدمة

العيال كفارة للكبائر ويطفئ غضب الرب ومهور حور العين ويزيد في الحسنات والدرجات يا علي لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد أو رجل ي يريد الله به خير الدنيا والآخرة».^(٥٤)

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سادتنا وقادتنا ونور قلوبنا محمد وآلـهـ الطاهرين.

المواهـشـ:

- (١) جاء في روایات عدـةـ تفسـيرـ قولهـ تعالىـ: ﴿وَوَالِّدُ وَمَا وَلَدَ﴾ـ الآيةـ ٣ـ منـ سورةـ الـبـلـدـ -ـ بـالـبـنـيـ عـلـيـهـ زـلـفـةـ وـمـاـ وـلـدـ مـنـ الـأـوـصـيـاءـ،ـ وـفـيـ أـخـرـ بـأـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـمـاـ وـلـدـ مـنـ الـأـئـمـةـ عـلـيـهـ زـلـفـةـ.ـ لـتـفـصـيلـ رـاجـعـ الـبـرـهـانـ فـيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ.
- (٢) مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ:ـ الـفـصـلـ السـادـسـ فـيـ الـأـوـلـادـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـمـ:ـ فـيـ فـضـلـ الـأـوـلـادـ صـ ٢١٩ـ.ـ جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (ـنـورـ)
- (٣) الـمـاحـاسـ:ـ جـ ١ـ:ـ الـبـابـ ٤٧ـ بـابـ الـحـبـوـيـاتـ:ـ الـحـدـيـثـ ٤٥٣ـ:ـ صـ ٢٩٣ـ.ـ جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (ـنـورـ)
- (٤) الـبـرـهـانـ فـيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ:ـ سـوـرـةـ يـوـسـفـ(١٢ـ):ـ الـآـيـاتـ ٨٣ـ إـلـىـ ١٠١ـ:ـ الـحـدـيـثـ ٥ـ.
- (٥) مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ:ـ الـفـصـلـ السـادـسـ فـيـ الـأـوـلـادـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـمـ:ـ فـيـ فـضـلـ الـأـوـلـادـ صـ ٢١٩ـ.
- (٦) كـامـلـ الـزـيـاراتـ:ـ الـبـابـ الـرـابـعـ عـشـرـ حـبـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ زـلـفـةـ الـحـسـنـ وـالـحـسـيـنـ عـلـيـهـ زـلـفـةـ وـالـأـمـرـ بـجـبـهـمـاـ وـشـوـابـ حـبـهـمـاـ:ـ الـحـدـيـثـ ١ـ:ـ صـ ٥١ـ.ـ جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (ـنـورـ)
- (٧) مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ:ـ الـفـصـلـ السـادـسـ فـيـ الـأـوـلـادـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـمـ:ـ فـيـ فـضـلـ الـأـوـلـادـ صـ ٢٢٠ـ.
- (٨) بـحـارـ الـأـنـوارـ:ـ جـ ١٠٤ـ:ـ صـ ٩٢ـ:ـ حـ ١٠ـ:ـ بـابـ فـضـلـ الـأـوـلـادـ.
- (٩) مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ:ـ الـفـصـلـ السـادـسـ فـيـ الـأـوـلـادـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـمـ:ـ فـيـ فـضـلـ الـأـوـلـادـ صـ ٢٢٠ـ.
- (١٠) النـوـادـرـ لـلـرـاوـنـدـيـ:ـ صـ ٦ـ.ـ مـثـلـهـ فـيـ مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ.ـ جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (ـنـورـ)
- (١١) فـيـ الـبـحـارـ:ـ «ـعـلـيـ عـلـيـهـ زـلـفـةـ»ـ وـظـاهـرـ أـنـهـ مـاـ أـبـتـ.
- (١٢) عـدـةـ الدـاعـيـ:ـ صـ ٨٩ـ.ـ جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (ـنـورـ)
- (١٣) فـيـ سـنـنـ التـرـمـذـيـ:ـ الـحـدـيـثـ ٣٧٠٣ـ:ـ «ـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ يـعـقـوبـ»ـ.ـ بـرـنـامـجـ مـوـسـوعـةـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ (ـصـخـرـ)

- (١٤) المناقب: فصل في محبة النبي ﷺ إياهـا: ج ٣: ص ٣٨٣. جامع الأحاديث (نور). نقله البحار: ج ٤٣: ص ٢٨١ ح ٤٩.
- (١٥) أمالـي الصدوق: المجلس ٨٥: الحديث ٦. ص ٥٧٧. جامع الأحاديث (نور)
- (١٦) الكافي: كتاب الأطعمة: باب نوادر: الحديث ١٩. ج ٦: ص ٢٩٩.
- (١٧) لسان العرب.
- (١٨) سورة الإنسان: ٨.
- (١٩) وسائل الشيعة: كتاب النكاح: أبواب أحكام الأولاد: أبواب النفقات: الباب (٢٠) استحبـاب التوسعة على العيال: الحديث ١. ج ٢١: ص ٥٤٠ (آل البيت علـيـهـما السلام).
- (٢٠) المصدر. الحديث: ٢.
- (٢١) المصدر. الحديث: ٤.
- (٢٢) سورة آل عمران: ٣٧.
- (٢٣) تفسير العياشي: الحديث ٤١: من تفسير سورة آل عمران. ج ١ ص ١٧١. جامع الأحاديث (نور).
- (٢٤) مكارم الأخـلـاقـ: الفصل السادس في الأولاد وما يتعلـقـ بهـمـ: في فضل الأولاد ص ٢٢٢.
- (٢٥) المصدر. وفيه «عنه علـيـهـما السلام».
- (٢٦) المصدر.
- (٢٧) من لا يحضرهـ الفقيـهـ: كتاب النـكـاحـ: بـابـ تـأـديـبـ الـولـدـ وـامـتحـانـهـ: الحديث ٤٧٤٣: ج ٣: ص ٤٩٢.
- جامع الأـحـادـيـثـ (نـورـ).
- (٢٨) الكـافـيـ: كتابـ العـقـيقـةـ: بـابـ تـأـديـبـ الـولـدـ: الحديث ٣. ج ٦: ص ٤٧.
- (٢٩) الحـصـالـ: حـدـيـثـ الـأـرـبـعـمـةـ. ص ٦١٤. جـامـعـ الـأـحـادـيـثـ (نـورـ).
- (٣٠) وسائلـ الشـيـعـةـ: ج ٢١: ص ٤٧٨.
- (٣١) وسائلـ الشـيـعـةـ: كتابـ النـكـاحـ: أبوابـ أـحـكـامـ الـأـوـلـادـ: الـبـابـ (٨٤) استحبـابـ تـعـلـيمـ الـأـوـلـادـ فيـ صـغـرـهـمـ الحديث قبلـ أنـ يـنـظـرـواـ فيـ عـلـمـ الـعـامـةـ: الحديث ٦. ج ٢١: ص ٤٧٨.
- (٣٢) أـمـالـيـ الصـدـوقـ: المجلس ٦١: الحديث ١٩: ص ٣٩١.
- (٣٣) الكـافـيـ: كتابـ العـقـيقـةـ: بـابـ التـفـرـسـ فيـ الغـلامـ وـماـ يـسـتـدـلـ بـهـ عـلـىـ نـجـابـتـهـ: الحديث ٢.
- الـكـافـيـ: ج ٦: ص ٥٢.
- (٣٤) المصدر: الحديث ٣.
- (٣٥) بـحـارـ الـأـنـوارـ: ج ٦٠: ص ٣٦٢. ذـيلـ الـحـدـيـثـ ٥٤.

- (٣٦) سورة البقرة: ٩٧.
- (٣٧) تفسير الإمام الحسن العسكري ع: الحديث ٢٩٧.
- (٣٨) نهج البلاغة.
- (٣٩) بحار الأنوار: كتاب النواهي: أبواب المعاصي والكبائر وحدودها: باب (١٠٨) الشعر وسائر التنزهات واللذات. ج ٧٩: ص ٢٩٣.
- (٤٠) (موسوعة الغدير) في الكتاب والسنة والأدب: شعراء الغدير في القرن الثاني ج ٢: ص ٤٠٩.
- (٤١) الكافي: كتاب العقيقة: باب تأديب الولد: الحديث ٤. ج ٦: ص ٤٧.
- (٤٢) بمناسبة ذكر الحث على تعليم السباحة، أكتب هذه السطور في قم المقدسة (٣٠/١٤٢٩هـ) وقد ورد البارحة نبأ حادث غرق ابني عشر شاباً مؤمناً - اثنان منهم من أبناء أحد الزملاء في بعض الدروس والثالث ابن السيد ترقي جار محل الدرس - كلُّهم من حفاظ وقراء القرآن الكريم على إحدى السواحل في إيران. رحم الله من توقي منهم، وشافي الباقين.
- (٤٣) الكافي: كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين: الحديث ٩. الكافي ج ٢: ص ١٦٠.
- (٤٤) بصائر الدرجات: المجزء الخامس: باب (١١) في الأئمة أنهم يخربون شيعتهم بأفعالهم وسرهم وأفعال غبيهم وهم غيب عنهم: الحديث ٣: ص ٢٤٣ جامع الأحاديث (نور).
- (٤٥) قصص الأنبياء للراوندي: الباب التاسع في بني إسرائيل: الحديث ٢٠٧: ص ١٧٨. جامع الأحاديث (نور).
- (٤٦) الكافي: كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين: الحديث ٥. ج ٢: ص ١٥٨.
- (٤٧) بحار الأنوار ج ٧١: ص ٤٥.
- (٤٨) نفس المصدر. الحديث ١٣.
- (٤٩) سورة البقرة: ٦٧.
- (٥٠) عيون أخبار الرضا ع: الجزء ٢: الباب (٣٠): باب فيما جاء عن الرضا ع من الأخبار المنشورة: الحديث ٣١.
- (٥١) الأمالي للصدق: المجلس الرابع والستون: الحديث ٧. ص ٤١٢.
- (٥٢) أمالى الطوسي: المجلس ٣٦: الحديث ٢٧. ص ٦٦٥. جامع الأحاديث (نور).
- (٥٣) المناقب: المجزء الثاني: باب درجات أمير المؤمنين ع: في المسابقة بالتواضع، عن الإبانة عن ابن بطة والفضائل عن أحمد وعن قوت القلوب عن أبي طالب المكي. ص ١٠٤. جامع الأحاديث (نور).
- (٥٤) جامع الأخبار: الفصل (٥٩) في خدمة العيال: ص ١٠٣. جامع الأحاديث (نور).

التربية الدينية

في ضوء الدراسات النفسية

قصي الشيخ علي العربي

كما يعلم قارئي الكريم أن التربية والتعليم يعتبران من أهم المسؤوليات البشرية وأكثرها قيمة، وقد بعث أشرف بنى الإنسان وهم الأنبياء وأوصياؤهم لتحقيق هذا المأرب فسقوا على مر التاريخ برامع سعادة بنى الإنسان وفلاحهم من هذين النبيوعين الفياضين.

ولكن... لماذا ياترى تحدد تحقيق هذه السعادة باتباع المناهج الإلهية وعجز الإنسان عن وضع التعاليم المناسبة التي يحتاج إليها؟

إنه موضوع تكمن فيه أمور يلقي بحثنا المتواضع هنا الأضواء من زاوية معينة على أحدها، حيث عثر في ثناياه على رمز حل الكثير من المشكلات التي يواجهها التعليم والتوجيه الديني في وقتنا الراهن.

تتركز مقومات حياة الإنسان وأي من الكائنات الحية الأخرى على التحويل والتطور، وتتواصل هذه التحولات الكمية والنوعية «النمو والنضج».

ونعني بالجانب الكمي منها: التحولات الجسمية، وبالجانب النوعي: التغيرات الطارئة على الأصدعة المعرفية (مثل: الإدراك، التفكير وحل القضايا) أو الإجتماعية (مثل: العلاقات مع الآخرين) أو العاطفية (من قبيل: المشاعر والاتجاهات).

وبما أن الله هو خالق الإنسان ويعرف جميع خصائصه وسماته على اختلافها، الخفية منها والظاهرة، ويدرك منحى ومراحل نموه ونضجه بمحاذير تفاصيلها، فإن أفضل المناهج التربوية وأكثرها شمولية بُعثت وقدمت إلينا من قبله.

وهنا أود إلفات ذهن قارئي النبيء إلى ملاحظة هامة: هي أن النجاح في وضع أي منهج تعليمي أو تربوي صحيح منوط بمدى اطلاع المبادر إلى مثل هذه الخطوة على خصائص نمو مخاطبيه ونضجهم.

إن من أهوال الهموم التي يتعرض لها التعليم والتوجيه الديني في مجتمعنا للأسف هو إهمال مقوله علم نفس التلاميذ التي تلوح الكثير من الروايات الإسلامية إلى اهتمام وجهاء ديننا منذ القدم بها وتنبيههم الآخرين أيضاً إلى أهميتها.

وعلى الصعيد العلمي تجري في الوقت الحالي أبحاث واسعة النطاق لتأطير التعليم الديني بإطار الثوابت النفسية، حيث تشير التحقيقات الراهنة والأبحاث الجارية في المدارس إلى تدني التوجيه الديني على المستوى المطلوب بل قد يستجلب نتائج عكسية أحياناً، فلماذا يتخطب مجتمعنا اليوم في متاهات فساد ثلة كبيرة من جيل شبابنا وابتعادهم عن جادة الإيمان؟

ما هو سبب عدم حظوظ المقص الدينية في مدارسنا بالمكانة اللائقة بها؟

ولم يعجز الإسلام الذي تعرضه هذه المقص عن حل مشاكل التلاميذ؟

أين تكمن العلة فيما يواجهه المعلمون من صعاب في تدريس التعليمات الدينية، وإلى هذا المستوى، وإلى هذا الحد؟

ولماذا يشهد التوجه الإسلامي في مجتمعنا تخلفاً قياساً إلى التوجيه الذي تحظى به بقية الأديان في غيره من المجتمعات؟

هناك استفسارات كثيرة من هذا القبيل يتعين على علماء الدين والأساتذة الكرام الإجابة عليها، والتي من خلالها يمكننا الإشارة إلى انعدام الوعي التام بخصائص التلاميذ ومميزاتهم النفسية.

أفرزت أبحاث كثيرة أجريت في البلدان الأخرى خلال العقود الأخيرة تحولات جمة في مجال التوجيهي الديني كما تم نشر كتب ومقالات تحقيقية عديدة حول هذا الموضوع تدل كلها على اهتمام المجتمعات العلمية في العالم بهذا الموضوع الحساس والهام.

وتعنى كتابي هنا - بما تتيحه لي إمكاناتي البسيطة بعد مطالعتي واستفادتي مما قيل وكتب من قبل أساتذتي الكبار - بفترة الطفولة، أي الفترة ما بين الخامسة والثانية عشرة من العمر باعتبارها مرحلة متمايزة وحساسة.

جاء في كتاب *وسائل الشيعة*^(١) حديث يشير فيه الإمام الصادق علیه السلام إلى أن المرء يفوز بالصلاح والصلاح إن تم توجيهه منذ الطفولة، ولا خير فيه في غير تلك الحالة، وتنوه الروايات إلى رسوخ واستمرار نتائج التربية والتعلم فيما لو تم في مرحلة الطفولة، وفي غير هذه الحالات لا يمكن عقد الآمال على التعليم الجاري عن الكبر كما في الحديث: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر» .

إن هذه الأهمية القصوى لفترة الطفولة من حياة الإنسان أدت إلى تناولها بالدراسة والتقصي الدقيق في مختلف العلوم من خلال أبحاث حددت التوقعات المعقولة من الطفل في كل سنة من هذه المرحلة، ومن شأنها أن تأخذ بيد الآباء والمربين لتوجيه الأطفال نحو النمو والنضج الطبيعي السوي.

إن رواد الدينين ومحبي العنصر الإنساني الراغبين في توجيهي أي شعب نحو

حياة سوية هائمة تتسم بهدوء حقيقي ينبعونها دوماً إلى ضرورة الإهتمام ب التربية للأطفال ويقدمون لهم الوصايا الالزمة في هذا الصدد، وقد جاء عن النبي الكريم عليه وآله وآل بيته الأطهار عليهما السلام روايات وأحاديث ثمينة تدل على أهمية هذه المرحلة من وجهة نظر التنشئة الإسلامية.

يقول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام : «من لم يعلم في الصغر لم يتقدم في الكبر»^(٢).

إن مؤلفي الكتب الدينية والمسؤولين في حقل التربية والتعليم للأطفال والناشئة لن يكون أي نجاح يستحق الذكر حليفاً لهم في مضمار التعليم الديني دون الإمام ب Shawabat علم النفس.

يحاول موضوع هذا البحث البسيط الإجابة على استفسارين هامين هما:

١- ما هي المراحل التي يجتازها الطفل في مسيرة نمو ونضج ادراكه الديني، وما هي خصائصها؟

٢- بالنظر إلى خصائص هذه المراحل ومستوى إدراك الطفل للمفاهيم الدينية كيف يتبع تدريس هذه المفاهيم وتوجيه الطفل بشكل صحيح نحوها؟

و قبل الرد على الإستفسارين يستحسن الإشارة إلى مراحل النمو والنضج، إذ تم تقسيم مسيرة نمو الإنسان وفقاً لبعض الدراسات الجارية إلى المراحل السنتالية:

١- فترة الطفولة (الولادة والرضاعة) : منذ الولادة وحتى الشهر الثامن عشر.

٢- فترة الطفولة المبكرة: (منذ السنتين وحتى نهاية السنة الرابعة).

٣- فترة الطفولة الوسطى: (منذ نهاية السنة الرابعة وحتى السنة السابعة).

٤- فترة الطفولة المتأخرة: (منذ نهاية السنة السابعة وحتى السنة الثانية عشرة).

٥- فترة المراهقة: (منذ نهاية السنة الثانية عشرة وحتى السنة السادسة عشرة).

٦- فترة الشباب: (منذ نهاية السنة السادسة عشرة وحتى العشرين من العمر).

يتمحور موضوع البحث في هذه الأسطر المتواضعة حول الفترتين الأخيرتين من الطفولة، ولاسيما فترة الطفولة المتأخرة، أي: مرحلة الدراسة الإبتدائية:

لما كان الهدف من معرفة الطفل في هذه المرحلة من النمو والتضيّع هو التمهيد لعرض القضايا المتعلقة بالتوجيه والتعليم الديني ارتأينا أن نتطرق في هذا المجال - بشكل مختصر - إلى أحد جوانب نمو الطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة (٧-١٢) وأن نؤكد بشكل خاص على المجال الأكثر ارتباطاً مع التوجيه الديني في مرحلة الإبتدائية.

أ- النمو الجسمي:

ساد بيننا منذ القدم المثل القائل: «العقل السليم في الجسم السليم»

ولهذا يعتبر نظام التربية والتعليم الحديث القائم على أساس علم النفس الحديث الإهتمام بجسم الطفل من أهم واجبات المعلمين والمرشدين، مبرهناً على ذلك بأنه ينبغي علينا أن لانغفل قط عن الإهتمام بالنمو الجسمي للإنسان لما لنمط نموه الجسمي من تأثير كبير في تحديد نموه في بقية المجالات.

يتحدد نمط النمو الحركي في السنوات الثلاث الأولى من مرحلة الإبتدائية غالباً بمؤثرات بيئية الأطفال، فالطفل يتوجه عادة نحو النشاطات التي يجد في ذاته الإستعداد

ها أو تنسح له الفرصة الكافية لإنجازها ويثاب عليها، وهذا يؤكّد علماء النفس على المرشدين من علماء دين أو معلمين في المدارس الإبتدائية بضرورة بذل الدقة الكافية عند انتخاب نوع التمارين وتنوعها بما يضمن تلبية احتياجاتهم العاطفية والعقلية والفكريّة والإجتماعية.

ويحظى اللعب كالسفرات الترفيهية بأهمية قصوى في سياق النمو والنضج الجسدي للتلاميذ وتلبية احتياجاتهم المتعددة، ولا يعود ذلك لدوره في تنمية عضلات جسمه فقط بل لكونه أسلوباً ينشّط قواهم الفكرية ويعليمهم السلوكيات الإجتماعية ونقط التعامل مع الآخرين.

ومن أهم الأمور الكامنة في اللعب هو تطور الطفل أخلاقياً أثناء ممارسته، لأنّه يستوحى من اللعب ضرورة رعاية الإلتزامات الأخلاقية عند الإنضمام إلى مجموعة ما، وإن تجاهله لهذا الموضوع يجعله منبوذاً من قبلهم.

والطفل في هذه المرحلة يميل إلى الألعاب ذات الطابع الحركي الزائد ليبني سرعته وقدرته ومهارته ويشبع رغبته في التنافس، إنه قادر على التحكّم بعضاً لاته وحركاته، وفي هذا الصدد يمكننا أن نخلص إلى أن المعلم إن تمكن من إضفاء طابع اللعب على نقط تدرسيه فإنه سينجح في إنجاز مهمته وتعليم التلاميذ المولعين باللعب والنشاطات العملية بشكل أسرع، وبالنظر لأهمية اللعب في هذا المجال يعتبره أغلبية العلماء أساس التدريس، وأن هذا الإجراء أهم نجاح يحرزه المعلمون في هذه المرحلة.

بـ- النمو اللغوي:

يثل عدد المفردات المستخدمة طول العبارات، وصحة الكلام، ونقط التعبير عن

الأفكار مؤشرات على مدى النمو اللغوي لدى الأطفال، ومن المسلم به أن عدد المفردات التي ينبغي أن يعرفها الطفل في السنوات المختلفة من هذه المرحلة ترتبط بذكائه وبيئته التعليمية، ويزداد بتقدم العمر.

وما يجدر تنبه المربين والمؤلفين إليه هو أن استخدام أية لفظة من قبل التلميذ لا يعني بالضرورة استيعابه لمعناها بل قد يجهل مفادها تماماً أو أنه يستوحى منها معنىً لا يتطابق مع مفهومها لدى المعلم مما يجعل تعليم المدركات في مختلف المراحل ولاسيما ما يتعلق منها بالألفاظ والمصطلحات الدينية أمراً صعباً ومنها الإيمان، التقوى، الإحسان، الإيثار، المعاد ومصطلحات كثيرة أخرى.

ومن أساليب الكشف عن مدى فهم التلاميذ للمعاني وإزالة الغموض عن أفكارهم هو أن نطلب منهم استخدام الكلمات في مكانها الصحيح.

وما يجب مراعاته أيضاً هو استخدام كلمات ترتبط بحياة التلاميذ العادية في النصوص؛ أي أن تعلم اللغة العصرية أهم من تعلم لغة عدة قرون مضية.

ج- النضج العقلي:

وتحمل الحديث فيه كما عند علماء النفس: أن الموهاب العقلية - وهي مجموعة العمليات المعنوية أو الباطنية - للأطفال تتتطور في أغلبية جوانبها بسرعة أكبر من سرعة تطور قابلياته الجسمية التي ستنطرب هنا بإختصار إلى بعض جوانبها المتنوعة:

١- نمو ونضج المدركات الحسية:

عند تعرض أحد الأعضاء الحسية إلى الإستثارة بفعل عامل خارجي ينتقل الالياز عن طريق الأعصاب إلى النخاع الشوكي فيثير هنالك انعكاساً يدعى

«الشعور»، وتسمى عملية تحليل وتفسير هذا الشعور في المخ «الإدراك». ومن الخصائص الحسية لدى الأطفال هي خلطهم بين الخيال والواقع، فقد يؤكد الطفل بأنه يسمع صوتاً ما ويكون ذلك من صنع خياله، إذاً علينا التحذز من اتهامه بالكذب في مثل هذه المواقف.

ويثل التنبه إلى الواقع من مهام الإدراك الحسي، وهذا لابد للمربي أن يجهدوا لإنماء حواس التلاميد وتنمية ادراكم الحسي في محاولة لتقريبهم من الواقع وتصحيح مدركاتهم.

٢- تطور المفاهيم:

يتتمكن الطفل من التعرف على مفاهيم الكلمات والأشياء عن طريق إعادة الإختبار، والإرتباط المباشر مع البيئة الطبيعية والإجتماعية والتفاعل معهما وربط مفراداتها، أي التقدم من المفاهيم التجريبية الحسية إلى المفاهيم الرمزية للأشياء فيتمكن من معرفة أسمائها وخصائصها دون مشاهدتها أمام عينيه، كالعدل، الفضليّة، الخير، و.. و.

٣- تطور نحو دقة التركيز:

تشهد قابلية الطفل على التركيز نمواً وتطوراً تدريجياً يواكب تطور قابليته لضبط عملياته العقلية.

بناء على هذا يتعين على مؤلفي الكتب الدراسية الإبتدائية ولاسيما مؤلفي كتب مادة الدين وكذلك المعلمين التعرف على ميول التلاميد في مرحلة الإبتدائية للإستناد إلى هذه الميول إبان العمل على تطويرهم وتربيتهم، والتعرّف على ميل الأطفال إلى ما يحفزهم على الحركة وبيتهم الحيوية والنشاط أو يثير أحاجيهم

الحسية، ولابد للمعلم الركون إلى هذه الرغبة وعدم تجاهل دور الإثارة الحسية في عملية التدريس، ومثل هذا الأمر يؤدي إلى عدم تقييد المعلم بأجواء الصف بل لجوئه إلى الأمثلة الواقعية في الحياة وإطلاع التلاميذ عليها، أو الإفادة بما يسمح له حمله إلى الصف من صور وخرائط ونماذج وحيوانات .. و.

إلى ما هنالك من تطور في الموهوب العقلية الأخرى للأطفال، كتطور الذاكرة وتطور الذكاء وتطور الإستدلال.

من هنا يلزم الإستفادة من مرحلة الإبتدائية التي يطلق عليها في الروايات الإسلامية «مرحلة العبادة والطاعة» حيث أنها تعتبر - كما في علم النفس - أفضل برهة زمنية لتطبيق المناهج التعليمية والتربوية، فالطفل في الصف الأول الإبتدائي يكمن أحمر المشاعر إزاء معلمه، ورغم خفوت هذه الحبة نسبياً جراء تغير المعلمين في السنوات التالية إلا أنه ما يلبث يحب معلمه مادام الطفل يخضع بسهولة لأبويه، ومعلمه يحسن استثمار هذه المواقف وإرشاد الطفل مع توخي الدقة نحو الأهداف التربوية المنشودة، وهذا يقال: «إن التعلم مثلما هو أمر عقلي وفكري فإنه عاطفي أيضاً»^(٣).

يولع التلميذ في هذه السنين بالنشاط والحركة، فيكون في سن العاشرة أو في سن الحادية عشرة من المرحلة الإبتدائية أكثر جدية وحيوية من تلميذ الصفوف الثلاثة الأولى، ويبدون نضجاً وبراعة متزايدة في العمل لرغبتهم في الإبداع وفي حل مشاكلهم بأنفسهم، ويختلط بعض الأطفال في هذه المرحلة خطوات بعيدة نحو ما يحظى بها الإنسان في مرحلة البلوغ من الحرية والتحرر دون أن تزول رغبتهم في المخطوة بامتيازات مرحلة الطفولة، وهذا تتراوح سلوكياتهم بين سلوكيات الأطفال والراشدين.

لهذا ينبغي للمعلم أو للمرشد الديني أن لا يغفل عن دور عاطفة المودة لدى الأطفال لإثارة تعلقهم بال تعاليم الدينية والشخصيات الدينية البارزة، وكذلك عن دور عاطفة الغضب في إثارة نفورهم من أعداء الدين والقيم المضادة للعقائد الدينية.

كما ينبغي الإلتفات إلى دور الغريرة الفطرية، فمن أبرز الخصائص الإنسانية التي يمكن الاستمداد منها في التوجيه والتعليم الديني هي وجود الغريرة الفطرية لدى الإنسان، حيث يولد الطفل حاملاً معه مقومات الكثير من سلوكياته، فالطفل طبق وجهة النظرة الإسلامية يعتبر مشحوناً بدوافع الإيمان بالدين وقضاياه الأساسية مثل الإيمان بالله، وهذا ما يشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلّدِينِ حَنِيفاً فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

إذًا، اهتمام الطفل بالدين وحبه لله لا يعتبران أموراً مكتسبة، بل غريزية كامنة في أعماق وجوده، وتظهر وتزدهر في مرحلة ما بعد البلوغ، ونظام التربية والتعليم معنى في الحقيقة بالإبقاء على هذه الرغبات، وسيكون في غنى عن حمل الطفل على الإيمان بوجود الله، بل واجبه يتمثل في الإبقاء على هذا الإيمان الفطري بالله والعمل على ازدهاره.

ولتحقيق هذه الغاية يكفي إغناء وجوده تماماً من هذا الحب العاطفي بعرض آثار الرحمة الربانية وكذلك النعم الإلهية التي يحظى بها المؤمنون في الجنة بعد الموت، وبإثارة مواقفه القلبية والعقلية الطيبة إزاء هذه الآثار والنعم بما يشيد في كيانه صرح إيمانه الراسخ في المستقبل، وفي هذا الصدد أشار الإمام الباقر عليه السلام في حدث له إلى أن الله تعالى أوحى إلى النبي موسى عليه السلام أن ينشر حبه في قلب الناس ويحبّهم إليه أيضاً، قائلاً: «أَحَبَّنِي وَحَبَّبَنِي إِلَى خَلْقِي» فتساءل موسى عليه السلام كيف يكون له ذلك؟

أي: «يا رب إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا أَحَبًّا إِلَيْيَّ مِنْكَ، فَكَيْفَ لِي بِقُلُوبِ الْعَبادِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَذَكِّرْهُمْ نَعْمَتِي وَآلَائِي فَإِنَّهُمْ لَا يَذَكُرُونَ مِنِّي إِلَّا خِيرًا...»^(٥) أي: أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّ يَذَكُرُهُمْ بِنَعْمَةِ اللَّهِ فَبِذَلِكَ يَضْمُنُ تَحْقِيقَ مَا أَمْرَ بِهِ.

وفي حديث آخر قال الله عَزَّوجَلَّ لِداودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَحَبَّنِي وَحَبَّبَنِي إِلَى خَلْقِي، قَالَ: يَارَبِّ نَعَمْ أَنَا أَحَبُّكَ، فَكَيْفَ أَحَبُّكَ إِلَى خَلْقِكَ؟ قَالَ: اذْكُرْ أَيْدِيَّ عَنْهُمْ، فَإِنَّكَ إِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُمْ أَحَبَّنِي»^(٦).

وإلى جانب هذا الإجراء لابد أن نوظف القصص والحكايات والنماذج المتوفرة في البيئة المحيطة بالأطفال لإثارة نفورهم من الكفر وأعداء الدين، فوجوب تتحقق التولى والتبرى معاً ينساق في مجري مبدأ إسلامي واحد، وفي هذا المجال يجدر بنا أن نذكر أن الحديث المباشر عن العقوبات الإلهية لا يأتي بنتائج إيجابية، بل يجب تعريف العقاب وال العذاب باعتبارهما نتيجة حتمية لما يصدر عن الطالحين والكافر من أعمال مستهجنة ليتنبه الطفل أيضاً بشكل غير مباشر إلى عاقبة ارتكاب الرذائل، أما حول النعم الإلهية فإنه يحسن عند الخوض فيها توجيه الكلام مباشرة إلى الطفل نفسه^(٧).

وبشكل عام قد وصلنا إلى نتيجة مفادها بأن سعادة الشخص أو شقاءه في الحياة إنما يتآتيان غالباً من غط عواطفه وانفعالاته؛ وهذا يستحوذ ذوق الأطفال ومرشدوهم على دور حاسم في هذا السياق. وختاماً نشير إلى عدة تطبيقات تربوية ضرورية يجب مراعتها في هذا المضمار:

١- أن ننح الطفل الفرصة للإعراب عن انعكاساته الإنفعالية وتجنب صده عن ذلك، بل نعيشه على حل مشاكله.

٢- إثارة روح السرور والبهجة لدى الأطفال ليتمكنوا من التطلع إلى الحياة بنظرة بهيجية تعتبر بحد ذاتها عاملاً هاماً في التخفيف عن المشاكل والصعاب.

٣- الإمتناع عن زج الأطفال في أعمال ونشاطات يعجز عن أدائها لأنه إجراء يسلبهم الثقة بالنفس ويؤول بالتالي إلى شعورهم بالنقص والدونية.

٤- أن لا يحاول الآباء والمرشدون إشعارهم بالعجز وتدني قابلياتهم لأنهم سوف ينتهيون تلقائياً وبالتالي إلى مستوى مواهبهم وقابلياتهم.

٥- ينبغي الإستغناء عن مؤاخذة الطفل وتعرضه للنقد وكذلك النصيحة المباشر لأنهما لا يثمران فوائد تذكر، بل يفضل اللجوء إلى الحكايات الأخلاقية والإجتماعية من أجل توعية الفرد بشكل غير مباشر، بشأن وظائفه وواجباته.

٦- يتسبب التهديد في شعور الطفل بالضيق وتشوش باله، وأقل أضراره هو إثار الخوف لديه.

ويتلخص لنا مما تقدم:

أن التنشئة الروحية والإيمانية للأطفال تعتبر من المهام الواجبة على عاتق الآباء على مر الحياة، والإسلام يولي أدب الأبناء وتربيتهم قيمة أكبر من تلبية احتياجاتهم الجسمية:

قال الإمام علي عليه السلام: «خير ما ورث الآباء الأبناء الأدب»^(٨).

وقال رسول الله عليه السلام: «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم يغفر لكم»^(٩).

وفي سياق إيضاح هذا الواجب أشار الإمام السجاد عليه السلام أيضاً: «وأما حق ولدك فأنا تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخирه وشره، وأنك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربّه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه معاقب على الإساءة

١٠

بناء على هذا يتوجب على الأبوين وكذلك المعلمين الذين يتولون مهمة مهاتمة للأبوين بالنسبة لتلاميذهم أن يستوعبوا مسؤوليتهم الشرعية فيبذلوا غاية جديتهم وسعيهم لتنمية روح الإيمان والأخلاق لدى الأبناء، فقضية تعليم وتربيّة الطفل تُمثل أحد القضايا الهامة سواء من وجهة نظر الدين أو العلم⁽¹¹⁾.

وأخيراً أسأل المولى عزّ وجلّ أن ينفعنا بما تقدم، وأن يوفق الكتاب المؤمنين للمساهمة في إثراء هذه التجربة - التي دعت إليها المجلة الموقفة - لتنميتها، وأن يتقبل هذا القليل بأحسن القبول، ويجعله ذخراً لنا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتني الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين.

- (١) وسائل الشيعة: ١٥: ١٩٣.

(٢) نقلًا عن كتاب: «الشاب من وجهة نظر العقل والمشاعر» للعلامة الشيخ الفلسفي تقيّن، ج: ٢، بتصرف.

(٣) علم نفس النمو، ص ٢٤٨.

(٤) الروم: ٣٠.

(٥) ميزان الحكمة: ٢، ح: ٣١٦٨ بتصرف توضيحي.

(٦) ميزان الحكمة: ٢، ح: ٣١٦٩، وقد نقلت هذه الرواية بتصرف بسيط وهي واردة عن الرسول ﷺ.

(٧) تعليم المفاهيم الدينية، للدكتور ناصر باهمن بتصرف.

(٨) ميزان الحكمة: ١، ح: ٣٢١.

(٩) ميزان الحكمة: ١، ح: ٣٩٥.

(١٠) مكارم الأخلاق، ٢٣٢.

(١١) استقيت هذا بتصرف من كتاب: «تعليم المفاهيم الدينية» للدكتور باهمن.

عندما يتحدث الجسد أخلاقاً

رائد ميرزا الستري

تمهيد - الجاذبية الفعالة:

قال المولى سبحانه وتعالى واصفاً وناعتاً للنبي الأعظم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

ولا شك أن المولى سبحانه عندما يذكر هذه الصفة يريد منا أن نتوقف عندها وأن نعطيها مساحة من التأمل والتفكير المتريث والمتحفظ لكل جنباتها.

الأخلاق وما تقلل؟! وتجربة الرسالة متمثلة في النبي محمد ﷺ عندما مارست الأخلاق في كل جنباتها؟ وما الذي حصل وماذا انتجت؟!

يقول المولى سبحانه في موضع آخر: ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِئْنَتِهِمْ وَلَوْ كُثِّرَ فَظًا غَلِيظًا الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢).

الأخلاق وسلامة المنطق:

بالمقابلة بين هذه الآية وسابقتها تعرف أن الأخلاق التي كانت تتحرك مع الرسالة في كل جنبات ومراحل الدعوة قد كانت عنصراً وعاملًا مؤثراً في انتشار الدعوة الحمدية، إلى درجة أن أخلاق محمد ﷺ كفت في أسلمة دول وقبائل عديدة.. وما زالت تكفي لذلك؟!

فلا يكفي أن يمتلك الإنسان سلامه المنطق؟ أو حقانية الموقف؟! بل لابد من أن يمتلك بجانب ذين أخلاقاً عاليةً تمكنه من النفاذ عبر بوابة القلب إلى مقر العقل. فحسن الخلق يعد الجاذبية الأكثر فعالية.

والتعبير القرآني يشهد بوضوح لهذا المعنى، حينما قال المولى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً... لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

الأخلاق جاذب وسوؤها مبعد:

علاقة التجاذب (بين حسن الأخلاق ← وإنجداب الناس)، (وبين سوء الخلق ← وابتعد الناس) هي التي ينبه إليها القرآن الكريم وأهل بيت العصمة عليهما السلام، حيث ورد عن الأمير عليهما السلام: «سوء الخلق يوحش النفس ويرفع الأنس»^(٣).

فعندها تتجمّع كل الخصال والأخلاق البشعة كالغصب والكذب والسباب والتكبر وغيرها، فإن النفس تصبح بشعة بالتبع وبشكل "أوتوماتيكي"، ولا تعتقد أن النفس لا تقتلئ استبشاراً وقباحةً تخفي على الناس، بل ستتجد نفسك دوماً في حالة وحشة وظلمة، وسترتفع حالة الأنس بوجودك عندما تلتقي مع الآخرين، لتجد الآخر يفر منك كلما اقتربت منه، وتتجد القريب الذي لا يمتلك الفرار يستوحش بوجودك ويسأل الله أن يخلصه من الثقل الجاثم على قلبه. ويقول الإمام علي عليهما السلام بهذا الخصوص: «سوء الخلق يوحش القريب وينفر البعيد»^(٤).

فسوء الخلق أثراها على النفس أولاً: من خلال الكآبة والحزن والشعور بالوحدة، وأثراها مع الآخرين: من خلال نفور الناس منك وافتقاد وجودك لأي أنس ومحبة، بل يكون وجوداً موحشاً مُسائماً.

بخلاف ما لو اجتمعت مثل صفة الحلم والصدق وسلامة اللسان والتواضع وأمثالها، فإن هذه الصفات لها سحر وتأثيرات عجيبة إذا ما مورست في إطارها الصحيح والسليم.

فعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثلاث يوجبن المحبة: حسن الخلق، وحسن الرفق، والتواضع»^(٥)، وعنـه أـيـضاً: «من حـسن خـلقـه كـثـر مـحـبـوه وـأـنـسـت النـفـوسـ بـه»^(٦).

فالباب الذي يمكن أن تدخل منه إلى كيان الإنسان هو باب القلب، وباب القلب موصد لا يفتحه إلا حسن الخلق. فالأخلاق التي دعا إليها الإسلام قتل مفاتيح القلوب والمحبة.

الدعوة للأخلاق:

الدعوة للأخلاق في الإسلام احتلت مساحة كبيرة جداً، ونجد تكاثراً في التعبير بمثل هذا التعبير «عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه»^(٧) «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»^(٨) على ألسنة بيت العصمة، وهو يعبر عن عظم منزلة الأخلاق، كما وأن دعوات العلماء والشريائع المشفقة وكل المهتمين بتنمية المجتمع تتناطح مع هذا الحديث الإسلامي الصريح، ليبرز هم كبير يقض مضاجع العلاقات الاجتماعية التي انحرفت عن مسارها الصحيح في كل أبعادها ودوائرها، سواء الصغيرة والتي تبدأ بالأسرة أو الكبيرة التي تنتهي بالمجتمع، ويعود السبب في الإنحراف عن الجادة الصحيحة إلى تكاثر الصور المستبشعـة والموحشـة التي قـتـلـى بكل ما هو قـبـحـ وـسـقـيمـ، وـقـلةـ الصـورـ الجـمـيلـةـ وـالـحـسـنةـ.

فنحن إذن.. بحاجة إلى تصحيح المسار لنتسامي ويتسامي مجتمعنا، من خلال

إرجاع العز لأخلاقنا، ومحاولة تكثير الصور والنفوس الحسنة التي تفوح زكاة وعطرًا فواحًا صدقًا وتواضعًا وحلماً... ، فيها يسعد الإنسان دنياً وأخرى. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «رجلان آمنا وهاجرا ودخلتا الجنة جميعاً، فرفع أحدهما على صاحبه كما ترى الشريا، فقال: يا إذا فضله على يا رب؟ قال: إنه كان أحسن منك خلقا»^(٩).

عِنْدَمَا يَتَحَدُّثُ الْجَسَدُ أَخْلَاقًا:

الأخلاق هي الملكات النفسانية والروحية التي تفرز واقعاً جميلاً، فالنفس هي مكمن الأخلاق ومحزنها، وتُعد المحرك للشخصية باعتبار مرهونية وجود الإنسان بها وارتباط الجسد بها، ولكن من الواضح جداً أنّ النفس لها إفرازات يفضحها الجسد، وهذا أمر طبيعي بعد وضوح العلاقة بين النفس والجسد، مما تتمتع به النفس من ملكات وصفات يمكن أن يحيكها الجسد، بل قد يحيكها بصورة لا شعورية من دون أن يدرك الإنسان طبيعة هذه الحكاية أو أن يتتحكم بها، وهذا النوع من الحكاية يعبر عنه بـ "لغة الجسد".

والإسلام يعد من أوائل من اعنى بهذه اللغة، وحاول أن يهذبها ويضع لها إطاراً محدداً تسير على وفقه، فكما أنّ النفس تفعل في الجسد وتؤثر أثراً، فالجسد أيضاً إذا فرض على النفس بعض الصور والوضعيات فإنّ النفس تتأثر به تبعاً.

من هنا يمكن أن نقول أنّ الشرع كما اعنى بالصفات التي تكون النفس مكمناً لها كصفة الحب والأخوة الإيمانية وحرمة الحسد ونحوها، اعنى بالصفات الجسدية ووضع لها إطاراً يهذبها وينميها. وهذا ما سنصلح عليه بأخلاق الجسد.

فكيف يمكن للجسد أن يتحدد الأخلاق؟!

بلى يمكن للجسد أن يتحدد الأخلاق، بل يمكن أن يكون بليغاً في منطقه، قوياً في تأثيره وسحره، وذلك عندما يستعمل ما يتلكه من أدوات سحرية وملكات قوية.

فدعنا نذكر مثلاً لتلك الأدوات المحسدة السحرية..

الشاشة ومفعولها العجيب:

الوجه صفة الإنسان التي يراه الآخرون من خالها، فهو الذي يعطي تعبيراً عن حال الإنسان نفسه، ألا ترى أنه يمكن معرفة مرض الإنسان من عافيته بمجرد النظر إلى وجهه، فكذلك يمكن لبعض التعبيرات النفسانية أن تظهر ويكون الوجه حاكياً لها، فمن هنا جاءت أحاديث عديدة تركز على ضرورة الاعتناء بالوجه، باعتبار أنه المعبر والناطق الرسمي عنك، سواء أكان ذلك باختيار وشعور منك.. أم كان من دون شعور و اختيار، ونذكر لك جملة من هذه الأحاديث الواردة^(١٠) عن

بيت العصمة عليه السلام :

- «الق أخاك بوجه منبسط».
- «البشر منظر مونق وخلق مشرق».
- «بشرك يدل على كرم نفسك».
- «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا ترأوا».

فإياك أن تهمل قسمات وجهك فتتركها للنفس تفعل فيها ما تشاء، فتتأثر بها سلباً أو إيجاباً، لأن هذا من شأنه أن يضعف مقدار مودتك ومحبة الآخرين إليك، ألا

تعلم أن إطلاة الوجه وهو في حالة بشر وطلاقه وسعادة - بحيث تُمكّن للنفس السعيدة الفرحة الجميلة التي في داخلك من أن تتصرف في قسماتك فرحاً وسروراً وجمالاً - تختلف كثيراً عما لو كانت الإطلاة في متناول النفس التعيسة الحزينة المقودة؟!

فمن الطبيعي أن من يلقاك مستبشرأً بلقياك، يختلف عنمن يلقاك وهو لا يرغب في لقياك؟!

فإن «الشاشة حبالة المودة» و«الشاشة فخ المودة»، فيكتفي أن تعيش الأخلاق والجمال في وجهك لتفرض على الآخر أن يُحبك..؟!

الشاشة سبب في موت العداوة:

لا يمكن أن يحمل الإنسان لمن يلقاه بطلاقه الوجه وإشرافته إلا المودة في قلبه، لتجد العداوة ولو كانت جبلاً شامخاً تنهاش شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى، كل ذلك بفعل الشاشة، يقول النبي عليه السلام: «حسن البشر يذهب بالسخيمة» ويقول الإمام علي عليه السلام: «القهم بالبشر، قت أخغانهم».

وينبغي بنا أن نشير إلى أن الطلاقة والبشر لا يمكن أن يخداع فيهم الإنسان، وذلك أن الطلاقة الطبيعية التي تخرج من أعماق النفس والقلب تختلف عن تلك المصطنعة التي لا تتجاوز ابسطاطاً للجلد وقبضاً له، وذلك أن الطبيعة المملوءة بالروح تختلف عن تلك المتكلفة، فكأنما هناك موجات كهربائية خاصة وجميلة تنبع من الطبيعة بخلاف المتكلفة إذ تنبع من ذبذبات مزعجة قبيحة وإن كان شكلها جميلاً وموancaً.

الابتسامة عنصر مهم ومكملاً:

إذا أراد الإنسان أن يضيف إلى طلاقة وجهه سحراً آخرًا؟! فكل ما عليه أن يضيف "ابتسامة" لوجهه البشوش ليكتمل جمال الصورة فـ«من تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة»، فالبسمة قد تفتح أبواباً كانت محكمة باللغاتيج والأفال.

قلوب الناس لا تريد أكثر من البشاشة والإبتسامة... وما أسهلهما وما أصعبهما في هذا الزمان، فهو سهل ولكن ممتنع فهو: (السهل الممتنع).

فمن الصعب جداً إعطاء الغير ابتسامة وطلقة في الوجه في حين النفس تكتنف المأسى والضيق، فمشاكل هذا الزمان سواء المعيشية أو السياسية أو غيرهما، أصبحت ثقيلة جداً يعجز الإنسان عن حملها، ولذلك تبرز مشكلة كيفية إخفاء كل هذا الأسى خلف وجهٍ مشرق، وببشره يعبر؟!

وأنا اعتقاد أن الروايات السابقة لم تغفل هذه المشكلة، ولكن هي بنفسها تدعو إلى أن نفهم مسألة مهمة وهي أنّ من نتواجه معه لا دخل له في أسنانا وحزننا؟! لتبرز لنا مسألة مهمة يجب أن ندركها وهي أن لا نشبك بين الخطوط بعضها البعض، بل لا بد أن نحافظ على مسافة بعد المطلوبة بين كل خط وخط..، كي لا نتسبب بأي تماس كهربائي يودي بحياتنا إلى الهاك..؟!

إذن..

حافظ على ابتسامتك وبشاشتك مع كل الناس، مع الصديق والحبّيب والزوجة والإبن والبنت... لأن الإبتسامة والشاشة تحافظ على هدوء العلاقة، وأنس القلب والروح .. .

المصافحة.. والمعانقة..

ننتقل الآن إلى خلق آخر يarserه الجسد، وهو خلق المصافحة؟!

إذ المصافحة تشكل تأثيرات اليد في انفعالاتها مع اليد الأخرى، وبهذا الصدد وردت مجموعة من الروايات نذكر منها ما يلي:

- «من أخلاق النبيين والصديقين...، المصافحة إذا تلقوها».

- «إذا لقيتم إخوانكم فتصافحوا».

- «إن المؤمن إذا صافح المؤمن تفرقوا من غير ذنب».

- «مصالحة المؤمن أفضل من مصالحة الملائكة».

- «أنتم في تصافحكم ، في مثل أجور المجاهدين».

هذا هو حجم الدعوة للمصافحة بالذات، وهكذا هي عنابة أهل البيت عليهم السلام بهذه المسألة التي قد تبدو لدى البعض بسيطة، لحد لا يعني بها، ولكن هي في الواقع عظيمة عند الله حتى أنها سبب لغفران الذنوب ونيل ثواب المجاهدين، فهو خلق ذات قيمة رفيعة عند الله عزّ وجلّ. وقام المصافحة المعانقة «إن من قام التحية للقيم المصافحة وقام التسليم على المسافر المعانقة».

ويعود ذلك للسحر المختزن في يد الإنسان وجسده، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تصافحوا، فإن التصافح يذهب السخيمة». وعنده أيضاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تصافحوا، فإنه يذهب بالغل».

فعناية الإسلام بالمصافحة والمعانقة من هنا تبدأ، وإلى هذا ترمي وتهدف: (القضاء على العداوة والمشاحنات) أينما كانت، وبأدوات بسيطة قد يعجز عن تقديم

ما تقدمه.. جلسات.. واجتماعات.. وحوارات توفيقية وإصلاحية لا تجدي في حل المشكلة والقضاء عليها، ولكن مصافحة هنا وهناك، ومرة أخرى، وعناق يلف البدن ويضمها، كفيل بذلك!!

فعن الباقر علیه السلام: «إذا صافح الرجل صاحبه فالذي يلزم التصافح أعظم أجرًا من الذي يدع، ألا وإن الذنوب ليتحات فيما بينهم حتى لا يبقى ذنب». وعنہ أيضاً: «إن المؤمنين إذا التقى فتصافحاً أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدّهما حباً لصاحب فإذا أقبل الله عز وجل بوجهه عليهم تحاثت عنهما الذنوب كما يتحاث الورق من الشجر».

فإذا أردت أن تكون لديك وجسدك فاعلية كبيرة وحديث بالأخلق البدعية، فعليك أن تملأهما حبًّا ومودة يشعر بها الآخر وتدخل كيانه لتهز نفسه من الداخل، والزم بيديك كي تخجله بحبك له ومودتك إياه، فإذا فعلت ذلك كنت أكثر ثواباً، وعاد النفع عليك أيضاً بأن ربيت نفسك من الداخل، وعلمتها كيف تقضي على الحقد والضغينة.

فهناك حركتان لهذا الخلق، حركة نحو الخارج وتجاه الآخر، وحركة نحو الداخل والنفس، الحركة التي تكون نحو الآخر هي حركة المحبة والمودة التي تتکفل بترقيع العلاقة وإزالة العداوة من قلب الآخر، والحركة التي تكون نحو الداخل هي التغلب على الحقد والضغينة والتکبر الذي قد يكون معششاً في النفس.

الجسد في المجالسة:

قد يبدو لك للوهلة الأولى أن الكلام وال الحديث هو اللاعب الأساسي في أي

مجالسة، وهو المؤثر في نفوس المجالسين، وهذا الاعتقاد لوحده غير صحيح بل هناك لاعب آخر لابد من أن تتنبه له وأن تدعه يلعب دوره، هذا اللاعب هو جسدك؟!

نعم جسدك في طريقة جلسته ووضعه، يمكن أن يتحدث ويتكلم بالنيابة عنك، حيث ينقل أنّ «من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على رجل واحد من جلسائك، ولكن اجعل لكل منهم نصيباً».

وزع نظراتك وأدر بصفحة وجهك، وانظر لهذا وابتسم في وجه ذاك وأعر الآخر اهتماماً وعناء، تكسب ود الجميع ومحبتهم وتبتعد بذلك عن الخلق السيء.

جمال الجسد وزينته:

ما أكثر ما يهمل الإنسان زينته ومظهره عند لقىأ أصحابه وأحبابه، اتكللا على أن هؤلاء (الحال واحد ويأهم)، وهذه مقوله لا يصح تطبيقها على المظهر إلى حد يظهر فيه الجسد في صورة قبيحة ورائحة نتنة، يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليتزين أحدكم لأنبيه المسلم إذا أتاها كما يتزين للغريب الذي يجب أن يراه في أحسن الهيئة»، وورد أيضاً عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا ينبغي للرجل أن يدع الطيب في كل يوم».

ألا تجد نفسك لا تحب النظر إلى الصورة البشعة، وتتفزز عند شم الروائح النتنة، فالأمر كذلك عند الآخرين فإنهم سيستبعونك عندما يكون مظهرك مظهراً قبيحاً لا جمال ولا ترتيب فيه، وسيستقدر ونونك عندما تكون رائحتك تتنة عفنة. فاحرص أن تكون بالنظر المناسب الذي يعبر ويتحدث عن شخصيتك كما يجب، فإن الشخص الجميل الذي تفوح منه رائحة العطر مجرد أن تراه ويقترب منك يعطيك انطباعاً بأنه نظيف يجب الجمال ومنظم ولطيف،عكس ذلك الشخص القبيح

في منظره فإنك إذ رأيته رأسا يختر في بالك أنه إنسان وسخ ثقيل وغير محظوظ، ولذلك تجد أن الجميل في منظره ولباسه يكثر أصدقاؤه ومحبوه، بينما القبيح في منظره ولباسه يقل محظوظ.

ولا يفهم البعض أن المسألة تعني أننا لابد أن نلبس الفاخر الغالي، لا، يمكن أن يكون اللباس في قيمته رخيصة ولكن في منظره جميلاً، فالمهم هو المنظر الجميل لأنه يتحدث عنك ويعبر عن شخصيتك.

المشي دلالات..

﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١١).

هذه الآية المباركة تحمل عظة ونصيحة جاءت على لسان لقمان الحكيم، ويكفيها قيمة أنها جاءت على لسان هذا الرجل الحكيم وقد اعتنى القرآن الكريم بنقل مواعظ هذا الرجل الحكيم، إذ القرآن يقول قبل هذه الآية : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقَمَانَ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعْظِمُهُ..﴾.

العظة والنصيحة التي نريد أن نتحدث عنها هنا تتمثل في قوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المرح يعني المشي بحالة من التكبر والتغترف، وقد عبر القرآن الكريم في موضع آخر عن هذا الموضوع أيضاً فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(١٢).

نعم تجد أناسا عندما يشون لأن رأسهم قد بلغ السماء علواً، وأرجلهم قد غاصت في الأرض ثباتاً وقوة، وهذا ادعاء كاذب ومفتوح، لأن السماء عالية لا

ثُدِرَكُ، وَالْأَرْضُ ثَابِتَةٌ لَمْ تُخْرِقْ، وَلَكُنْ يُوحِي لِلنَّاسِ بِذَلِكَ وَيَخْدُعُ نَفْسَهُ وَيَغْالِطُهَا،
هَذَا مَا يَفْعُلُ التَّكْبِيرُ بِصَاحْبِهِ عِنْدَمَا يَفْسَحُ لَهُ الْمَحَالُ كَيْ يَعْبُرُ، وَلِيَتِهِ لَمْ يَعْبُرْ وَلَا
تَحْدُثُ بِشَيْءٍ، لَأَنَّ حَدِيثَ حَدِيثٍ مَفْضُوحَ كَذْبِهِ، وَمَعْرُوفَةُ طَرِيقَتِهِ، فَتَجِدُ النَّاسُ
بِدَلَّاً مِنْ أَنْ يَدْخُلُهُمُ الْخُوفُ عِنْدَنَازَارٍ إِلَى هَذَا الإِنْسَانِ الْمُتَكَبِّرِ، يَنْظَرُونَ إِلَيْهِ بَعْيَنَ
الشَّفَقَةِ تَارَةً، وَالسَّخْرِيَّةُ أُخْرَى بِهَذَا الشَّخْصِ الْمُخْدُوعِ بِنَفْسِهِ، وَبِدَلَّاً مِنْ أَنْ يَجْذُبَ
النَّاسَ حَوْلَهُ يَنْفَرُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ.

بِخَلَافِ ذَاكَ الشَّخْصِ الَّذِي يَمْلأُ مُشَيْهَ تَوَاضِعًا وَسَماحةً، فَإِنَّهُ يَتَلَئُ هَبَبَةً وَمَحَبَّةً فِي
قُلُوبِ النَّاسِ، فَإِنَّكَ لَوْ نَظَرْتَ لِلنَّاسِ الْمُحْبُوبِينَ حَقِيقَةَ سَتْجَدَهُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ السَّمْحِينَ.

المواهش:

- (١) سورة القلم: ٤.
- (٢) سورة آل عمران: ١٥٩.
- (٣) ميزان الحكمة، [٤-١]، ط١، دار الحديث، ج١، ص٨٠١.
- (٤) [م.ن.]
- (٥) المصدر السابق، ٤٦٩.
- (٦) المصدر السابق، ص٨٠٥.
- (٧) المصدر السابق ص٧٩٨.
- (٨) المصدر السابق ص٨٠٠.
- (٩) روضة الوعاظين: ٣٧٨.
- (١٠) راجع: ميزان الحكمة، ج١، فإن الأحاديث الواردۃ في هذا المقال منقولۃ منه.
- (١١) سورة لقمان: ١٨.
- (١٢) سورة الاسراء: ٣٧.

جواز التقصير أو الحلق

ليلة الحيد للنساء والبنحفاء

علي فاضل الصددي

من أفعال الحج متّعاً، رمي جمرة العقبة وذبح الهدى أو نحره والحلق أو التقصير، كل ذلك بعد الإحرام والوقوفين بعرفات والمشعر.

والمشهور تعين إيقاع التقصير أو الحلق في نهار العيد لا ليلته حتى من له أن يرمي جمرة العقبة ليلاً، وأفاد السيد الحوئي في «المعتمد على الناسك» بأن الظاهر كون عدم جواز تقديم الحلق أو التقصير على نهار العيد مما قطع به الأصحاب -على حد تعبيره^(١)، وقد استدلّ لعدم جواز التقديم بأمور أربعة:-

الأول: السيرة القطعية.

الثاني: تأخر الحلق أو التقصير عن الذبح أو النحر، وبما أن لزوم الذبح أو النحر نهار العيد أمر معلوم، فلا يسوغ تقديمها على النهار.

الثالث: مفهوم الشرط في صحيحة سعيد الأعرج الآتية، فالصحيح بفهمها تدل على أن من كان عليه ذبح لا يقصّر حتى يذبح.

الرابع: الروايات الآمرة بالبداية بالرمي، ومحله النهار، ولازم ذلك وقوع الحلق أو التقصير في النهار بعد الرمي؛ لترتبهما على الرمي^(٢).

وفيما عرضناه مجال للمناقشة، والواضح جواز التقصير في حق من جاز له

الإفاضة من المشعر إلى مني ليلاً، بعد رميء جمرة العقبة وبعد أن يوكل في ذبح الهدى أو نحره، بل له الرجوع إلى مكة لأداء مناسكها الخمسة، ويدل على كل ذلك مجموع الصاحح التالية - بعد ضم بعضها إلى البعض الآخر وعطف بعضها على البعض الآخر كما سيأتي - .

أولاًها: صحيحة أبي بصير قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لا بأس بأن يقدم (تقدّم) النساء فيقفن عند المشعر ساعة، ثم ينطلق بهن إلى مني فيرميهن جمرة العقبة، ثم يصبرن ساعة، ثم يقصّرن وينطلقن إلى مكة فيطفن، إلا أن يكن يردن أن يذبح عنهن فإنهن يوكلن من يذبح عنهن»^(٣).

ثانيتها: صحيحته الأخرى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «رخص رسول الله عليه السلام للنساء والضعفاء أن يفيضوا من جمع بليل، وأن يرموا الجمرة بليل، فإذا أرادوا أن يزوروا البيت وكلوا من يذبح عنهن»^(٤).

ثالثتها: صحيحة سعيد الأعرج قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك معنا نساء فأفيض بهن بليل، فقال: نعم، تريد أن تصنع كما صنع رسول الله عليه السلام? قلت: نعم، قال: أفض بهن بليل، ولا تفض بهن حتى تقف بهن بجمع، ثم أفض بهن حتى تأتي (بهن) الجمرة العظمى فيرميهن الجمرة، فإن لم يكن عليهم ذبح فليأخذن من شعورهن ويقصّرن من أظفارهن، ويحضنن إلى مكة في وجوههن، ويطفن بالبيت ويسعن بين الصفا والمروة ثم يرجعن إلى البيت ويطفن أسبوعاً، ثم يرجعن إلى مني وقد فرغن من حجّهن، وقال: إن رسول

الله عليه السلام أرسل معهن أسامه»^(٥).

وما تقدّم عن المرحوم السيد الخوئي فتّش من أن هذه الصحيفة تدل بمفهومها على أن من كان عليه ذبح فلا يقصّر حتى يذبح - فغايتها الإطلاق، فكأنه قال: من كان عليه ذبح فلا يقصّر حتى يذبح، سواءً وكل في الذبح عنه أم لم يوكل فيه، فنقيد إطلاق المفهوم هذا بذيل صحيحة أبي بصير الأولى، فتعود النتيجة ما يلي: من كان عليه ذبح فلا يقصّر حتى يذبح إلا إذا وكل من يذبح عنه، فإن له أن يقصّر ليلاً.

لا يقال: بأن ذيل صحيحة أبي بصير الدال على كفاية التوكيل لجواز فعل التقصير - هو الآخر - مطلقاً، فكما نتحمل أن التوكيل نافذ لجواز فعل التقصير ليلاً نتحمل أيضاً أن نفوذه لجواز التقصير في النهار، وإن وقع التوكيل ليلاً.

نعم لا يقال ذلك؛ فإنّه يتوجه عليه بأن القدر المتيقن من الإطلاق المزبور هو الاحتمال الأول، على أنا نتحمل الفرق بين الذبح ليلاً والتوكيل فيه كذلك من جهة ترثّب التقصير عليه، فلا شاهد عرفياً على اتحادهما كذلك، سيما بعد نهوض الدليل على جواز الثاني.

ولئن كان مورد صحيحة الأعرج هو من لم يكن عليه ذبح من النساء، وهن من وظيفتهن حج الإفراد - فإن صحيحة أبي بصير الأولى ظاهرة في الاكتفاء من وظيفته الذبح أن يوكل في الذبح لتسویغ ذهابه إلى مكة للطواف، فان الاستثناء في قوله عليه السلام "ثم يقصّر وينطلق إلى مكة فيطفن، إلا أن يكن يردن أن يذبح عنهن" - راجع إلى قام ما بعد كلمة (ثم) لا إلى خصوص جملة "وينطلق إلى مكة فيطفن"؛ وذلك لأن الفقرة ذات سياق واحد ابتداءً من كلمة (ثم) إلى ما بعد الاستثناء.

وبعبارة أخرى مختصرة: إن هذه الصحيحة كما قد تكفلت بالحديث عن صورة من لم يكن الذبح في ضمن وظيفتها وهي المفرد، فذكرت أن لها بعد وقوفها بالمشعر ليلاً أن تقصير ثم تمضي إلى مكة للإتيان بالطواف - كذلك تحدثت عن صورة من فرضها الذبح وهي المتمتعة، وذكرت أن لها بعد وقوفها بالمشعر ليلاً أن توكل من يذبح عنها، ثم تقصير، ثم تمضي إلى مكة لتطوف.

وإذا دغدغ في دلالة هذه الصحيحة على حكم الصورة الثانية فإنه - بعطف الصديقة الثانية لأبي بصير على الأولى - يتضح حكمها بخلافه، وإذا كانت أولى الصحيحتين تتحدث عن النساء خاصة فإن ثانيةهما تتحدث عنهن وعن الضعفاء معاً، وتشرّك بينهما في حكم الصورة الثانية، وإذا أهل ذكر رمي جمرة العقبة في الأولى من صحيفتي أبي بصير فإن الثانية منها قد نبهت عليه، على أن رمي جمرة العقبة ليلاً للنساء والضعفاء هو مدلول جملة وافرة من الروايات^(٦) وبموجبها الفتيا بلا خلاف.

ومما قدمناه تظهر الخدشة في إطلاق ما تقدم عن السيد الخوئي (عليه الرحمه) من أنه لا يسوي التقصير ليلة العيد؛ لتأخره عن الذبح، ولما كان محل الذبح هو نهار العيد فلا محالة يكون التقصير نهاره أيضاً.

بيان الخدشة: أن ما ذكره لا ينسحب على النساء والضعفاء بعد ظهور صحيفتي أبي بصير في كفاية التوكيل في الذبح لجواز فعل التقصير.

كما تظهر الخدشة وبشكل واضح في رابع الأمور التي ساقها في المعتمد لعدم جواز التقصير ليلة العيد، وذلك لأن النساء والضعفاء مرخص لهم أن يرموا ليلة العيد، مع تقديم الرمي على التقصير كما نصّت عليه صحيفتنا سعيد الأعرج وأبي

بصير، ومعه فلا تنافيان الروايات الآمرة بالبدأ بالرمي، بل هما في صراط الروايات المشار إليها.

وأما الأمر الأول الذي تمسّك به السيد قتيل لعدم جواز التقصير ليلة العيد وهو السيرة القطعية على فعل التقصير أو الملحق نهار يوم العيد – فيتوجه عليه أنها مجرد سيرة فعل مجرد، وأن أقصى ما تفيده جوازه فيه لا تعينه. وكبروياً ثم تطبيقاً نقول: إن السيرة القائمة على صحة فعل أو توظيفه شرعاً لا دلالة التزامية لها على عدم جواز غيره حتى لو كان الفعل الذي قامت عليه السيرة ذا كلفة، فإن غاية الالتزام به كونه راجحاً لا لازماً، ثم أن ما نحن فيه من أمر تأخير التقصير إلى النهار وإن كان مصحوباً بالمؤونة الزائدة بخلاف تعجيله ليلاً، إلا أن في محاولة النساء والضعفاء للتقصير ليلاً مؤونة أكثر تنشأ من الإفاضة بهم من المشعر إلى مبني ليلاً ليروا جمرة العقبة ثم الرجوع عنهم أو بهم للوقوف بالمشعر، فهذه السيرة نظير سيرة المتشرعة على الترتيب بين الجانبين الأيمن والأيسر في غسل الجنابة؛ فانه لا يستكشف منها اللزوم، كما أفاد ذلك الفقيه الهمداني معللاً بأن مجرد الرجحان في مثل هذه الأشياء التي لا تحتاج إلى كلفة زائدة، كافٍ في استقرار السيرة عليها، نظير غسل اليدين أمام الوضوء^(٧).

وما تقدم نتحمل احتمالاً قريباً أن يكون منشأ السيرة على تأخير التقصير إلى النهار هو إيثار الرجال إبقاء نسائهم ومن معهم من الضعفاء تجنبها عن مزيد مؤونة الإفاضة بهم إلى من ثم رجوع الرجال للوقوف بالمشعر، أو محاذرةً من تفرقهم على تقدير إفاضة بعضهم بهم. ومع هذا الاحتمال فلا نجزم بأن السيرة المدعى قطعيتها ناشئةٌ من التعبد الشرعي بتأخير التقصير إلى النهار في حقهم، فلا تعود السيرة –

والحال هذه - حجة.

وإمعاناً في الاستشكال في أمر السيرة المدعاة أقول - نقلأً عن أحد الأساتيد - إنه لو ثبت عن المترسّعة مواظبتهن على الترّبص بالنساء والضعفاء في أمر التقصير إلى النهار وكأنه أمرٌ لا حياد عنه، فإنها آنذ وإن كانت لا تخلي عن دلالة على عدم جواز تقديم التقصير ليلة العيد؛ إذ أن تأخيره إلى ما بعد الذبح نهاراً مشتمل على كلفة بخلاف تعجيله ليلاً - إلا أن إثبات هذا النوع من السيرة في غاية الصعوبة. انتهى ما أفاده (سلامه الله).

فالسيرة المدعاة كما هي مشكلةٌ كبيرةٌ، هي كذلك صغرواً.

تنبيه: ثم إن صححتي أبي بصير المقدمتين وان اقتصرتا على ترخيص خصوص طواف الزيارة أو الطواف إلا أنهما لا تنافيان ما تضمنته صحيحة سعيد الأعرج من الترخيص في إتيان تمام أعمال مكة الخمسة ليلة العيد بعد الرمي والتوكيل في الذبح وفعل التقصير أو الحلق؛ إذ أنهما إثباتيان ولا يتصور التنافي بينهما ما داما كذلك.

تنبيه آخر: يتعين على النساء المضي إلى مكة لأداء أعمالها فيما إذا خفن الحيض، ولم يسبق منهن تقديم الطواف على الوقوفين، وذلك لصححة أبي بصير الثالثة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رخص رسول الله عليه وآله للنساء والصبيان أن يفيفوا بليل، وأن يرموا الجمار بليل، وأن يصلوا الغداة في منازلهم، فان خفن الحيض مضين إلى مكة ووكلن من يضحى عنهن^(٨).

ودعوى أخصية هذه الصححة من صححتي أبي بصير السابقتين، فنقيدان بها:

وذلك لأن ظاهر تفريع "إِنْ خَفَنَ الْحَيْضُ.." على ما قبله - أنه داخل في الترخيص، وعليه فلا ترخيص في المضي إلى مكة مع التوكيل في الذبح إلا خائفة الحيض^(٩).

(هذه الدعوى) غير متوجهة؛ فإن مفهوم الشرطية وإن كان مسلماً، إلا أن جواب الشرطية منطوقاً هو لزوم المضي إلى مكة مع التوكيل في الذبح، فغير خائفة الحيض لا يلزمها ذلك، وهذا لا ينافي جوازهما لمطلق النساء والضعفاء المستفاد من الصحيحتين. نعم لو كان جواب الشرطية هو جواز المضي إلى مكة مع التوكيل في الذبح لكن للشرطية مفهوم في عدم جوازهما لغير خائفة الحيض فيقييد الصحيحتين.

والمحصل أن من رخص له في الإفاضة من المشعر إلى من ليلاً فكما قد رخص له في رمي جمرة العقبة ليلاً، رخص له في التقصير بعد التوكيل في الذبح، كما رخص له في إتيان أعمال مكة الخمسة ليلاً^(١٠)، بل يتعمّن على خائفة الحيض أن توكل في الذبح لتنصر وتدهب إلى مكة لزيارة البيت.

والحمد لله أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً، وصلى الله على محمد وآلـه وسلم.

المواهش:

- (١) المعتمد على المناسك ٣١٦: ٢ .
- (٢) المعتمد على المناسك ٣١٧: ٢ .
- (٣) الوسائل ١٤: ٣٠ ب ١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٧ .
- (٤) الوسائل ١٤: ٢٨ ب ١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٦ .
- (٥) الوسائل ١٤: ٢٨، ٣٠، ٢٩ ب ١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٢ .
- (٦) الوسائل ب ١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر .

(٧) مصباح الفقيه: ٣٦٩-٣٧٠.

(٨) الوسائل: ١٤: ٢٩، ٣٠، ٢٨ بـ ١٧ من أبواب الوقف بالشعر ح ٣، ٧، ٦، ٢.

(٩) لاحظ سند العروة الوثقى (الحج) ٤: ١٣٧.

(١٠) وقد اطلعت لاحقاً على مصير علَّمِين من أعلام مراجعنا إيمانهم لله إلى هذا الرأي، وهما سماحة السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم وسماحة الشيخ محمد إسحاق الفياض (سلَّمُوهُمَا اللَّهُ).

لاحظ مناسك الحج والعمرة للحكيم: ١٧٧ م ٤٢٥ ط الثامنة (١٤٢٢ هـ)، وتعليق مبسوطة للفياض ١٠: ٤٨٩، ولكنه في مناسك الحج: ٢١٤ م ٢١١ (الأمر الخامس) اقتصر على ذكر ترخيص الحلق أو التقصير ولم يتعرّض إلى ترخيص العود إلى مكة ليلاً لأداء مناسكهم.

البيان الوهي في حال إسماعيل الجوفي

محمد علي العربي

إسماعيل الجعفي:

وَرَدَ بِهَا الْفَظُّ فِي الْكَافِي فِي وَاحِدٍ وَثَلَاثَيْنِ مُورَداً، فِيهَا عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَيْنِ حَدِيثاً، وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعَةً أَحَادِيثٍ، عَلَى مَا أَحْصَيْنَا.

وَفِي التَّهذِيبِ فِي ثَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ حَدِيثاً، عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعَةً وَعِشْرَونَ حَدِيثاً، وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَدِيثَيْنِ، وَعَنِ أَحَدِهِمَا حَدِيثَيْنِ، كُلُّهُمَا بِطُرُقِ الشَّيْخِ.

وَفِي الْإِسْتِبْصَارِ فِي تَسْعَةِ عَشَرَ مُورَداً، عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةً عَشَرَ حَدِيثاً، وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَدِيثَيْنِ، بِطُرُقِ الشَّيْخِ.

وَفِي الْفَقِيهِ خَمْسَةً، أَرْبَعَةً عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِطُرُقِ الصَّدُوقِ.

فَمُجْمُوعُ مَا وَقَعَ فِي الأَسَانِيدِ مِنْهُ فِي الْكِتَابِ الْأَرْبَعَةِ إِنْنَانَ وَثَمَانَيْنِ مُورَداً، بِدُونِ حَذْفِ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا فِي كُلِّ كِتَابٍ، وَحَذْفِ الْمُنْقَولِ عَنِ الشَّيْخِ الْكَلِينِيِّ فِي التَّهذِيبَيْنِ.

وَقَدْ وَقَعَ الْكَلَامُ فِي تَعْبِينِهِ وَتَبَيِّنِهِ، فَهُلْ هُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ أَمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَعْفِيِّ، أَمْ إِسْمَاعِيلُ الْخَشْعَمِيُّ أَمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْخَشْعَمِيِّ؟

أَمَا الْأَوْلَانِ فَلَا رِيبٌ فِي وَثَاقَتَهُمَا كَمَا سُوفَ يَتَضَعُّ، إِنْهَا أَمْ تَعْدَدُ، وَأَمَا الْآخِرُ فَلَا يَبْعُدُ كُونَهُ خَطَأً مِنِ النَّسَاخَ كَمَا سُوفَ يَتَبَيَّنُ، وَإِلَّا فَهُوَ مَجْهُولٌ.

وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِيهِمْ:

أما إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي:

ففي مشيخة الفقيه: «وما كان فيه الجعفي فقد رویته عن محمد بن علي ماجيلویه خلیفته عن عمه محمد بن أبي القاسم، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن محمد بن سنان، وصفوان بن يحيى، عن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي»^(١).

أقول: الطريق إليه ضعيف بمحمد بن سنان على قول، ويأتي أن إسماعيل بن جابر يروي عنه محمد بن محمد بن عيسى عن صفوان، وبذلك يفرق بينهما. لكننا بالتتابع وجدنا أنه رحمه الله في الفقيه يروي عن جمیل بن دراج وعبد الله بن سنان وهشام بن سالم عن إسماعيل بن جابر، دون أن يسند رواية إسماعيل إلى صفوان ولو في مورد واحد.

ولم يورد رحمه الله اسم إسماعيل بن عبد الرحمن في أي من الأسانيد.

وروى عن محمد بن أبي عمير عن أبان، وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن جمیل، ومحمد بن الوليد عن حماد بن عثمان، عن إسماعيل الجعفي.

وبذلك يتبيّن أنه رحمه الله في كل مسنداته لم يرو عن إسماعيل -سواء ابن عبد الرحمن أو ابن جابر أو الجعفي- بطريق فيه صفوان أبداً، بحسب ما تبعناه.

ويبقى الكلام فيما أرسله، والمرجع فيه ما ذكره في المشيخة من أن الجعفي هو إسماعيل بن عبد الرحمن.

وفي رجال النجاشي في ترجمة بسطام بن الحصين بن عبد الرحمن الجعفي: «ابن أخي خيثمة وإسماعيل. كان وجههاً في أصحابنا وأبواه وعمومته وكان أوجهم

إسماعيل. وهم بيت بالكوفة من جعفي يقال لهم بنو أبي سبرة منهم خيثمة بن عبد الرحمن صاحب عبد الله بن مسعود. له كتاب أخبرنا محمد بن جعفر الأديب قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد قال: حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم قال: حدثنا محمد بن عمرو بن النعمان المعني قال: حدثنا بسطام بن الحسين بكتابه^(٢).

أقول: أفاد السيد الأستاذ ح أن عدم تعرض النجاشي لترجمة إسماعيل بن عبد الرحمن مستقلا هو لعدم كونه صاحب كتاب، لا لعدم توثيق له أو ضعف في حديثه.

وفي رجال الشيخ في أصحاب الباقي ع: «إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي تابعي، سمع أبا الطفيلي عامر بن وائلة. روى عنه، وعن أبي عبد الله ع»^(٣).

وفي أصحاب أبي عبد الله ع: «إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي: الكوفي تابعي سمع من أبا الطفيلي (سمع أبا الطفيلي) مات في حياة أبي عبد الله وكان فقيها وروى عن أبي جعفر أيضا»^(٤).

وفي رجال الكشي: «حدثني محمد بن مسعود قال حدثني جبريل بن أحمد عن محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس عن أبي الصباح قال سمعت أبا عبد الله ع يقول يا أبو الصباح هلك المترئson في أدیانهم منهم زراره وبريد ومحمد بن مسلم وإسماعيل الجعفي وذكر آخر لم أحفظ»^(٥).

والخبر ضعيف بجبريل بن أحمد الفاريايي الراوي لجملة طعون في زراره وبريد ومحمد بن مسلم وغيرهم، فضلا عن ضعف مضمونها الدام لزراره ومحمد بن مسلم الذين يقطع بجلالتهما، بل إنها لا تدل ولو صحت ولم تحمل على التقيية - على عدم الوثاقة، وأقصى ما تدل عليه ذم الترؤس في الدين، وهو لا يلازم الخيانة في

الحديث.

وفي خلاصة العلامة عليه السلام: «إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي: الكوفي تابعي من أصحاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام سمع من أبي الطفيلي ومات في حياة أبي عبد الله عليه السلام وكان فقيها وروى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً. ونقل ابن عقدة أن الصادق عليه السلام ترحم عليه وحكي عن ابن نمير أنه قال: إنه ثقة. وبالجملة فإن حديثه أعتمد عليه»^(٦).

أقول: الترحم المقصود في كلام العلامة عليه السلام هو ما رواه الشيخ المفيد في الاختصاص في إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي: «عن أبي غالب أحمد بن محمد الزراري، عن محمد بن سعيد الكوفي، عن محمد بن فضل بن إبراهيم، عن أبيه، عن النعمان بن عمرو الجعفي، قال: حدثني محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي، قال: دخلت أنا وعمي الحصين بن عبد الرحمن على أبي عبد الله عليه السلام، فأدناه، وقال: "ابن من هذا معك؟" قال: ابن أخي إسماعيل. فقال: "رحم الله إسماعيل، وتجاوز عنه سيئ عمله، كيف خلتفت وهو؟" قال: بخیر ما آتاه الله لنا من مودتکم. فقال: "يا حصین لا تستصغروا مودتنا، فإنا من الباقيات الصالحة". قال: يا بن رسول الله ما استصغرتها، ولكن أَحَمَ اللهُ عَلَيْهَا»^(٧).

وفي طبقات ابن سعد في ترجمة «سُبْرَة»: «أبو سبرة واسمه يزيد بن مالك بن عبد الله بن الذؤيب بن سلمة بن عمرو بن ذهل بن مران بن جعفي بن سعد العشيرة من مذحج وهو جد خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة، قال أخبرنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن خيثمة قال قدم جدي المدينة فولد أبي فسماه عزيزاً فذكر ذلك للنبي صلوات الله عليه فقال بل هو عبد الرحمن قال

أخبرنا هشام أبو الوليد الطيالسي قال حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال سمعت خيثمة يقول لما ولد أبي سماه جدي عزيزا فأتى جدي النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال اسمه عبد الرحمن المسور بن يزيد^(٨).

لكنه في «ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ» قال: «أخبرنا هشام بن محمد قال حدثني الوليد بن عبد الله الجعفي عن أبيه عن أشياخهم قالوا وفد أبو سبرة وهو يزيد بن مالك بن عبد الله بن الذؤيب بن سلمة بن عمرو بن ذهل بن مران بن جعفي على النبي ﷺ ومعه ابناه سبرة وعزيز فقال رسول الله ﷺ لعزيز ما اسمك قال: عزيز قال لا عزيز إلا الله أنت عبد الرحمن فأسلموا وقال له أبو سبرة يا رسول الله إن بظهر كفي سلعة قد منعتني من خطام راحلتي فدعاه رسول الله ﷺ بقدح فجعل يضرب به على السلعة ويمسحها فذهب فدعاه له رسول الله ﷺ ولا بنيه وقال له يا رسول الله أقطعني وادي قومي باليمن وكان يقال له حردان ففعل عبد الرحمن هو أبو خيثمة بن عبد الرحمن»^(٩).

تبين: أن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي، من عائلة الجعفي اليمانية المعروفة، وأن أباه هو عبد الرحمن وجده المكنى بأبي سبرة من رأى النبي ﷺ، وكان لأبيه شرف تغيير اسمه من (عزيز) إلى (عبد الرحمن). أخوه خيثمة وهو مشهور في رواة العامة وصاحب عبد الله بن مسعود. وأنه إسماعيل - وجه في الأصحاب، ووجاهته مع كثرة رواية أجلاء أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما عنه واهتمامهم بروايته والخبر في الترحم عليه كلها كافية في الاطمئنان بوثاقته. وهو فقيه من فقهاء الطائفة على ما يستكشف من روايته ومقارنته بمثل زرارة وبريد ومحمد بن مسلم في خبر جبريل. ولد على الظاهر في حياة النبي ﷺ،

وروى عن ابن الطفيلي التابعي، وتوفي في أوائل إمامية الصادق عليه السلام على الظاهر من رواية كبار صحابة الصادق عليه السلام عنه، وخبر ترحم الصادق عليه السلام عليه، مع تصريح الشيخ به في رجاله.

وبهذا يرد كلام من ادعى كونه من أصحاب الكاظم عليه السلام، فإنه من البعيد بقاوئه لتلك الفترة الطويلة دون ذكره في المعمرين، بل يؤيد كون ابن جابر غير ابن عبد الرحمن؛ فإن إسماعيل بن جابر عدّ من أصحاب الباقر عليه السلام، ومن أدرك الصادق عليه السلام كما في رجال البرقي، كما عده الشیخ جلیل نفسه في رجال الكاظم عليه السلام كما سوف يأتي.

وأما إسماعيل بن جابر

ففي رجال البرقي: عده من أدرك الصادق عليه السلام من رجال الباقر عليه السلام^(١٠).

وفي مشيخة الفقيه: «وما كان فيه عن إسماعيل بن جابر فقد رويته عن محمد بن موسى بن المتوكل عليه السلام عنه عن عبد الله بن جعفر الحميري، عن محمد بن محمد بن عيسى، عن صفوان بن يحيى، عن إسماعيل بن جابر»^(١١).

أقول: محمد بن محمد بن عيسى لم يذكروه، والمعارف رواية الحميري عن أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري، ومحمد بن عيسى بن عبيد.

وذكرنا آنفاً في ترجمة ابن عبد الرحمن أننا لم نجد في مسندات الفقيه أي رواية يرويها صفوان عن إسماعيل بن عبد الرحمن أو بن جابر بلفظيهما، على الرغم من أن الطريق إلى روایتهما عن صفوان بن يحيى.

وفي فهرست الشيخ: «إسماعيل بن جابر: له كتاب. أخبرنا به ابن أبي جيد عن

ابن الوليد عن الصفار عن محمد بن عيسى بن عبيد عن صفوان عن إسماعيل بن جابر. ورواه حميد بن زياد عن القاسم بن إسماعيل القرشي عنه^(١٢).

أقول: الطريق الأول لكتابه صحيح، وهو نفسه طريق النجاشي لكتاب إسماعيل بن جابر المغفلي، فلاحظ ما يأتي تحت عنوانه.

وفي رجال الشيخ في أصحاب الكاظم عليه السلام: «إسماعيل بن جابر روى عنهم أيضا»^(١٣).

أقول: هي رواية واحدة مرسلة عن الكاظم عليه السلام وجدناها في التهذيب عن الحسن بن محمد بن سماعنة عن زكرياً بن عمرو عن رجلٍ عن إسماعيل بن جابر قال: قال لي رجل صالح: لا تعرّض للحقوق وأصبر على النائب ولا تعطي أخاك من نفسك ما مضرته لك أكثر من منفعته له^(١٤).

استظهر منها أن الرجل الصالح هو الإمام الكاظم عليه السلام، جريا على العادة في تلقينيه، وهو غير بعيد.

وفي رجال ابن داود: «إسماعيل بن جابر: [جغ]^(١٥) المخعمي الكوفي أبو محمد القرشي ثقة مodox له أصول قر^(١٦)، ق^(١٧) [جش]^(١٨): عوض المخعمي: المغفلي»^(١٩).

أقول: قد خلط^(٢٠) بين إسماعيل بن جابر المخعمي وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي أبو محمد القرشي، المفسر المعروف، الذي ترجم له الشيخ بعد ترجمته لابن جابر. أو لعله لما رأى أن طريق الشيخ لكتاب إسماعيل بن جابر عن القاسم بن إسماعيل القرشي، توهم أنه ابن إسماعيل السدي، فألحق اللقب بإسماعيل بن جابر كذلك.

وسوف يتبيّن أن تلقّيه بالخثمي خطأ، وأن إسماعيل بن جابر هو نفسه إسماعيل بن جابر الجعفي، ثقة ممن روى عن الباقي والصادق والكافر عليهما السلام، له كتاب رواه الشيخ بسند صحيح عن صفوان بن يحيى، ويُمكّن عند عدم ذكر نسبه أو لقبه بـ**بلاحظة الطبقات** وبرواية صفوان عنه، إذ لم تتعهد روايته عن إسماعيل بن عبد الرحمن فيما بحثنا، إلا ما ذكره الشيخ الصدوق عليه السلام في المشيخة من أن ما فيه الجعفي هو إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي يرويه عن صفوان، وقلنا هناك أن لا رواية مستندة للصدوق في الفقيه عن صفوان عن إسماعيل الجعفي أو ابن جابر أو ابن عبد الرحمن.

وأما إسماعيل بن جابر الجعفي

ففي رجال البرقي عده من أصحاب الباقي عليهما السلام^(٢٠).

وفي رجال النجاشي: «إسماعيل بن جابر الجعفي: روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وهو الذي روى حديث الأذان. له كتاب ذكره محمد بن الحسن بن الوليد في فهرسته أخبرنا أبو الحسين علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الحسن قال: حدثنا محمد بن الحسن عن محمد بن عيسى عن صفوان بن يحيى عنه»^(٢١).

وتشريح الطريق هو: أبو الحسين علي بن أحمد هو ابن جيد، ومحمد بن الحسن هو ابن الوليد، ومحمد ابن الحسن الثاني هو الصفار، ومحمد بن عيسى هو ابن عبيد.

وبذلك يتحد طريق الشيخ لكتاب (إسماعيل بن جابر) وطريق النجاشي لكتاب (إسماعيل بن جابر الجعفي)، فإن طريق الشيخ لكتابه هو: «إبن أبي جيد عن ابن الوليد عن الصفار عن محمد بن عيسى بن عبيد عن صفوان عن إسماعيل بن جابر».

وأما حديث الأذان فهو الذي رواه الكليني في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن يونس، عن أبان بن عثمان، عن إسماعيل الجعفي، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الأذان والإقامة خمسة وثلاثون حرفا»^(٢٢).

وقد روى أبان عن إسماعيل الجعفي كثيراً، وروى عن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي أقل منه، فهل الأول هو ابن جابر أو ابن عبد الرحمن؟.

أما الأول - المروي عن إسماعيل الجعفي - فقد رُويَ عن الحسين بن محمد الأشعري عن معلى بن محمد عن الوشاء عن أبان بن عثمان.

وبطريق علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس عن أبان بن عثمان.

ومحمد بن يحيى العطار عن عبد الله بن محمد بن عيسى الأشعري عن علي بن الحكم الأنباري عن أبان بن عثمان.

وعن حميد بن زياد عن الحسن بن محمد بن سماعة عن أحمد بن الحسن الميسمى عن أبان.

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبان بن عثمان، وغيرها من الطرق.

وهي من الكثرة والتشابه ما يجعل الفتن قوية بأنها مأخوذة عن كتاب أو مصنف أو رسالة لإسماعيل، دوّنها أبان عنه ثم انتشرت بين الرواية، ولم يعلم لإسماعيل بن عبد الرحمن كتاب، فلا بد أن يكون هو إسماعيل بن جابر الجعفي، ولا أقل ما رجح أنه على ابن عبد الرحمن.

إلا أن يقال أن ما نقله الرواة عن أبأن هو من كتاب لأبأن نفسه، لكنه بعيد في نفسه، إذ لم يذكر له إلا كتاب واحد «يجمع المبتدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسفينة والردة» رواه الكوفيون والقميون^(٢٣)، فتأمل.

نعم، لأبأن رحمه الله أصل ذكر الشيخ طريقه إليه في الفهرست^(٢٤)، لكنه لا يلزمه كون الأصل مشتملاً على ما سمعه أو رواه بنفسه فقط دون أن ينقل فيه من كتب غيره كما ذكره البعض، خاصة في مثل أبأن هنا. والظاهر أن المراد من الأصول الأربعينية المحكية في كلام الشيخ المفيد والطوسي رحمه الله هي المراجع الأصلية في الرواية، سواء كانت عن سمع مباشر أو تحمل روایة أو نقل من كتاب أو رسالة غير متداولة في ذلك الزمن لفقدانها أو ندرة نسخها، وهو المعنى نفسه الذي تحمله كلمة (المرجع) في العرف العلمي الخاص في هذه الأزمان، ولا شاهد لما ذكروه من فروق بين الكتاب والأصل بحسب ما يقتضيه النظر.

وأما الثاني -الموyi عن إسماعيل بن عبد الرحمن - فقد روysi عن أحمد بن محمد الكوفي عن محمد بن النهيي عن محمد بن الوليد عن أبأن بن عثمان.

وعن الحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْ أَبَانَ .^(٢٥)

وهذا الطريق الأخير مذكور مستنداً إلى الوشاء عن أبأن عن إسماعيل الجعفي في غير رواية، بدون إرسال كما هنا، ولعل فيه تصحيفاً من ابن جابر لابن عبد الرحمن، والله أعلم.

وبهذا تبيّن: أن التصریح باسم إسماعيل بن عبد الرحمن في رواية أبأن ورد مرة واحدة، ولم يرد باسم إسماعيل بن جابر عن أبأن في أي منها، ومن الراجح عند

إطلاق (إسماعيل الجعفي) برواية أبان كونه ابن جابر^(٢٦).

وفي رجال الشيخ: عده في أصحاب الصادق علّي^(٢٧).

وقال في ترجمته ابن حجر في لسان الميزان: «إسماعيل بن جابر بن يزيد الجعفي، ذكره الطوسي في رجال الشيعة وقال علي بن الحكم كان من نجاء أصحاب الباقي وروى عن الصادق والكاظم علّي^(٢٨) عنه، روى عنه عثمان بن عيسى ومنصور بن يونس وغيرهما»^(٢٩).

وزيادة ابن يزيد لم تذكر في مصادرنا، وساق البعض احتمال كونه من أبناء جابر بن يزيد الجعفي، إلا أنه لا مؤيد له ولا شاهد، ولا يخرج عن كونه مجرد حدس.

وقد ورد لقبه في رواية واحدة في الفقيه عن جميل بن دراج عنه عن أبي جعفر ع قال: «خَمْسٌ يُطَلَّقُنَ عَلَى كُلِّ حَالٍ الْحَامِلُ الْمُتَبَيِّنُ حَمِلُهَا وَالَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بَهَا زَوْجُهَا وَالْغَائِبُ عَنْهَا زَوْجُهَا وَالَّتِي لَمْ تَحْضُرْ وَالَّتِي قَدْ جَلَسْتُ مِنَ الْمَحِيطِ»^(٣٠).

وبعينها وردت في الكافي عن حميد بن زياد عن ابن سماعة عن عبد الله بن جبلة وجعفر بن سماعة عن جميل عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر علّي^(٣١).

والصحيح أنه إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي، لا ابن جابر الجعفي، إذ لم يتعارف رواية جميل عن إسماعيل بن جابر الجعفي في الكافي والاستبصارين، ولم ترد عنه إلا في مرسلة الفقيه مع اتحاد متنها مع رواية الكافي بتفاوت يسير، فهي رواية واحدة كما هو واضح.

وحاصل القول: أن اتحاد طريفي الشيخ -كتاب إسماعيل بن جابر - والنجاشي

-كتاب إسماعيل بن جابر الجعفي - يشهد باتحادهما، وذكر الشيخ لإسماعيل بن جابر الجعفي في رجاله ناظر لرواية الفقيه الوحيدة، وتخصيص النجاشي له بذكر حديث الأذان واضح في إرادة تمييزه عن غيره - الذي هو ابن عبد الرحمن الذي يروي أبان عنه قليلاً - بل ليس غيره في كتابه إلا ابن عبد الرحمن. فإسماعيل بن جابر هو إسماعيل بن جابر الجعفي وهو غير متعدد مع ابن عبد الرحمن الجعفي.

وأما إسماعيل بن جابر الخثعمي

فعده الشيخ في أصحاب الصادق والباقر عليهما السلام وقال: «إسماعيل بن جابر الخثعمي الكوفي ثقة ممدوح له أصول رواها عنه صفوان بن يحيى»^(٣٠).

لكنه لم يقع إلا في رواية الكافي في التوادر من كتاب الحج: «عَلَيْيُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ الْخَثْعَمِيِّ [بن الخثعمي خ ل] قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ: إِنَّا إِذَا قَدَّمْنَا مَكَةَ ذَهَبَ أَصْحَابُنَا يَطْوُفُونَ وَيَتَرْكُونِي أَحْفَظُ مَتَاعَهُمْ قَالَ أَنْتَ أَعْظَمُهُمْ أَجْرًا»^(٣١).

وفي رجال ابن داود: «إسماعيل بن جابر: [جخ]^(٣٢) الخثعمي الكوفي أبو محمد القرشي ثقة ممدوح له أصول قر^(٣٣)، ق^(٣٤) [جش]^(٣٥): عوض الخثعمي: الجعفي»^(٣٦).

أقول: لم نجد ولو رواية واحدة يرويها صفوان - وهو من يروي أصوله كما ذكر الشيخ - عنه في الكتب الأربع، والراجح كون من يروي عنه ابن أبي عمر في تلك الرواية اليتيمة هو محمد بن يحيى الخثعمي، الذي يروي عنه ابن أبي عمر في كتاب الحج عدة أحاديث^(٣٧)، أو أن واسطة محدوفة في البين وخلطا؛ إذ لم نعثر على رواية لابن أبي عمر يرويها بلا واسطة عن إسماعيل بن عبد الرحمن أو ابن جابر أو

الجعفي.

وليس للشيخ طريق لأحد اسمه إسماعيل بن جابر يرويه عن صفوان بن يحيى إلا من ذكره في الفهرست خالياً عن اللقب والسبة، المتخد طريقه مع طريق النجاشي إلى إسماعيل بن جابر الجعفي كما أوضحتنا سابقاً، فتبين أن مقصود الشيخ هو نفس إسماعيل بن جابر الجعفي لا شخصاً آخر. وأما تكرار الشيخ له في رجاله تارة خالياً عن النسب وتارة الجعفي وتارة الخثعمي، فهو بلحاظ الأخبار وأسانيدها، لذا تراه في فهرسته اكتفى بالترجمة لـ (إسماعيل بن جابر) فقط.

وأما ما ذكره ابن داود فقد تقدم ما فيه.

فنكاد نطمئن بعدم وجود شخص بهذا الإسم في الرواية.

والنتيجة:

أن إسماعيل الجعفي يطلق ويراد به أحد اثنين: إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي، أو إسماعيل بن جابر الجعفي، وكلاهما ثقة.

وكلاهما كذلك مشتركان في طبقة أصحاب الصادق والباقر عليهما السلام، ويعززان بالراوي والمروي عنه، فجميل بن دراج مثلاً يروي عن إسماعيل بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان يروي عن إسماعيل بن جابر.

وأما إسماعيل بن جابر الخثعمي أو ابن الخثعمي، فظاهر الحال قاض بنفي وجوده، أو اشتباه من النساخ في ذكره، أو أنه مجھول الحال.

والحمد لله رب العالمين.

المواهش:

- (١) مشيخة الفقيه: ٤٦٥
- (٢) رجال النجاشي ١١٠-١١١.
- (٣) رجال الشيخ: ١٠٤.
- (٤) رجال الشيخ: ١٦٠.
- (٥) الكشي: ١٦٩، ر ٢٨٣.
- (٦) الخلاصة: ٨، ر ٣.
- (٧) الاختصاص: ٨٦-٨٥.
- (٨) الطبقات الكبرى: ٦: ٤٩.
- (٩) الطبقات الكبرى: ١: ٣٢٥-٣٢٦.
- (١٠) رجال البرقي: ١: ٢٨.
- (١١) مشيخة الفقيه: ٤: ٤٢٦.
- (١٢) فهرست الشيخ: ٣٧، ر ٤٩.
- (١٣) رجال الشيخ: ١: ٣٣١، ر ١٣.
- (١٤) التهذيب ٧: ٢٣٥ / ح ٤٧.
- (١٥) أي رجال الشيخ.
- (١٦) أي من أصحاب الباقي عليه السلام.
- (١٧) أي من أصحاب الصادق عليه السلام.
- (١٨) أي رجال النجاشي.
- (١٩) رجال ابن داود: ٥٦، ر ١٧٦.
- (٢٠) رجال البرقي: ١: ١٢.
- (٢١) رجال النجاشي ص: ٣٢، ر ٧١.
- (٢٢) الكافي ٣: ٣٠٣ / ح ٣.
- (٢٣) فهرست الشيخ: ٤٨ / رقم ٥٢، قال عليهما السلام: «وما عرف من مصنفاته إلا كتابه الذي يجمع المبتدأ والمبعث والمعاذي والوفاة والسفينة والردة. أخبرنا بهذه الكتب وهي كتاب واحد الشيخ أبو عبد الله محمد

بن محمد بن النعمان». .

(٢٤) الفهرست: ٤٩ / ٥٢.

(٢٥) الكافي ٧: ١٢٥ ح ٤.

(٢٦) على خلاف مذهب السيد الأستاذ عليه السلام.

(٢٧) رجال الشيخ: ١٦٠.

(٢٨) لسان الميزان ١: ٣٩٧، ١٢٥٦.

(٢٩) الفقيه ٣: ٥١٧.

(٣٠) رجال الشيخ ١: ١٢٤ و ١٦٠، ر ١٨ و ر ٩٣.

(٣١) الكافي ٤: ٥٤٥ ح ٢٦.

(٣٢) أي رجال الشيخ.

(٣٣) أي من أصحاب الباقي عليه السلام.

(٣٤) أي من أصحاب الصادق عليه السلام.

(٣٥) أي رجال النجاشي.

(٣٦) رجال ابن داود: ٥٦، ر ١٧٦.

(٣٧) الكافي ٤: [٢] / [٢٦٧] عَلَيْهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى الْخَنْعَمِيِّ قَالَ سَأَلَ حَفْصُ الْكُنَاسِيُّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآتَاهُ عِنْدَهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (آل عمران: ٩٧) - مَا يَعْنِي بِذَلِكَ قَالَ مَنْ كَانَ صَحِيحًا فِي بَدْنِهِ مُحَلَّى سَرْبَهُ لَهُ زَادُ وَرَاحَلَةُ فَهُوَ مِنْ يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ أَوْ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَقَالَ لَهُ حَفْصُ الْكُنَاسِيُّ فَإِذَا كَانَ صَحِيحًا فِي بَدْنِهِ مُحَلَّى سَرْبَهُ لَهُ زَادُ وَرَاحَلَةُ فَلَمْ يَحْجُّ فَهُوَ مِنْ يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ قَالَ نَعَمْ.

وعنه في التهذيب ٥: ٣ ح ٢.

والكافى ٤: [٥] عَلَيْهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي عُمَيْرٍ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى الْخَنْعَمِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ فِي رَجُلٍ لَمْ يَقْفِي بِالْمُزْدَلْفَةِ وَلَمْ يَبْتَأْ بِهَا حَتَّى أَتَى مِنْيَ فَقَالَ أَلَمْ يَرَ النَّاسَ وَلَمْ يُنْكِرْ مِنِّي حِينَ دَخَلَهَا قُلْتُ فَإِنْ جَهَلَ ذَلِكَ قَالَ يَرْجِعُ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ قَدْ فَاتَهُ فَقَالَ لَا بَأْسَ.

والتهذيب ٥: [٢٩] سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَعْرُوفٍ عَنْ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى الْخَنْعَمِيِّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِيمَنْ جَهَلَ وَلَمْ يَقْفِي بِالْمُزْدَلْفَةِ وَلَمْ يَبْتَأْ بِهَا حَتَّى أَتَى مِنْيَ قَالَ يَرْجِعُ فَقُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ فَاتَهُ فَقَالَ لَا بَأْسَ بِهِ.

دور الإمام علي عليه السلام في زمن الخلفاء

عزيز حسن الخضران

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وللعنة الدائم المؤبد على أعدائهم أجمعين
إلى قيام يوم الدين.

مقدمة:

تعتبر الإمامة من أهم المباحث الإسلامية في علم الكلام، حيث كانت هي محل البحث والنقاش بين العلماء، وهي المفصل الرئيسي الذي من خلاله تحل جميع المسائل التي اختلف فيها المسلمون، وتفرقوا إلى مذاهب متعددة، والإمامية بنفسها محل خلاف حتى في معناها وشروطها، وهل هي من الفروع أو الأصول؟، فذهب أتباع أهل البيت عليهما السلام إلى أن الإمامة منصب إلهي لا دخل لأي شخص من الأمة في تحديده، ولو اجتمعت الأمة كلها ما استطاعت معرفة الإمام، وكما يقول الإمام الرضا عليه السلام: «الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله.....، من ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره، هيئات هيئات، ضلت العقول، وتابت الحالات، وحارست الألباب.....، عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله.....، فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا.....»^(١).

بينما ذهب الآخرون إلى أن الإمامة بيد المسلمين، ينصبون من شاؤوا ويعزلون

من شاؤوا. والفارق بين النظريتين شاسع، فعلى نظرية أهل البيت عليهم السلام يكون هناك من يمثل الرسول صلوات الله عليه وآله بعد رحيله، ويجب على الأمة طاعته، وإن لم يتأتى له استلام الخلافة الظاهرية (قيادة الحكومة الإسلامية)، لأن الخلافة الظاهرية ما هي إلا وظيفة من وظائف الإمام المنصب من قبل الله عز وجل، فإذا منع منها لا يعني زوال بقية الوظائف المنطة به.

بينما تحصر النظرية الأخرى وظيفة الإمام في الخلافة الظاهرية، فإذا منع منها فقد زالت إمامته، ولا يوجد -حسب هذه النظرية- من يمثل الرسول صلوات الله عليه وآله تثليلاً حقيقةً وفي جميع الوظائف التي كان يؤديها الرسول صلوات الله عليه وآله.

وسوف نبحث هنا -إن شاء الله تعالى حسب عقيدتنا في الإمامة- الأدوار التي قام بها أول الأئمة، أمير المؤمنين وإمامهم وقادتهم وسيدهم علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه)، في مرحلة من أهم المراحل التي مر بها خلال حياته المباركة، وهي فترة الخلفاء الثلاثة، التي دامت ما يقارب خمسة وعشرين سنة، وكانت الأمة قد حرمت نفسها من عطاءه عندما أبعدهه وأقصاه عن موقع القرار، وقد ورد عن النبي صلوات الله عليه وآله أنه قال: «إن تستخلفوا علياً -وما أر أكم فاعلين- تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على الحجّة البيضاء»^(٢).

ولكن أمير المؤمنين عليه السلام قام بمسؤوليته كإمام، وعلى حسب ما أوصاه رسول الله صلوات الله عليه وآله، وأدى ما فرضه الله عليه من أدوار مهمة، نذكر منها ما يسعنا ذكره، وعلى حسب طاقتنا، فإنه لا يمكننا إحصاء كل ذلك.

الدور الأول: إقامة الحجة البالغة في أحقيّته بالخلافة:

كان أمير المؤمنين عليه السلام مأموراً بالصبر على ما سيجري عليه، كما ورد في أحاديث كثيرة، منها أن النبي عليه السلام بكى في حادثة فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ما يبكيك يا رسول الله قال: ضغائن في صدور قوم لا يبدونها لك حتى يقدوني فقال: يا رسول الله أفلأ أضع سيفي على عاتقي فأبيد خضراءهم؟ قال: بل تصر. قال: فإن صبرت؟ قال: تلاقي جهداً. قال: أفي سلامة من ديني؟ قال: نعم قال: فإذاً لا أبالٍ»^(٣).

ولكن هذا الصبر الذي أمر به أمير المؤمنين عليه السلام مشروط بعدم وجود الناصر كما في بعض الروايات، فقد جاء في شرح ابن أبي الحديد ما لفظه: «ويقال أنه عليه لما استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه وكان يحمل فاطمة عليه السلام ليلاً على حمار وابناها بين يدي الحمار، وهو عليه يسوقه فيطرق بيوت الأنصار وغيرهم، ويسلامن النصرة والمعونة، أجابه أربعون رجلاً فبايعهم على الموت وأمرهم أن يصبحوا بكرة محلقي رؤوسهم ومعهم سلاحهم، فأصبح لم يوافق منهم إلا أربعة الزبير والمقداد وأبو ذر وسلمان، ثم أتاهم من الليل فناشدهم فقالوا نصبك غدوة مما جاءه منهم إلا أربعة وكذلك في الليلة الثالثة....»^(٤).

وبعد اليأس من وجود الناصر، بقي عليه يؤكّد في موارد كثيرة ومتكررة، وفي كل فرصة متاحة - على أنه هو الخليفة الشرعي المنصب من قبل الله تعالى، مع علمه عليه بأنهم لن يصغوا إليه ولن يسلّموه الخلافة، وإنما كان ذلك منه إقامة للحجّة تلو الحجّة، وحتى تصل هذه النظرية -نظرية الإمامية الإلهية- إلى الأجيال المتلاحقة ناصعة من أراد الحق، فكل من يدخل في مذهب الحق، فبفضل ما قام به

أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ.

فمتعلق التقية التي أمر بها أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ، إنما هي عدم القيام بالسيف لأخذ حقه، ولا تشمل الإحتجاج وبيان حقه للناس، ومعارضة من سلب حقه في الخلافة، كما سيتبين إن شاء الله تعالى.

مواقفه عَلَيْهِ الْكَلَمُ في بيان حقه:

والموافق التي صدرت منه عَلَيْهِ الْكَلَمُ في هذا الصدد تقتد على طول هذه الفترة، من رحيل المصطفى عَلَيْهِ الْكَلَمُ إلى تسلمه للخلافة الظاهرية وبعدها.

فقد أبدى عَلَيْهِ الْكَلَمُ احتجاجه منذ البداية على سلب حقه، وامتنع عن البيعة فترة وجود الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَمُ، كما ورد في البخاري عن عائشة - وهي بنت الخليفة وتعلم ما يجري في بيت الخلافة - أنها قالت: فلما توفيت (الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَمُ) دفنتها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبو بكر، وصلّى عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفّيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته ولم يكن يباعع تلك الأشهر^(٥).

وهذا الامتناع عن البيعة إنما هو لتسجيل الاعتراض الصارخ والمدوّي، الذي يسعى كثير الطمس عليه، لما له من دلالات كبيرة ومهمة، لكون علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ من أجمعوا عليه الأمة، ولكن امتناعه يؤدي إلى عدم شرعية ما اتفقا عليه، ولكن المصادر تؤكد بما لا مزيد عليه من أنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ قد امتنع عن البيعة، مهما اختلف في مدة الامتناع.

خطبته عليه السلام في المهاجرين والأنصار:

ولم يكتف أمير المؤمنين عليه السلام بذلك، بل خطب في المسلمين حين أرادوا منه البيعة قائلاً: «يا معاشر المهاجرين والأنصار الله الله، لا تنسوا عهد نبيكم إليكم في أمري، ولا تخروا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم، وتدفعوا أهله عن حقه ومقامه في الناس، يا معاشر الجمع إن الله قضى وحكم، ونبيه أعلم، وأنتم تعلمون أنا أهل البيت أحق بهذا الامر منكم، أما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله، المضطلع بأمر الرعية، والله إنه لفينا لا فيكم، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعدها، وتفسدوا قدیکم بشر من حديثکم»^(٦).

ولكنهم أداروا له ظهرهم، وأغلقوا آذانهم، وقد جاءت له الزهراء عليه السلام، فأخذته منهم ورجعا إلى المنزل، وزيادة في إقامة الحجة، كان أمير المؤمنين عليه السلام - كما تقدم - يأخذ الزهراء عليه السلام والحسنان عليهما السلام، ويدور على بيوت الأنصار ويذكرهم بوصايا النبي عليه وآله فيه وفي أهل بيته عليهما السلام، كما عن الإمام الباقر عليهما السلام: «أن عليا عليه السلام حمل فاطمة صلوات الله عليها على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار يسألهم النصرة، وتسألهما فاطمة عليهما السلام الإنتصار له، فكانوا يقولون يا بنت رسول الله قد مضت بيعنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدناه به، فقال علي عليه السلام: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه؟ وقللت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، وصنعوا لهم ما الله حسيبهم عليه»^(٧).

اختصامه عليه السلام مع العباس:

وفي حادثة لطيفة اختص فيها علي عليه السلام والعباس اختصاماً صورياً بعد أيام

من مبادئ الناس لأبي بكر— في بغلة النبي ﷺ وسيفه وعمامته، فأقبلوا حتى جلسا عند أبي بكر فافتتح العباس الكلام. فقال له أبو بكر: لا تتعجل يا أبا الفضل، فإني سألك عن أمر لست أسلوك إلا وأنا عالم به: أنشدك بالله! هل تعلم أن رسول الله ﷺ جمع بني عبد المطلب وأولادهم وأنت فيهم فقال: «يا بني عبد المطلب، إنه لم يبعث الله نبياً إلا وجعل له أخاً وزيراً ووارثاً ووصياً من قومه وخليفة من أهل بيته، فمن يقوم منكم يباعني على أنه يكون أخي وزيري ووارثي وخليفي في أهلي»، فلم يقم أحد منكم! فقال النبي ﷺ: «[يا بني عبد المطلب] كونوا في الإسلام رؤوساً ولا تكونوا أدناباً، والله ليقومن قائمكم ول يكن في غيركم، ثم لتندموا من بعد»، فقام عليٌّ من بينكم فباعه على ما شرط له ودعا إليه، تعلم أن هذا جرى من رسول الله ﷺ؟! فقال له العباس: نعم، والمحجة في هذا عليك! وإنما أقعدك في مجلسك هذا؟! ولم تقدمت وتأمرت عليه؟! فأطرق أبو بكر وتشاغل بشيء آخر، ونهض على آخذا بيد العباس وهو يقرأ: ﴿وَإِنْ كَثُرَا مِنَ الْمُخْلَطِينَ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٨) إلى آخر الآية. وروي أنهما قدما على عمر بعدما صار الأمر إليه، فقال لهم عمر: أخرجوا عني، فهمت يا بني عبد المطلب؛ هذا الذي فعله العباس إنما فعله توبيناً لأبي بكر وتهجيناً له وتنبيناً على أنه غاصب حق عليٍّ^(٩).

اظهاره عليه الاحتجاج بشكل دائم:

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يبدي الإنزعاج والكراهية لما فعله القوم، حتى يظهر ذلك لهم ويعلمهون منه، فقد روى الصدوق عليه السلام في الحصول عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: «لما كان من أمر أبي بكر وبيعة الناس له وفعلهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام ما

كان، لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط ويرى منه انقباضاً، فكبر ذلك على أبي بكر فأحب لقاءه واستخراج ما عنده والمعدرة إليه لما اجتمع الناس عليه وتقليلهم إياه أمر الأمة وقلة رغبته في ذلك وزهده فيه، أتاه في وقت غفلة وطلب منه الخلوة، وقال له: والله يا أبا الحسن ما كان هذا الامر مواطأة مني، ولا رغبة فيما وقعت فيه، ولا حرضاً عليه ولا ثقة بنفسي فيما تحتاج إليه الأمة ولا قوة لي مال ولا كثرة العشيرة ولا ابتزاز له دون غيري فمالك تضمر عليّ ما لم يستحقه منك وتنظر لي الكراهة فيما صرت إليه وتنظر إلى بعين السامة مني.....، (إلى أن يقول) قال علي عليه السلام: أجل ولكن أخبرني عن الذي يستحق هذا الأمر بما يستحقه؟ فقال أبو بكر: بالنصيحة، والوفاء، ورفع المهاينة والمحاباة، وحسن السيرة، وإظهار العدل، والعلم بالكتاب والسنّة وفصل الخطاب، مع الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها وإنصاف المظلوم من الظالم القريب والبعيد. ثم سكت فقال علي عليه السلام: أنسدك بالله يا أبا بكر أفي نفسك تجد هذه الحال أوفي؟ قال: بل فيك يا أبا الحسن.....(فذكر أمير المؤمنين ما يزيد عن ثلاثين خصلة ومنقبة)، إلى أن يقول السجاد عليه السلام: «فلم يزل عليه السلام يعد عليه مناقبه التي جعل الله تعالى له دونه ودون غيره ويقول له أبو بكر: بل أنت، قال: ف بهذه وشبهه يستحق القيام بأمور أمة محمد عليهما السلام، فقال له علي عليه السلام: فما الذي غررك عن الله وعن رسوله وعن دينه وأنت خلو مما يحتاج إليه أهل دينه؟ قال: فبكى أبو بكر.....»^(١٠).

فنرى هنا أن أمير المؤمنين عليه السلام يسعى دائماً لإقامة المحجة والبرهان، حتى لمن يعلم علم اليقين أن الحق مع علي عليه السلام.

وهذا الإحتجاج الدائم المستمر جعل الخليفة الثاني أيضاً مهتماً بهذا الأمر

وخفافاً من مطالبة علي عليهما السلام للخلافة، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «دخلت على عمر في أول خلافته.....، قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلقت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته ينتح بالغرب على نخيلات من فلان ويقرأ القرآن، قال: يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتها هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله عليهما السلام نص عليه؟ قلت: نعم وأزيدك سأله أبي مما يدعوه فقال: صدق...»^(١).

وقول عمر هنا: «أيزعم أن رسول الله عليهما السلام نص عليه؟»، محاولة لإخفاء الحقيقة التي طالما كان علي عليهما السلام يؤكد عليها، في أكثر من مناسبة كما تقدم.

وهذا ما يجعل أمير المؤمنين عليهما السلام يستمر في بيان أمر الإمامة الإلهية، ويؤكد عليها طوال أيام حياته المباركة، حتى لا تُطمس الحقيقة الثابتة، وتنقلب إلى ضدتها، وتصبح النظرية الأخرى للإمامية هي النظرية الثابتة التي لا شك فيها ولا ريب، كما هو الحال عند جماعة كثيرة من المسلمين، فقد أصبح الحال لديهم أن نظرية الشورى مسألة يقينية ثابتة، حتى كأن النبي عليهما السلام قد أوصى بهذه النظرية، ولم يرض بسوها.

احتجاجاته عليهما السلام عند الشوري:

وقد استمرت احتجاجات أمير المؤمنين عليهما السلام عندما أرادوا مبايعة عثمان، فقد روي عن أمير المؤمنين عليهما السلام أنه خطب ذات يوم، وقال: أيها الناس: انصتوا لما أقول رحمة الله، إن الناس بايعوا أبا بكر وعمر وأنا والله أولى منهما بوصية رسول الله، - وسكت - وأنتم اليوم تريدون أن تبايعوا عثمان، فإن فعلتم - وسكت - والله ما

تجهلون محلي، ولا جهل من كان قبلكم ولو لا ذلك قلت مala تطيقون دفعه. فقال الزبير: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال علي عليه السلام أنسدكم بالله: هل فيكم أحد وحد الله، وصلى مع رسول الله عليه وآله قبلي؟ أم هل فيكم أحد أعظم عند رسول الله عليه وآله مكاناً مني؟ أم هل فيكم من كان يأخذ ثلاثة أسهم: سهم القرابة، وسهم الخاصة، وسهم الهجرة أحد غيري؟..... إلى أن قال (والحديث طويل): أم هل فيكم من باهل به النبي عليه وآله أحد غيري؟ قال: فعند ذلك قام الزبير وقال: صح مقالتك ولا ننكر منه شيئاً ولكن الناس بایعوا الشیخین، ولم یخالفوا الإجماع، فلما سمع ذلك، نزل وهو يقول: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضْلِلِينَ عَصْدًا﴾^(١٢).

وروى الصدوق عليه السلام في الخصال عن عامر بن واشلة أنه قال: كنت في البيت يوم الشورى فسمعت علياً عليه السلام وهو يقول: «استخلف الناس أبا بكر وأنا وأنت أحق بالأمر وأولى به منه، واستخلف أبو بكر عمر وأنا وأنت أحق بالأمر وأولى به منه إلا أن عمر جعلني مع خمسة نفر أنا سادسهم لا يعرف لهم علي فضل، ولو أشاء لاحتججت عليهم بما لا يستطيعون عربتهم ولا عجميهم المعاهد منهم والمشرك تغيير ذلك، ثم قال: نشدتكم بالله أيها النفر هل فيكم أحد وحد الله قبلي؟ قالوا: اللهم لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله عليه وآله: "أنت مني بنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدك" غيري؟ قالوا: اللهم لا.....^(١٤) ، (وذكر عليه السلام فضائله الكثيرة التي لا تنكر، وهم في كل ذلك يعترفون له).

ويروي الصدوق عليه السلام رواية أخرى في كتاب العلل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لما كتب عمر كتاب الشورى بدأ بعثمان في أول الصحيفة وأخر علياً أمير المؤمنين عليه السلام! فجعله في آخر القوم، فقال العباس: يا أمير المؤمنين يا أبا الحسن

أشرت عليك في يوم قبض رسول الله أن قد يدك فنباعتك فإن هذا الامر لمن سبق إليه، فعصيتي حتى بويع أبو بكر، وأنا أشير عليك اليوم أنَّ عمر قد كتب أسمك في الشورى وجعلك آخر القوم، وهم يخرجونك منها فأطعني ولا تدخل في الشورى، فلم يجده بشئ فلما بويع عثمان قال له العباس: ألم أقل لك، قال له يا عم إنه قد خفي عليك أمر، أما سمعت قوله على المبر ما كان الله ليجمع لأهل هذا البيت الخلافة والنبوة فأردت أن يكذب نفسه بلسانه فيعلم الناس أن قوله بالأمس كان كذباً باطلًا، وإننا نصلح للخلافة، فسكت العباس»^(١٥).

فأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ لم يفوّت هذه الفرصة لبيان أحقيته للخلافة، وبيان التناقضات التي وقع فيها مخالفوه وغاصبوا حقه.

على عَلَيْهِ الْكَلَمُ صاحب المبادئ والقيم:

وفي نفس حادثة الشورى، يؤكّد لنا علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ مبادئه وقيمه التي لا يحيى عنها، وأنه لا يتعامل مع الخلافة كمسألة شخصية، وسلطة دنيوية، بل هي أمر إلهي لتطبيق العدالة الإلهية على وجه الأرض، وذلك عندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف الخلافة بشرط العمل على كتاب الله وسنة النبي عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسيرة الشيفين، فأبى أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الشرط الأخير، تأكيداً منه على نظرية الإمامة الإلهية، وأنه لا دخل للبشر في ذلك، ولا شروط أرضية للمشروع السماوي، ولو كان غير علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ في هذا الموقف، لقبل الأمر ثم لم يف بالشرط، ولكنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ له نظرة أبعد من ذلك، لأنَّه لو قبل الشرط ثم لم يف به، فسيكون أولاً كاذباً في نظر الناس، وأن المهم لديه هو الوصول إلى الخلافة بأيِّ أسلوب وطريق، وتكون الحجة لمن يخالفه بعد ذلك، وثانياً إن قبوله لأصل هذا الشرط سيكون مناقضاً لنظرية الإمامة الإلهية،

التي كان عليهما يؤكّد عليها طوال هذه الفترة، لأنّ القبول بهذا الشرط وعدم الإعتراض عليه يعطيه الشرعية، ويكون القبول ذريعةً لمن يأتي بعد ذلك ويقبل بمثل هذا الشرط، بالإضافة إلى إعطاء الشرعية لسيرة الشيّخين، بينما كان عليهما يؤكّد كل ما يوسعه لبيان أنّ الذين تقدّموه كانوا غاصبين لحقّه الإلهي.

وهو عليهما أعلم بما يفعل، ولعل هناك مصالح أخرى في هذا الرفض، قد غابت عن أفهامنا، وليس كل ما يعلمه عليهما يبيّنه الناس، وإنما يبيّن ما كان بيانه يخدم المشروع الإلهي.

حديثه عليهما عن الشورى:

وقد تحدّث عليهما بما جرى في الشورى في حديث طويل لأحد اليهود بعد وقعة النهروان قال عليهما: «وكان من فعله (عمر) أن ختم أمره بأن سُمّي قوماً أنا سادسهم، ولم يستوْنِي بوحدة منهم، ولا ذكر لي حالاً في وراثة الرسول ولا قرابة ولا صهر ولا نسب، ولا لواحد منهم مثل سابقة من سوابقي ولا أثر من آثاري، وصيّرها شورى بيننا وصيّر ابنه فيها حاكماً علينا وأمره أن يضرب أعناق النفر الستة الذين صيّر الأمرَ فيهم إن لم ينفذوا أمره، وكفى بالصبر على هذا - يا أخا اليهود - صبراً، فمكث القوم أيامهم كلها كل يخطب لنفسه وأنا ممسك عن أن سألوني عن أمري فناظرتهم في أيامي وأيامهم وآثارهم، وأوضحت لهم ما لم يجعلوه من وجوه استحقاقي لها دونهم وذكرتهم عهد رسول الله عليهما السلام إليهم وتأكيد ما أكده من البيعة لي في أعناقهم، دعاهم حب الإمارة وبسط الأيدي والألسن في الأمر والنهي والركون إلى الدنيا والاقتداء بالماضيين قبلهم إلى تناول ما لم يجعل الله لهم فإذا خلوت بالواحد (منهم بعد الواحد) ذكرته أيام الله وحضرته ما هو قادم عليه وصائر إليه،

التمس مني شرطاً أن أصيّرها له بعدى فلما لم يجدوا عندي إلا الحجة البيضاء، والحمل على كتاب الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ووصية الرسول، وإعطاء كل امرئ منهم ما جعله الله له، ومنعه ما لم يجعل الله له (شد من القوم مستبد، ف) أزالتها عنى إلى ابن عفان»^(١).

وقول عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «فصبرت على طول المدة وشدة المحنـة حتى إذا مضى لسييله جعلها في جماعة زعم أني منهم، فـي الله ولـلـشـوري، متـى اعـتـرـضـتـ الـرـيبـ فـيـ معـ الـأـوـلـ مـنـهـمـ حتى صـرـتـ أـفـرـنـ بـهـذـهـ النـظـائـرـ؟»^(١٧).

واستمر الاحتجاج إلى أيام عثمان كما تشير له هذه الرواية، وهي أن عثمان قال لأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «إنك إن تربصت بي فقد تربصت بي من هو خير مني ومنك، قال: ومن هو خير مني؟ قال: أبو بكر وعمر! فقال: كذبت أنا خير منك ومنهما، عبد الله قبلكم وعبدته بعدكم»^(١٨).

وبعد خلافته الظاهرية أيضاً، ظل يقيم البراهين والحجـجـ علىـ حقـهـ المـغـصـوبـ،ـ وكانتـ لهـ منـاشـدـاتـ مشـهـورـةـ،ـ شبـيـهـ بـماـ تـقـدـمـ ذـكـرـهـ فـيـ خـلاـفةـ أبيـ بـكـرـ وـأـيـامـ الشـورـيـ،ـ وـنـكـتـفـيـ بـهـذـاـ المـقـدـارـ مـاـ قـامـ بـهـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عَلَيْهِ الْكَلَمُـ فـيـ هـذـاـ الدـورـ الـمـهمـ وـالـخـطـيرـ،ـ وـالـتوـسـعـ فـيـهـ لـمـ مجـالـ آـخـرـ.

الدور الثاني: الدفاع عن الدولة الإسلامية:

كل ما تقدم من إقامة الحـجـةـ عـلـىـ القـوـمـ وـالـمـعـارـضـةـ لـهـ لمـ يـعـنـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عَلَيْهِ الْكَلَمُـ منـ الدـافـعـ عـنـ الدـوـلـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ،ـ لـسـبـبـ بـسـيـطـ وـوـاضـحـ،ـ وـهـوـ أـنـهـ عَلَيْهِ الْكَلَمُـ كـانـ يـفـرـقـ بـيـنـ الـحـكـومـةـ وـالـحاـكـمـ،ـ فـالـحـاـكـمـ لـاـ يـشـلـ إـلـاسـلـامـ آـنـذـاكـ،ـ وـالـخـطـرـ إـذـ تـوـجـهـ إـلـىـ الدـوـلـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ،ـ فـإـنـهـ سـيـتـوـجـهـ إـلـىـ إـلـاسـلـامـ وـالـمـسـلـمـيـنـ،ـ وـالـإـمـامـ عَلَيْهِ الْكَلَمُـ مـسـؤـولـ مـنـ قـبـلـ

الله عَزَّوجَلَّ عن الدفاع عن بيعة الإسلام، فلم يكن يتردد أبداً في ذلك. ونظرته عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حماية الدولة تختلف عن نظر الآخرين، فإن الآخرين كانوا ينظرون إلى الأمر نظرة شخصية، حيث بزوال الدولة الإسلامية سيزول ملوكهم وسلطانهم، فقلقهم من الأخطار المحدقة بالدولة الإسلامية إنما هو قلق على مصيرهم، بينما أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يهمه وجوده في هرم السلطة، إلا إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام وللدولة الإسلامية، وتهمنه مصلحة الدولة الإسلامية وإن كان معزولاً ومبعداً عن موقع القرار.

وحيث أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أقصى من موقع القرار، لم يكن بإمكانه إلا أن يبدي مشورته عندما يستشيرونه في أمر الدولة، حيث أنهم لم يستغنوا عنه في كثير من القرارات الخطيرة، كما ورد في بعض النصوص التاريخية.
رأي علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أراد أبو بكر غزو الروم:

فقد روي أنه: «لما أراد أبو بكر غزو الروم دعا علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ وعمر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه (وأعلمهم بنبيه) غزو الروم، واستشارهم في ذلك، فقدم بعضهم رأيه، وعلى عَلَيْهِ السَّلَامُ في القوم لا يتكلم، قال أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال: أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت عليهم إن شاء الله، فقال: بشرك الله بخير، ومن أين علمت ذلك؟ قال: سمعت رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من نواه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون فقال: سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتني به سرك الله»^(١٩).

فمع ما تقدم في الدور الأول لأمير المؤمنين عَلِيٌّ، وجود الخلاف بينه وبين أبي بكر، وما هو موجود في نفس كل منهما تجاه الآخر، نرى أنّ أبي بكر هو الذي دعا عليه عَلِيًّا، وطلب منه أن يقدم رأيه في الأمر، لأهمية رأي أمير المؤمنين عَلِيٌّ، ونرى استجابة على عَلِيٌّ وحضوره معهم، ثم تقديم رأيه وإخباره لهم بأن النصر حليفهم، فلو كان شخص آخر غير أمير المؤمنين عَلِيٌّ يعلم بما فيه مصلحته الشخصية لما حضر معهم، ولما أخبرهم بحديث النبي عَلِيٌّ وَاللهُ أَكْبَرَ، ولكن عَلِيٌّ أكبر من ذلك وأرفع.

خطة تفصيلية لواجهة الأعاجم:

وفي نص تاريخي آخر ينقله الشيخ المفيد جعفر بن أبي طالب في الإرشاد، وهو: «أن الأعاجم من أهل همدان وأهل الري وأهل أصفهان وقومس ونهاوند تكانت، وأرسل بعضهم إلى بعض، واتفقوا على مهاجمة المسلمين، فلما وصل الخبر إلى عمر فزع فرعاً شديداً، فصعد المنبر وأخبر المهاجرين والأنصار، واستشارهم في الأمر، فقام طلحة وتكلم ثم عثمان، ثم قام أمير المؤمنين عَلِيٌّ فقال «الحمد لله - حتى تم التحميد والثناء على الله والصلاه على رسول الله عَلِيٌّ وَاللهُ أَكْبَرَ» - ثم قال: أما بعد، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذراريهم وإن أشخصت أهل اليمن من ينهم، سارت الحبيشه إلى ذراريهم، وإن أشخصت من بهذين الحرمين، انتقضت العرب عليك من أطرافها وأكناها، حتى يكون ما تدع وراء ظهرك من عيالات العرب أهم إليك مما بين يديك. وأما ذرك كثرة العجم ورهبتك من جموعهم، فإنما لم نكن نقاتل على عهد رسول الله عَلِيٌّ وَاللهُ أَكْبَرَ بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر، وأما ما بلغك من اجتماعهم على المسير إلى المسلمين، فإن الله لم يسرهم أكراه منك لذلك، وهو أولى بتغيير ما يكره، وإن الأعاجم إذا نظروا إليك قالوا: هذا رجل العرب، فإن قطعتموه

فقد قطعتم العرب، فكان أشد لكتلهم، و كنت قد أبّتهم على نفسك، وأمدّهم من لم يكن يمدّهم. ولكنني أرى أن تقرّ هؤلاء في أمصارهم، وتكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا على ثلات فرق: فلتقم فرقة منهم على ذاريهم حرساً لهم، ولتقى فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا، ولتسرب فرقة منهم إلى إخوانهم مددّاً لهم»، فقال عمر: أجل هذا الرأي، وقد كنت أحب أن أتابع عليه. وجعل يكرر قول أمير المؤمنين عليه السلام وينسقه إعجاباً به و اختياراً له»^(٢٠).

فهنا نرى أمير المؤمنين عليه السلام يقدم خطّة تفصيلية لمواجهة الخطر الجدي المتوجه للدولة الإسلامية، ونرى عمر قد قبل -من بين الآراء- رأي أمير المؤمنين عليه السلام وقدّمه على بقية الآراء، وطار به فرحاً لكونه يعلم بأن علياً عليه السلام يمثل الرسول الأعظم عليه السلام، وأنه عليه السلام صادق في مشورته، وعالم بالنتيجة التي ستؤدي إليها هذه الخططة.

أخذ عمر برأي علي عليه السلام في الأمور المهمة:

بل كان عمر دائماً ما يأخذ بقول أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة لما يتصل بالأمور الهمة والمستعصية، التي تؤثر سلباً وإيجاباً على الدولة الإسلامية، كما يذكر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام -في حديثه لليهودي-: «وأما الرابعة يا أخا اليهود فإن القائم بعد صاحبه كان يشاوري في موارد الأمور فيصدرها عن أمري ويناظري في غوامضها فيمضيها عن رأيي، لا أعلم أحداً ولا يعلم أصحابي يناظره في ذلك غيري»^(٢١).

ولا عجب من هذا الأمر، لما تقدم من أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتعامل مع الأمر على أنه تكليف شرعي، وليس أمراً شخصياً ضيقاً، وأيضاً لا عجب لكثره مشاوره عمر علي عليه السلام، لأن ذلك من مصلحته، وإدامة ملوكه.

والموافق في ذلك كثيرة، فمنها ما ورد في نهج البلاغة عنه ﷺ، وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه، فقال ﷺ: «وقد توكلَ اللهُ لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة، وستر العورة، والذي نصرهم -وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهو قليل لا ينتعنون - حي لا يوت، إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلهم بشخصك فتنكب، لا تكون للمسلمين كافية دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً، واحفظ معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكون الأخرى كنت رداءً للناس ومثابةً للمسلمين»^(٢٢).

فهذا قمة الإخلاص لله عزوجل، وقد أحسن علي عليهما السلام النصيحة لعمر - الذي هو في نظر علي عليهما السلام غاصب لحقه الشرعي في الخلافة - فيرى علي عليهما السلام ضرورة حفاظ عمر على نفسه في الحرب، لأن ذهاب الحاكم -أي حاكم - في المعركة مع العدو هو انكسار للجيش وهزيمة نفسية له، وربما يؤدي إلى الهزيمة العسكرية كما هو واضح، وبما أن الأمر يرتبط بالدولة الإسلامية وبال المسلمين فإن أمير المؤمنين عليهما السلام لا يتتردد في إسادة النصيحة.

وفي الاقتصاد:

وفي رواية أخرى ترتبط بالجانب الاقتصادي للمسلمين، تذكر أن عمر شاور أصحاب رسول الله عليهما السلام في سواد الكوفة، فقال لهم: تقسمها بيننا، فشاور علي عليهما السلام، فقال: إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدها شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعلموها، فتكون لنا ولمن بعدها. فقال: وفقك الله! هذا الرأي»^(٢٣).

فلعلي عليهما السلام نظرة بعيدة للأمور، فإن الأرض إذا وزّعت على الموجودين آنذاك، فسوف يتوارثونها، وستحرم منها الأجيال القادمة.

الدور الثالث: الدفاع عن الدين والعقيدة:

بدأ أمير المؤمنين عليه السلام هذا الدور -زمن الخلفاء- بكتابه القرآن الكريم كما أنزل من قبل الله عز وجل، ومع تأويل الآيات كما علمه الرسول عليه السلام، ولكنهم رفضوه، كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام، ففي حادثة أخرج الإمام الصادق عليه السلام المصحف الذي كتبه علي عليه السلام وقال: «أخرجه علي عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله الله على محمد عليه وآله وصحبه قد جمعته من اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترون بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان علي أن أخبركم حين جمعته لتقرؤوه»^(٢٤).

فإخراج علي عليه السلام المصحف لهم مع علمه بأنهم لن يقبلوه هدفه أن يعلم الناس أن التفسير الصحيح للقرآن هو عندي لا عند غيري، وهو بذلك يحافظ على التعاليم القرآنية، ويجعل المسلمين غير مطمئنين لأي مصدر آخر غير أهل البيت عليه السلام الذين عندهم التأويل الصحيح للقرآن الكريم، ويقطع الطريق على كل من يحاول تحريف التعاليم القرآنية، والعقيدة الحقة.

وتتالت كثير من الشبهات الدينية والأخطار العقائدية، التي لم يكن أحد يستطيع ردّها إلا من علمه رسول الله عليه وآله وصحبه ألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب، ومصاديق ذلك أكثر من أن تحصى.

أسئلة اليهودي:

فقد ورد أن بعض أحبّار اليهود جاء إلى أبي بكر فقال: أنت خليفة نبي هذه الأمة؟ فقال له: نعم، فقال: فإننا نجد في التوراة أن خلفاء الأنبياء أعلم أنفسهم، فخربني

عن الله تعالى أين هو في السماء أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر: في السماء على العرش، فقال اليهودي: فأرى الأرض خالية منه، وأراه على هذا القول في مكان دون مكان. فقال أبو بكر: هذا كلام الزنادقة، اغرب عني وإلا قتلتكم، فولى الخبر متعجبًا يستهزئ بالإسلام، فاستقبله أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: (يا يهودي، قد عرفتُ ما سألتَ عنه، وما أجيئتَ به، وإنما نقول: إن الله جل وعز أينَ الأَيْنَ فَلَا أَيْنَ لَه، وجلَّ عن أَنْ يَحْوِيَ مَكَانًا، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بَغْرِيْرِ مَمَاسَةٍ وَلَا مَجَاوِرَةٍ، يَحْيِطُ عِلْمًا بِمَا فِيهَا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ تَدْبِيرِهِ.....)^(٢٥).
فقال اليهودي: أشهد أن هذا هو الحق، وأنك أحق بقامتكم من استولى عليه».

فالتعامل مع الأمور العقائدية بلغة السيف والقوة لا يؤدي إلا إلى وهن الدين وضعفه، ولم يذكر لنا التاريخ أي حادثة عقائدية علمية تعامل فيها أمير المؤمنين عليه السلام بالقوة، بل كان سلاحه دائمًا هو سيف العلم والحكمة.

أبو بكر وأسئلة الجاثليق:

- وفي حادثة أخرى جاء الجاثليق (من علماء النصارى) وقال لأبي بكر: خبرنا - أيها الخليفة - عن فضلكم علينا في الدين، فإننا جئنا نسأل عن ذلك؟ فقال أبو بكر: نحن مؤمنون وأنتم كفار، والمؤمن خير من الكافر، والإيمان خير من الكفر. فقال الجاثليق: هذه دعوى تحتاج إلى حجة، فخبرني أنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ فقال أبو بكر: أنا مؤمن عند نفسي، ولا علم لي بما عند الله. قال: فهل أنا كافر عندك على مثل ما أنت مؤمن، أم أنا كافر عند الله؟ فقال: أنت عندي كافر، ولا علم لي بحالك عند الله. فقال الجاثليق: فما أراك إلا شاكاً في نفسك وفيّ، ولستَ على يقين من دينك، فخبرني ألك عند الله منزلة في الجنة بما أنت عليه في الدين تعرفها؟

فقال: لي منزلة في الجنة أعرفها بالوعد، ولا أعلم هل أصل إليها أم لا، فقال له: فترجو أن تكون لي منزلة في الجنة؟ قال: أجل أرجو ذلك. فقال الجاثيلق: فما أراك إلا راجياً لي، وخائفاً على نفسك، فما فضلك عليّ في العلم؟ ثم قال له: أخبرني هل احتويت على جميع علم النبي المبعوث إليك؟ قال: لا ولكن أعلم منه ما قضى لي علم، قال: فكيف صرت خليفة للنبي، وأنت لا تحيط علماً بما تحتاج إليه أمته من علمه، وكيف قدمك قومك على ذلك؟ فقال له عمر: كف -أيها النصراوي- عن هذا العَنَّت وإلا أبُحنا دمك. فقال الجاثيلق: ما هذا عدل على من جاء مسترشداً طالباً.

فقال سلمان رضي الله عنه: فكأنما ألبسنا جلباب المذلة، فنهضت حتى أتيت عليه عليه السلام فأخبرته الخبر، فأقبل -بابي وأمي- حتى جلس والنصراوي يقول: دلّوني على من أسأله عما أحتج إليه، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام سل -يا نصراوي- فوالذي فلق الحبة وبرا النسمة، لا تسألني عمّا مضى ولا ما يكون إلا أخبرتك به عن نبي الهدى محمد عليه السلام، فقال النصراوي: أسألك عمّا سألت عنه هذا الشيخ، خبرّني أمؤمن أنت عند الله، أم عند نفسك؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا مؤمن عند الله كما أنا مؤمن في عقيدتي. فقال الجاثيلق: الله أكبر هذا كلام وثيق بيديه، متحقق فيه بصحّة يقينه، فخبرني الآن عن منزلتك في الجنة ما هي؟ فقال عليه السلام: منزلتي مع النبي الأمي في الفردوس الأعلى، لا أرتات بذلك، ولا أشك في الوعد به من ربِّي. فقال النصراوي: فبماذا عرفت الوعد لك بالمنزلة التي ذكرتها؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: بالكتاب المنزل وصدق النبي المرسل.....، إلى أن قال الجاثيلق لعلي عليه السلام (والحديث طويل وشيق): صدقت والله الذي بعث المسيح، وما اطلع على ما أخبرتني به إلا الله تعالى، وأناأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك وصي رسول الله، وأحق الناس بعقامته. وأسلم الذين كانوا معه بإسلامه وقالوا: نرجع إلى صاحبنا، فنخبره بما

وجدنا عليه هذا الامر وندعوه إلى الحق»^(٢).

ففي الواقعتين نرى أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ هو حصن الإسلام المنيع، والمدافع عن العقيدة، ولو أنه لم يتصد لتلك الشبهات لأصبح الإسلام ضعيفاً ذليلاً أمام اليهود والنصارى.

تصدى على عَلَيْهِ الْكَلَمُ لشبهات اليهود والنصارى:

وقد كان اليهود والنصارى يتربصون بالإسلام سوءاً، خصوصاً بعد رحيل النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ، فقد روى أنه جاء يهودي لأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ وقال مستشكلاً: «ما دفنتمنبيكم حتى اختلفتم فيه» فقال عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «إذا اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفّت أقدامكم من البحر حتى قلتم لنبيكم، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلة، قال إنكم قوم تجهلون»^(٢٧).

فهدف اليهودي هو إدخال الشك في قلوب المسلمين، فتصدى له أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ بما يرفع تلك الشبهة، وبين أن اختلاف المسلمين ليس حول النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ، وإنما هو تخلف عنه وعن تعاليمه، ولكن اليهود قد كفروا بموسى عَلَيْهِ الْكَلَمُ وهو لا زال بين ظهاريه.

ونرى هنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ لم يتطرق ولم يهتم بالحديث عمن اختلفوا، لأن الظرف كان يقتضي الدفاع عن الدين، وليس الهجوم على المخالفين، وإن كان في كلامه عَلَيْهِ الْكَلَمُ تعريضاً للمخالفين بقوله: «إذا اختلفنا عنه».

وكان على عَلَيْهِ الْكَلَمُ هو المرجع الذي يلوذ به المسلمون في كل معضلة تدهشهم، أو مسألة تعجزهم، فلذلك نرى حتى الخلفاء يرجعون إليه، لعلمه بقامته العلمي الرفيع

و درجته من رسول الله ﷺ، و اطمئن لهم بقدرته على حل أي مشكلة، والشاهد من أراد التتبع كثيرة جداً، وفي قضايا عدة، فمثلاً يأتي يهودي إلى عمر بن الخطاب ويقول له: «يا أمير المؤمنين إني رجل من اليهود وأنا علامتهم، وقد أردت أن أسألك عن مسائل إن أجبتني فيها أسلمت قال: ما هي؟ قال: ثلاثة وثلاثة وواحدة، فإن شئت سألك وإن كان في القوم أحد أعلم منك فأرشدني إليه»، فيا ترى هل أجابة عمر بنفسه، أم أرسل إليه أحد المقربين له؟ ونحن نعرف أن إسلام شخص على يدي أحد شرف عظيم، ودليل على منزلته، خصوصاً إذا كان الشخص الداخل في الإسلام عالماً.

لم يتعدد عمر في أن قال لليهودي: «عليك بذلك الشاب يعني علي بن أبي طالب عليهما السلام فأنتي علياً عليهما السلام فسأل له: لم قلت ثلاثة وثلاثة وواحدة ألا قلت: سبعاً، قال: إني إذاً لجاهل إن لم تجبنني في الثلاث اكتفيت قال: فإن أجبتك تسلم؟ قال: نعم، قال: سل..... وفي كل جواب يجيبه علي عليهما السلام يقول اليهودي: صدقت والله إنه لبخط هارون وإملاء موسى»^(٢٨).

وفي حديث آخر مشابه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: « جاء يهودي إلى عمر يسأل عنه مسائل فأرشده إلى علي عليه السلام ليسأسله، فقال له علي عليه السلام: سل. قال: أخبرني، كم بعد نبيكم من إمام عادل؟ وفي أي جنة هو؟ ومن يسكن معه في جنته؟ فقال له علي عليه السلام: يا هاروني ! لحمد الله عليه وآله وسنه بعده اثنا عشر إماماً عدلاً، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ولا يستوحشون بخلاف من خالفهم، أثبتت في دين الله من المجال الرواسي. ومنزل محمد عليه وآله وسنه جنة عدن، والذين يسكنون معه هؤلاء الإثنا عشر. فأسلم الرجل وقال: أنت أولى بهذا المجلس من هذا، أنت الذي تفوق ولا تتفاق،

وتعلو ولا تعلى»^(٢٩).

فالخلفاء كانوا محرجين جداً من أسئلة اليهود والنصارى، خصوصاً العلماء منهم الذين قرؤوا التوراة والإنجيل والكتب السماوية الأخرى، وكان الخلفاء في كثير من الأحيان قبل أن يستمعوا إلى الأسئلة، يرشدون السائلين إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ، لأنهم في مرات عدّة يقعون في المحرج عندما يتصدّون للجواب كما مرّ في بعض الروايات.

ونعرف أن عدم وجود أحد يتصدّى لأسئلة الناس -مع وجود كثير من السائلين الذين يريدون التحقق من حقانية الإسلام، وبعضهم للتشكيك في الإسلام- يؤثر ليس فقط على السائلين ونفورهم من الدين الحنيف، بل حتى على المسلمين مع كثرة الأسئلة والاستفسارات التي تحتاج إلى جواب شافٍ ووافٍ ومقنع، وما تقدم شاهد على ذلك، ولا يوجد من يصلح لذلك إلا أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ بشهادة الجميع، ففي مناشدة له عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ مع عبد الله بن عمر (في حديث طويل وقد تفاخر جماعةً من قريش) قال عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ: «أنشدك بالله ما قال لك (عمر) حين خرجنَا»، فقال عبد الله: «أما إذا ناشدتني فإنه قال: إن بايعوا أصلع بنى هاشم حملهم على الحجّة البيضاء وأقامهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم»^(٣٠).

دفاع عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ عن مقامات النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ :

الميّز للMuslimين عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى هو الإيمان برسالة النبي الأعظم عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ، فإذا خدشت هذه العقيدة فقد خدش الإسلام، ولذلك أشكّل أحد يهود الشام على مقامات النبي الأعظم عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ إدخالاً للشك في نفوس المسلمين، ولم يكن ليتصدّى أحد له إلا وارت النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ كما ورد في الخبر عن الإمام الحسين

بن علي عليهما السلام أنه قال: إن يهودياً من يهود الشام وأخبارهم كان قد قرأ التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء عليهما السلام وعرف دلائلهم، جاء إلى مجلس فيه أصحاب رسول الله عليهما السلام وفيهم علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبو سعيد الجعفري. فقال: يا أمّة محمد ما ترకتم لنبي درجة، ولا لمرسل فضيلة، إلا أخلتموها نبيّكم، فهل تجنيوني عمّا أسألكم عنه؟ فكاع القوم عنه (أي هابوه وجبنوا أن يجنيوه). فقال علي بن أبي طالب عليهما السلام: نعم ما أعطى الله نبيّاً درجة، ولا مرسلاً فضيلة إلا وقد جمعها محمد عليهما السلام وزاد محمدًا على الأنبياء أضعافاً مضاعفة. فقال له اليهودي: فهل أنت مجبي؟ قال له: نعم سأذكر لك اليوم من فضائل رسول الله عليهما السلام ما يقرّ الله به عين المؤمنين، ويكون فيه إزالة لشك الشاكين في فضائله عليهما السلام، إنه كان إذا ذكر لنفسه فضيلة قال: «ولا فخر» وأنا أذكر لك فضائله غير مزدوج بالأنبياء، ولا منتفص لهم، ولكن شكرًا لله على ما أعطى محمدًا عليهما السلام مثل ما أعطاهم، وما زاده الله وما فضلهم عليهم^(٣١). وفي نهاية الحديث (وهو طويل جداً) قال له اليهودي: «فإنيأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأشهد أنه ما أعطى الله نبيّاً درجة ولا مرسلاً فضيلة إلا وقد جمعها محمد عليهما السلام وزاد محمدًا على الأنبياء أضعاف درجات». وكل هذا يدل على نظرية الإمامية الإلهية المتقدمة، فلو تخيلنا حال المسلمين (وهم قريبوا عهد بالإسلام) من دون وجود علي عليهما السلام، وما قام به من أدوار عدّة، لتبيان لنا ما هي المصيبة التي ستتحلّ بهم، والتخبّطات التي سيقعون فيها.

الدور الرابع: دوره عليهما السلام في الجانب الفقهي وتطبيق الحدود:

الفقه وتطبيق الشريعة هو المظهر الأساسي للدين، ولا دين إلا بشريعة متبعة، ملتزم بها، ولكن تطبيق الشريعة يحتاج إلى عالم يحمل علم رسول الله عليهما السلام، ومن

هم في موقع القرار آنذاك لا يمتلكون ذلك العلم، فلا ملجأ لهم إلا بباب مدينة علم
النبي ﷺ.

وهم وإن كانوا قد خالفوه في موارد كثيرة مع علمهم بصوابية رأيه، إلا أنهم التجأوا إليه وقت الميرة كما ذكر لنا التاريخ الصحيح، فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: قضى أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ بقضية ما قضى بها أحد كان قبله. وكان أول قضية قضى بها بعد رسول الله ﷺ، وذلك لما أفضى الأمر إلى أبي بكر أتى برجل قد شرب حمراً، فقال له أبو بكر: أشربت الحمر؟ فقال الرجل: نعم، فقال: ولم شربتها وهي حرام؟ فقال: إني أسلمت ومتزلي بين ظهرياني قوم يشربون الحمر ويستحلّونها، ولم أعلم أنها حرام فأجتنبها. فالتفت أبو بكر إلى عمر، فقال: ما تقول -يا أبو حفص- في أمره؟ فقال عمر: معضلة وأبو حسن لها. فقال أبو بكر: يا غلام، ادع علياً، فقال عمر: بل يؤتي الحكم في منزله، فأتوه في منزله وعنه سلمان، فأخبروه بقصة الرجل، وقص الرجل عليه قصته. فقال علي لأبي بكر: أبعث من يدور معه على مجالس المهاجرين والأنصار، فمن كان تلا عليه آية التحرير فليشهد عليه، وإن لم يكن أحد تلا عليه آية التحرير فلا شيء عليه، ففعل أبو بكر بالرجل ما قال علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ فلم يشهد عليه أحد، فخلّى سبيله، ثم قرئت عليه آية التحرير، فقال سلمان لعلي عَلَيْهِ الْكَلَمُ: أرشدتهم، فقال: إنما أردت أن أجدد تأكيد هذه الآية في وفيهم: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٢) (٣٣).

والملفت للنظر هنا قول عمر: (معضلة وأبو حسن لها)، والرواية تقول أن هذه أول قضية يقضي فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ بعد رحيل المصطفى ﷺ، مما يعني أنهم لم

يجرّبوا أمير المؤمنين عليه السلام في قضايا كثيرة، فكيف عرفوا منزلته العلمية فالتجأوا إليه؟ فليس ذلك إلا لإخبار الرسول عليه السلام في حياته أن علياً هو الملجأ من بعده وحامل علمه، والروايات في ذلك كثيرة.

النبي عليه السلام يمتحن علياً عليه السلام وأبا بكر وعمر في القضاء:

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «أن ثوراً قتل حماراً على عهد النبي عليه السلام فرفع ذلك إليه وهو في أناس من أصحابه منهم أبو بكر وعمر فقال: يا أبا بكر اقض بينهم فقال: يا رسول الله بهيمة قتلت بهيمة ما عليها شيء فقال: يا عمر اقض بينهم، فقال مثل قول أبي بكر فقال: يا علي اقض بينهم فقال: نعم يا رسول الله فإن كان الثور دخل على الحمار في مستراحه ضمن أصحاب الثور، وإن كان الحمار دخل على الثور في مستراحه فلا ضمان عليهم، قال: فرفع رسول الله عليه السلام يده إلى السماء فقال: الحمد لله الذي جعل مني من يقضي بقضاء النبيين عليهما السلام»^(٣٤).

فهدف الرسول عليه السلام هو إعلام القوم بنزولة علي عليه السلام، وليس هذه هي المرة الوحيدة، وهو الذي يقول: (علي أفضاكم).

وعلى كل حال، فالموارد التي قضى فيها أمير المؤمنين عليه السلام وبين الحكم الشرعي الصحيح في عهد الخلفاء كثيرة جداً، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن عقبة بن أبي عقبة مات فحضر جنازته علي عليه السلام وجماعة من أصحابه وفيهم عمر، فقال علي عليه السلام لرجل كان حاضراً: إن عقبة لما توفي حرمت امرأتك، فاحذر أن تقربها، فقال عمر: كل قضاياك يا أبا الحسن عجيبة وهذه من أعجبها، يموت الإنسان فتحرم على آخر امرأته! فقال: نعم إن هذا عبد كان لعقبة، تزوج امرأة حرة، وهي اليوم ترث بعض ميراث عقبة، فقد صار بعض زوجها رقاً لها، وبعض

المرأة حرام على عبدها حتى تعنقه و يتزوجها، فقال عمر: مثل هذا نسألك عما اختلفنا فيه»^(٣٥).

وتكتفي الموارد التي قال فيها عمر: (لولا علي هلك عمر)، فهي بالعشرات، نعرض عن ذكرها خوف الإطالة.

شدة علي عليه السلام في تنفيذ الحدود:

وكان علي عليه السلام شديداً فيما يتعلق بتطبيق الأحكام والحدود، ففي كل ظرف يراه مناسباً يتصدى لمن يتهاون بذلك، فمن ذلك ما ذكره الشيخ المفيد^(٣٦) (عن العامة والخاصة في قصة قدامة بن مظعون وقد شرب الخمر فأراد عمر أن يحده، فقال له قدامة: إنه لا يجب علي الحد، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا أَتَقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَتَقَوْا وَآمَنُوا﴾^(٣٦) فدرأ عمر عنه الحد، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فمشى إلى عمر فقال له: «لم تركت إقامة الحد على قدامة في شربه الخمر؟» فقال له: إنه تلا على الآية، وتلاها عمر على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس قدامة من أهل هذه الآية، ولا من سلك سبيله في ارتكاب ما حرم الله تعالى، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يستحلون حراماً، فاردد قدامة واستتبه مما قال، فإن تاب فأقم عليه الحد، وإن لم يتتب فاقتله فقد خرج عن الملة» فاستيقظ عمر لذلك، وعرف قدامة الخبر، فأظهر التوبة والإفلاع، فدرأ عمر عنه القتل، ولم يدر كيف يحده. فقال لأمير المؤمنين: أشر علي في حده، فقال: «حده ثمانين، إن شارب الخمر إذا شربها سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى»، فجلده عمر ثمانين وصار إلى قوله في ذلك^(٣٧).

فترك الحد على مستحقه بادرة خطيرة، جعلت أمير المؤمنين عليه السلام يسعى بنفسه إلى عمر، ويسأله عن حجته في ترك الحد، ونرى شدته عليه في أمره بقتل قدامة فيما إذا أنكر وجوب الحد، لأنه من إنكار الضرورة.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض مواضعه لعمر كما في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاث إن حفظهن وعملت بهن كفتاك ما سواهن، وإن تركتهن لم ينفعك شيء سواهن، قال: وما هن يا أبا الحسن؟ قال: إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود فقال له عمر: لعمري لقد أوجزت وأبلغت»^(٣٨).

فإقامة الحدود الشرعية في غاية الأهمية، وبدونها تنتشر الفاحشة ويعمر الفساد في الأرض، كما هو الحال في زماننا.

على عليه السلام يجدد الوليد بن عقبة أمام عثمان:

وفي قصة الوليد ابن عقبة جرى من علي عليه السلام ما هو أشد مما تقدم، فحينما شهد على الوليد بشرب الخمر وكان علي عثمان على الكوفة، فأتى جماعة من شهدوا ذلك إلى عثمان بن عفان فشهدوا عنده أن الوليد يشرب الخمر، فقال عثمان: وما يدركم أنه شرب خمر؟ فقالوا: هي المخمرة التي كنا نشرب في الجاهلية، وأخرجها خاتمه فدفعاه إليه فزبرهما، ودفع في صدورهما، وقال: تنحيا عنِّي!. فخرجا وأتيا علي بن أبي طالب عليه السلام فأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول: «دفعت الشهود وأبطلت الحدود!». فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك، فإن أقاموا الشهادة عليه في وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهم فأقاموا الشهادة عليه ولم يدل بحجة، فألقى عثمان السوط إلى

عليه عليه عليه، فلما نظر علي عليه عليه إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرباته منه، أخذ علي السوط ودنا منه.....، فأقبل الوليد يروغ من عليه عليه فاجتذبه وضرب به الأرض وعلاه بالسوط، فقال له عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا؟ قال: بلى وشر من هذا، إذا فسق ومنع حق الله.....»^(٣٩).

وما كان الوليد أخاً لعثمان لأمه ما كان أحد يتجرأ أن يجلده أمام عثمان إلا عليه عليه، وفي هذه الواقعة دلالات عدة وأسئلة مهمة، منها أنه لماذا يخشى الصحابة من إقامة الحد؟ ألم يكن حكماً شرعياً واجب التنفيذ؟ وهل القرابة من الخليفة تمنع من ذلك؟؟ نترك الجواب لأهل الضمائر والعقول.

وبنفس الشدة التي يتعامل بها عليه عليه في تطبيق الحدود تعامل بها لدرء الحدود عن البريء والمشتبه به، كما هو الحال في كثير من الموارد التي قال فيها عمر: «لولا علي هلك عمر»، ومنها ما وقع في زمن عثمان فإنه روي: «أنه أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم برجمها، فقال أمير المؤمنين عليه عليه: إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله تعالى يقول: ﴿وَ حَمْلُهُ وَ فَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٤٠)، ثم قال: ﴿وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أُولَادَهُنَّ حَوَلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتَمَ الرَّضَاعَة﴾^(٤١)، فحولان مدة الرضاع وستة أشهر مدة الحمل، فقال عثمان: ردوها^(٤٢).

الدور الخامس: رد البدع عن الدين:

لقد تغيرت سنة النبي عليه عليه قبل أن يستلم أمير المؤمنين عليه عليه الخلافة الظاهرية، وأصبحت ستة الخلفاء مقدمة على سنة النبي عليه عليه كما في كثير من النصوص التاريخية، وقد ذكر البخاري عن أنس بن مالك أنه قال: «ما أعرف شيئاً مما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، قيل: الصلاة، قال: أليس ضيعتم ما ضيّعتم

فيها»^(٤٣).

وروى أيضاً عن الزهري أنه قال: «دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك فقال لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيّعت»^(٤٤).

وفي رواية ثالثة عن أم الدرداء أنها قالت: «دخل علي أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: ما أغضبك، فقال: والله ما أعرف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا أنهم يصلون جمِيعاً»^(٤٥).

فهذه الروايات الثلاث وغيرها، تدل على الحالة التي وصلت إليها الأمة الإسلامية من الإنحراف والضياع وتغيير الأحكام إلى درجة أن الصلاة التي كان يصلّيها النبي ﷺ أمام المسلمين خمس مرات في اليوم وطوال سنوات عدة قد تغيّرت أيضاً، والسبب هو إبعاد علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الخلافة، وتصرّفُ غيره بدين الله ﷺ كما يتصرّف الإنسان بأملاكه الخاصة.

بعض مواقف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تجاه البدع:

ولم يكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قادراً على الوقوف بوجه هذه التجاوزات إلا في نطاق محدود، وفي فرص قليلة، لأن رأي من بيده القرار كان هو المطبق وإن اعترض عليه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهناك بعض المواقف التي سجلها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتراضاً على بعض التغييرات للأحكام الشرعية، منها ما روي أنه: «توضاً رجل، فمسح على خفيه، فدخل المسجد يصلّي فجاء علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فوطئ على رقبته وقال: ويلك! تصلي على غير وضوء، فقال: أمرني عمر بن الخطاب، قال: فأخذ به فانتهى به إلى فلان: انظر

ما يروي هذا عليك - ورفع صوته - فقال: نعم أنا أمرته، إن رسول الله ﷺ مسح على خفيه فقال: قبل المائدة أو بعدها؟ قال: لا أدرى، قال: فلم تفتي وأنت لا تدري؟! سبق الكتاب الخفين»^(٤).

فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تعامل مع المسألة بحزم، ورفع صوته أمام الخليفة واعتراض عليه ليبيّن خطورة المسألة، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ للمصلي: «ويلك، تصلي على غير وضوء»، إشارة إلى أن الوضوء على المخ بحكم عدم الوضوء، فهو ترك للصلوة، فتغير حكم معين يستتبع أموراً كثيرةً.

وموقف آخر لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يتعلق بمعية الحج التي حرّمها عمر بعد فترة من خلافته، وكان عثمان ينهى عنها أيضاً، كما رواه مسلم وابن حنبل أنه: «كان عثمان ينهى عن المتعة وعلى عَلَيْهِ السَّلَامُ يأمر بها، فقال عثمان لعلي قولاً، ثم قال علي: لقد علمتَ أنا قد تمعنا مع رسول الله ﷺ، قال أجل، ولكننا كنا خائفين»^(٤٧).

وفي لفظ آخر للبخاري ومسلم أنه: «اجتمع علي وعثمان بعسفان فكان عثمان ينهى عن المتعة أو العمرة فقال علي: ما ترید إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه، فقال عثمان دعنا منك، فقال إني لا أستطيع أن أدعوك، فلماً أن رأى علي ذلك أهل بهما جميعاً»^(٤٨).

وفي رواية ثالثة عن مروان بن الحكم لـعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «شهدتُ علياً وعثمان بين مكة والمدينة وعثمان ينهى عن المتعة وأن يُجمع بينهما، فلماً رأى ذلك علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أهل بهما فقال: ليك بعمره وحج معـاً، فقال عثمان: تراني أنهى الناس عنه وأنت تفعله، قال: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس»^(٤٩).

فنرى الشدة التي تعامل بها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مع عثمان -خصوصاً في الرواية الثانية

التي يقول فيها لعثمان: «إني لا أستطيع أن أدعك» - لأن تحرير الحلال كتحليل الحرام في المفسدة والضرر، وفي كونه تشريعاً وابتداعاً في الدين.

وهذه المواقف من علي عليه السلام مع شدتها لم تؤثر إلا في نطاق محدود لأن القرار الرسمي ليس بيده عليه السلام.

سنة النبي عليه وآله تؤخذ من علي عليه السلام:

وفي قضية أخرى فيها إشارة من علي عليه السلام إلى أن السنة الصحيحة هي عند أهل البيت عليهما السلام، فالعمل على خلاف عملهم هو ابتداع في الدين، لأن سنتهم هي نفسها سنة النبي عليه وآله، فقد روى العياشي في تفسيره عن الإمامين الصادقين عليهما السلام قالا: «حجّ عمر أول سنة حج وهو خليفة، فحج تلك السنة المهاجرة وإنما قالوا: «حجّ عمر أول سنة حج وهو خليفة، فحج تلك السنة بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، والأنصار وكان علي عليه السلام قد حج تلك السنة بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، قال: فلما أحرم عبد الله لبس إزاراً ورداءً مشقين مصبوغين بطين المشق، ثم أتى فنظر إليه عمر وهو يلبس إزاراً ورداءً وهو يسير إلى جنب علي عليه السلام، فقال عمر من خلفهم: ما هذه البدعة التي في الحرم؟ فالتفت إليه علي عليه السلام، فقال: يا عمر لا ينبغي لأحد أن يعلمـناـ السـنةـ، فقال عمر: صـدـقـتـ ياـ أـباـ الـحـسـنـ لاـ وـالـلـهـ مـاـ عـلـمـتـ أـنـكـ هـمـ...ـ الـحـدـيـثـ (٥٠ـ).

فإن علي عليه السلام لم يستدل بدليل على فعل عبد الله بن جعفر، بل أجاب عمر بقوله: «يا عمر لا ينبغي لأحد أن يعلمـناـ السـنةـ»، فـكـمـاـ لـاـ يـعـتـرـضـ علىـ الرـسـوـلـ الـأـكـرـمـ صـلـاـتـهـ وـالـهـ فـيـمـاـ يـصـدـرـ مـنـ عـلـيـ عـلـيـهـ سـلـامـ،ـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ الـعـمـلـ عـلـىـ خـلـافـ فـعـلـ عـلـيـ عـلـيـهـ سـلـامـ يـعـنـيـ مـخـالـفـةـ صـرـيـحـةـ لـلـنـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـهـذـهـ رـسـالـةـ بـلـيـغـةـ لـلـمـسـلـمـيـنـ،ـ وـقـدـ اـعـتـرـفـ عـمـرـ بـصـوـابـيـةـ رـأـيـ عـلـيـ عـلـيـهـ سـلـامـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـطـلـبـ

دليلًا على ذلك.

ملاحظة:

وفي الختام نقول، إنَّ ما ذكرناه لا يمثل إلا جزءاً من الأدوار التي قام بها أمير المؤمنين عليه السلام زمن الخلفاء، ولم تستوف البحث في كل دورٍ ذكرناه، لقلة الباع، ولو أراد المتخصص أن يجمع كلَّ ما ذكر عن علي عليه السلام لأحتاج إلى مجلدات ضخمة.

ثم إنَّ التاريخ لم ينصف علي عليه السلام ولم يعطه حقه، وقد حاول أعداؤه عبر التاريخ إخفاء تاريخه الناصح وال مليء بالدروس وال عبر، وكما حكي عن كل من الخليل بن أحمد الفراهيدي والشافعي قولهما عندما سئلا عن علي عليه السلام، فقال الخليل: «ما أقول في حق امرئ كتمت مناقبه أولياؤه خوفاً، وأعداؤه حسداً، ثم ظهر ما بين الكتمين ما ملأ الحافظين»^(٥١)، وقال الشافعي: ما أقول في حق من أخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفت أعداؤه فضائله حسداً، وشاع من بين ذين ما ملأ الحافظين»^(٥٢).

مما يعني أن ما وصلنا من تاريخ علي عليه السلام ما هو إلا نذر قليل من تاريخه المبارك، وسيرته المقدسة، وعطائه الكبير، ثبتتنا الله على ولايته عليه السلام، ورزقنا شفاعته، وسقانا من حوضه وبكته ربياً روياً لا نظماً بعده أبداً، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

المواهش:

(١) الكافي ج ١، ص ٢٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٢٨٠، وكنز العمال، ج ١١، ص ٦٣٠، وشواهد التنزيل للحسكاني، ج ١، ص ٨٤.

- (٣) البحار ج ٣٤، ص ٣٣٩.
- (٤) شرح النهج، ج ١١، ص ١٤.
- (٥) البخاري ج ٥ ص ٨٣.
- (٦) الإحتجاج، ج ١، ص ٨٩.
- (٧) البحار ج ٢٨، ص ٢٥٢.
- (٨) سورة ص، ٢٤.
- (٩) العقد النضيد والدر الفريد - محمد بن الحسن القمي، ص ١٤٤.
- (١٠) خصال الصدوق، ص ٥٤٩.
- (١١) شرح النهج لابن أبي المحدid، ج ١٢، ص ٢١.
- (١٢) الكهف، ٥١.
- (١٣) الروضة في فضائل أمير المؤمنين - لشاذان ابن جبريل القمي، ص ١١٩.
- (١٤) خصال الصدوق، ص ٥٥٥.
- (١٥) علل الشرائع ج ١، ص ١٧١.
- (١٦) الخصال للصدوق، ص ٣٧٥، والإختصاص للمفید، ص ١٧٣.
- (١٧) نهج البلاغة ج ١، ص ٣٤.
- (١٨) البحار ج ٣٨، ص ٢٢٨.
- (١٩) كنز العمال ج ٥، ص ٦٧٠.
- (٢٠) الإرشاد للمفید، ج ١، ص ٢٠٧.
- (٢١) الخصال للصدوق، ص ٣٧٤.
- (٢٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٨.
- (٢٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٢.
- (٢٤) تفسير نور التقلين، ج ٣، ص ١٧٠.
- (٢٥) الإرشاد للمفید، ج ١، ص ٢٠٢.
- (٢٦) أمالی الطوسي، ص ٢١٨-٢٢١.
- (٢٧) أمالی الطوسي، ج ١، ص ١٩٨.

بحث في أحكام الشفاعة عند المحتزلة

(القسم الأول)

سعيد جعفر حماد

معنى الشفاعة:

الشفاعة من الشفع وهو ما كان من العدد أزواجا، على خلاف الوتر، تقول
كان وترًا فشعته بالآخر حتى صار شفاعاً، وفي القرآن: ﴿وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ﴾^(١) والشافع
هو الطالب لغيره، والمعين لغيره^(٢).

والشفع مبالغة من شفع، ومشفع يقبل الشفاعة، ومشفع مقبول الشفاعة، وشفع
الشيء ضم مثله إليه وجعله زوجاً، وتشفع فلان إلى فلان في الأمر، توسل به إليه^(٣).
واستشفع طلب الناصر والشفيع^(٤).

ولربما كان وجه ارتباط المعنى اللغوي بالمعنى المعروف هو أن طلب المشفووع له
أو ما يريده يصبح له مریدان وطلبان اثنان بعد انضمام إرادة الشافع أو طلبه إلى
إرادة أو طلب المشفووع له، بعد أن كان مریده وطالبه مجرد المشفووع له، أو أن الوجه
هو أن ما ينجو به المشفووع له أمران بعد أن كان أمراً واحداً عمله والشفاعة فتكون
للمشووع له وسيلتان بعد أن كانت واحدة فيتقوى بهما على بلوغ ما يريد، والوجه
الثاني هو ما أشار إليه العلامة الطباطبائي حينما قال تعليقاً على التعريف اللغوي:
كأن الشفيع ينظم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعد ما كان
فرداً فيقوى على نيل ما يريد..الخ^(٥).

والشفاعة في الاصطلاح معروفة وهي شفاعة النبي ﷺ والأولياء في الآخرة،
معنى طلبهم المغفرة أو رفع الدرجات من الله تعالى لبعض الناس في الآخرة.

من تكون الشفاعة:

لا يختلف الإمامية والأشاعرة والسلفية في شمول الشفاعة لأهل الكبائر، لكن
المعتزلة منعت من شمولها لهم، وذهب إلى اختصاصها للمطيعين في ارتقاء رتبهم، قال
الشيخ المفيد:

«اتفقت الإمامية على أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيمة لجماعة من
مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين علیه السلام يشفع في أصحاب الذنوب
من شيعته، وأن أئمة آل محمد عليهما السلام يشفعون كذلك ويتجي الله بشفاعتهم
كثيراً من الخاطئين ووافقهم على شفاعة الرسول ﷺ المرجئة سوى ابن
شبيب وجماعة من أصحاب الحديث. وأجمع المعتزلة على خلاف ذلك
وزعمت أن شفاعة رسول الله ﷺ للمطيعين دون العاصين وأنه لا يشفع في
مستحق العقاب من الخلق أجمعين»^(٦).

ومع غض النظر عن أدلة المعتزلة فإنَّ رأيهم في الشفاعة يبني على ما يرون أنه
من أنَّ المُصرَّ على الكبائر يخلد في النار^(٧)، قال ابن حيان الأندلسي: «اعتقد المعتزلة
أنَّ من أتى كبيرة ولم يتوب منها ومات كان خالداً في النار»^(٨)، وفي شرح المقاصد
للتفتازاني حكاية عن غيره: «قد اشتهر من مذهب المعتزلة أنَّ صاحب الكبيرة بدون
التوبة مخلد في النار، وإن عاش على الإيمان والطاعة مائة سنة، ولم يفرقوا بين أن
تكون الكبيرة واحدة أو كثيرة، واقعة قبل الطاعات أو بعدها، أو بينها»^(٩).

والتأبُّ عن الكبيرة يمكن أن تدركه الشفاعة عند المعتزلة بالمعنى المتقدم،

ومورد الخلاف مع المعتزلة هو فرض أن الله سبحانه لا يغفر الذنب الكبير مطلقاً إلا بالتنورة^(١٠)، حتى أن الشفاعة لا تناهه ولربما كان هذا ما يرده الإمام الرضا على المعتزلة فيما رواه الصدوق بسندٍ عن إبراهيم بن عباس قال: كنا في مجلس الرضا عليه السلام فتذكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها: إنها لا تغفر، فقال الرضا عليه السلام: قال أبو عبد الله عليه السلام: قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾^(١١).

أدلة المعتزلة:

أدلة المعتزلة على عدم شمول الشفاعة لأصحاب الكبائر أو ما يصلح أن يكون دليلاً لهم على ذلك بعضها من الآيات وأخرى من الأحاديث وبعضها عقلية.

١- الأدلة العقلية:

قد نبه التفتازاني على أن البصريين من المعتزلة يرون جواز العفو عن الكبيرة مع عدم التوبة عقلاً، ولا يجوزونها سمعاً، وكذا بعض البغداديين^(١٢)، وعلى ذلك لا كلام هنا مع هؤلاء، وإنما الكلام هنا مع المعتزلة من يرى دليل العقل على عدم جواز مغفرة الكبيرة في الآخرة من دون تحقق توبه في الدين من ارتكابها.

الدليل الأول:

ما يظهر من كلام القاضي عبد الجبار، من كون شمول الشفاعة لمرتكب الكبيرة مع عدم توبته إثابة من لا يستحق الثواب، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح، وأن المكلف لا يدخل الجنة تفضلاً^(١٣).

توضيح الدليل: إن إثابة من لا يستحق الثواب بعلمه قبيحة من جهة أنه

يستلزم ظلماً، ودعوى استلزماته للظلم من جهتين:

الأولى: أن رفع العقاب عن المجرم يوم القيمة، بعد ما أثبتته الله تعالى بالوعيد إما أن يكون عدلاً أو ظلماً، فإن كان عدلاً كان جعل العقاب للحكم المستتبع لعدم امثاله العقاب ظلماً أي لا بد وأن يجعله حكماً غير إلزامي، وإن كان ظلماً كانت شفاعة الأنبياء: سؤال للظلم منه وهو جهل من جهة لا يجوز نسبه إلى الأنبياء، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى لا يفعل الظلم لأنه غني عنه^(١٤).

الثانية: التكليف على العباد للجزاء عليه بالثواب للطاعة، وبالعقاب للمعصية، وإثابة العاصي التارك للعمل بالتكليف وإثابة المطيع القائم بالعمل بالتكليف ظلم لمن قام بالعمل بالتكليف، حيث أتى بكلفة بلا موجب.

المناقشة:

ما أفاده العلامة الطباطبائي في جواب المجهة الأولى: من أن رفع العقاب بواسطة الشفاعة إنما يغاير الحكم الأول لو كان رفع الشفاعة نقضاً للحكم الأول أو نقضاً للحكم باستبعان العقوبة، وليس الرفع كذلك، وإنما أثر الشفاعة بالحكومة لا بالمضادة، من غلبة رحمته غضبه، فالشفاعة يخرج المجرم عن كونه مصداقاً لشمول العقاب يجعله مصداقاً لشمول الرحمة، فالشفاعة مستمدّة من رحمة الله وعفوه ومغفرته، ومنها إفضاله للشافع بالإكرام والإعظام^(١٥).

وقال قيئس في توضيح الحكومة:

ونعني بالحكومة أن يخرج مورد الحكم عن كونه مورداً له بإدخاله في مورد حكم آخر، فلا يشمله الحكم الأول، لعدم كونه من مصاديقه، لا أن يشمله فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادة كإبطال الأسباب المضادة في الطبيعة

بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، فحقيقة الشفاعة التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة دون المضادة^(١٦).

وقال أيضاً:

تأثير الشفاعة بنحو الحكومة دون التضاد وهو القائل عز من قائل:

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتِهِمْ﴾^(١٧)، فله تعالى أن يبدل عملاً من عمل كما أن له أن يجعل الموجود من العمل معدوماً، قال تعالى: ﴿وَقَدْمَنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(١٨)، وقال تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١٩)، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ثُكْرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٢٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء﴾^(٢١)، والآية في غير مورد الإيمان^(٢٢) والتوبة قطعاً، فإن الإيمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضاً، كسائر الذنوب وله تكثير القليل من العمل، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرْتَجِين﴾^(٢٣)، وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢٤)، وله سبحانه أن يجعل المعدوم من العمل موجوداً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتَّبَعُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَشْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٢٥)، وهذا هو اللحوق والإلحاق، وبالجملة فله تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. نعم إنما يفعل لمصلحة مقتضية، وعلة متوسطة ولتكن من جملتها شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه والمقربين من عباده من غير جزاف ولا ظلم^(٢٦).

يفهم من كلامه (زيد في مقامه) أن العفو عن بعض المذنبين بالشفاعة ليس نقضاً لحكم من أحکامه، أو رفعاً لمولويته جل شأنه، بل إنما هو زيادة في عفوه ورحمته

ولحقهما هؤلاء المذنبين بتوسط شفاعة الشافعيين بتنزيلهم منزلة غير المستوجبين لعقابه، وإكراما لأوليائه الشافعيين لهم.

ثم إن الشفاعة ليست جزافاً بل لها شروط وحدود مرضية لله تعالى تستوجب حصولها، كما أن للتوبة شرطاً مرضية لله تعالى، والشفاعة نوع من الثواب للشافعيين، وتعریف لمنزلة الأولياء الجھولین والمظلومین والمغصوبین حقهم في الدنيا.

وامتثال الأوامر الإلهية في الدنيا حق الله جل وعلا، والعاصي متعدى على حق طاعته، ولا يرى العقل قبحاً في صفح صاحب الحق عن من ضيع بعض حقوقه ولا سيما مصلحة وحكمة.

الدليل الثاني:

وهو للبلخي وأتباعه قالوا: بأن العفو عن مرتكب الكبائر إغراء على القبيح، لأن المكلف يتکل على العفو ويرتكب القبائح وهذا قبيح يمتنع إسناده إلى الله تعالى^(٢٧).

المناقشة:

وهي ما يستفاد من كلام العالمة الطباطبائي من أن وعد الشفاعة أو تبليغها يستلزم التجري على العاصي بشرطين:

الأول: تعيينُ الجرم بنفسه ونعته، أو تعيين الذنب الذي تقع فيه الشفاعة تعيناً لا يقع فيه ليس بنحو الإيجاز من غير تعليق بشرط جائز.

الثاني: تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته بأن تقلعه من أصله قلعاً.

فلو قيل: إن الطائفة الفلانية من الناس أو كل الناس لا يعاقبون على ما أجرموا

ولا يؤخذون فيما أذبوا أبداً، أو قيل إنَّ الذنب الفلاني لا عذاب عليه أصلاً، كان ذلك باطلأ من القول ولعبا بالأحكام والتكليفات المتوجهة إلى المكلفين، وأما إذا أُبِّهِمْ الأمر من حيث الشرطين، فلم يعين أن الشفاعة في أي الذنوب، وفي حق أي المذنبين، أو أنَّ العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الأوقات والأحوال، فلا تعلم نفس هل تنال الشفاعة الموعودة أو لا، فلا تتجزَّر على هتك محارم الله تعالى^(٢٨).

فالإغراء على ارتكاب المعاصي إنما يكن أن يحصل فيما إذا لم تكن هناك شروط للشفاعة لها حدود، ومع عدم العلم بارتفاع تبعات الكبائر لا يتحقق الإغراء.

الدليل الثالث:

لا خلاف بين المسلمين في رجحان الدعاء لنيل الشفاعة والفوز بها، وفي أنه دعاء يرَّغب اللهُ فيه العباد، فنطلب من الله التوفيق لنيل شفاعة النبي ﷺ فيستحب طلب الشفاعة لكل المسلمين، وإذا كانت الشفاعة مشروطة بعمل خاص ومتوقفة عليه لاستحب للMuslimين الإتيان به ولو من جهة إحراز المقدمة العلمية، فلو كانت الشفاعة مختصة لأهل الكبائر ومتوقفة على ارتكاب الكبائر للزم عقلا من هذا الدعاء الطلب من الله بأن يجعلنا فساقاً وعاصين له، وهو خلف ما يريد الله منا حيث أنه يريد منا طاعته، قال القاضي عبد الجبار:

«أليس أنَّ الأمة اتفقت على قولهم، اللهم اجعلنا من أهل الشفاعة فلو كان الأمر على ما ذكرتوه لكان يجب هذا الدعاء دعاء لأن يجعلهم الله فساقاً وذلك خلف»^(٢٩).

المناقشة:

لا تأتي هذه المناقشة بناءً على من يرى بأنَّ الشفاعة أعم من زيادة المنافع ودفع المضار، كما عليه غالب الأشعار^(٣٠)، قال الفخر الرازي:
«إنَّ عندنا تأثير الشفاعة في جلب أمر مطلوب وأعني به القدر المشترك بين جلب المنافع الزائدة على قدر الاستحقاق ودفع المضار المستحقة على العاصي، وذلك القدر المشترك لا يتوقف على كون العبد عاصيًّا فاندفع السؤال»^(٣١).

وأما بناءً على أنَّ الشفاعة تختص بالذنبين أعم من الصغار والكبار كما يظهر ذلك من الشيخ المفيد^(٣٢)، والشيخ الصدوق^(٣٣)، ونصر الدين الطوسي، والعلامة الحلي^(٣٤).

فيتمكن الجواب بأنَّ المكلف معرض للمعصية في حياته وإنما طلب الشفاعة على فرض وقوع المعصية منه طلباً لتلافيتها، أو أنه قد يقع العبد في المعصية وهو لا يعلم بها ولكن يستحق المؤاخذة من جهة تقصيره في التعلم والسؤال حيث كان قادراً عليه، فلا يلزم من عدم العلم بالمعصية عدم استحباب طلب الشفاعة.

على أن هناك شفاعة أخرى خاصة للنبي محمد ﷺ يحتاجها الأولون والآخرون شفاعة عامة للجميع، وحملَ العلامة الطباطبائي المقام المحمود للنبي ﷺ عليها^(٣٥).

٢- الأدلة السمعية:

أولاً- الآيات: ((الآية الأولى)):

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعةٌ﴾

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ^(٣٦).

قال الفخر الرازي: استدل المعتزلة ^(٣٧) بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبار بثلاثة وجوه ^(٣٨).

الوجه الأول: ما يظهر من صدر الآية الكريمة: **﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾** فإن يوم القيمة لا تؤثر نفس في إسقاط عقاب عن نفس بأن تقضي عنها حقاً أخلت به، إذ أن سياق الآية يفيد عدم الانتفاع بنفس أخرى في دفع العقاب والجزاء به، ولو كانت الشفاعة مقبولة للعصاة لأجزت نفس عن نفس، وهو على خلاف الآية الكريمة ^(٣٩).

الوجه الثاني: الجملة في قوله تعالى: **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾** نكرة في سياق النفي، فتعم جميع أنواع الشفاعة لرفع العقاب.

الوجه الثالث: ما جاء في آخر الآية الكريمة: **﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾** ولو كان النبي ﷺ أو الأولياء شفعاء للعصاة لكانوا ناصرين لهم وهو ما تنفيه الآية بإطلاقها ^(٤٠).

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي في تقريره الاستدلال بالآية:
«الآية تدل على أن من استحق العقاب لا يشفع النبي ﷺ له، ولا ينصره، لأن الآية وردت في صفة اليوم ولا تخصيص فيها، فلا يمكن صرفها إلى الكفار دون أهل الثواب، وهي واردة في من يستحق العذاب في ذلك اليوم، لأن هذا الخطاب لا يليق إلا بهم، فليس لأحد أن يطعن على ما قلناه بأن يمنع الشفاعة للمؤمنين أيضاً، ولو كان النبي ﷺ يشفع لهم لكان قد أغنى عنهم وأجزى، فكان لا يصح أن يقول: **﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ**

شيئاً》 ولما صح أن يقول: ﴿... ولا يُقبلُ مِنْهَا شَفَاعةُ...﴾ وقد قبلت شفاعته فيهم، ولما صح أن يقول ﴿ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، لأن قبول الشفاعة وإسقاط العذاب أعظم من كل فداء قد استحقوه... ولما صح أن يقول: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وأعظم نصرة تخلصهم من العذاب الدائم بالشفاعة، فالآية دالة على ما نقول من جميع هذه الوجوه»^(٤١).

مناقشة الاستدلال:

المناقشة الأولى: حاصلها أنَّ الآية الكريمة ليست في مورد المسلمين حتى يستدل بنفيها للشفاعة عن المسلمين، بل نزلت في أهل الكتاب حيث كان اليهود يزعمون بأنَّ آبائهم الأنبياء والأولياء سوف يشفعون لهم، فنزلت الآية الكريمة لأجل أن تدخل في قلوبهم اليأس من نيل الشفاعة بسبب كفرهم بالنبي ﷺ^(٤٢).

وقال الشيخ الطبرسي:

«قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنَّهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء، وآباؤنا يشفعون لنا. فرأيهم الله عن ذلك، فخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص»^(٤٣).

ويidel على أنها نازلة في اليهود سياق الآية، حيث أن الآية التي قبلها مباشرة هي قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

جواب المناقشة:

ينقله الرazi عن المعتزلة، ومحصله بأن الآية وإن كانت في مورد الكفار، إلا أن

سبب نزولها لا يعني اختصاصها بهم ما دام لفظها مطلق أو عام، فالمدار على إطلاق اللفظ، وبه يثبت عدم شمول الشفاعة لمرتكب الكبيرة^(٤٤).

وقد ثبت في محله بأن المورد لا يختص الوارد، وكذلك مورد النزول لا يختص الآية به إذا كانت الآية لها لسان مطلق ولم تقم قرينة على إرادة المخصوص، فلذا يبدوا بأن هذه المناقشة مبتورة، وسوف تُكمل في مناقشات آتية.

المناقشة الثانية: تقول بأن الآية الكريمة خاصة بالكافار لا خصوص اليهود، لكن الوجه ليس لكون مورد نزولها اليهود بل لوجه آخر، وقد نقل الشيخ القول باختصاص الآية الكريمة باليهود في تفسيره بعد أن عيّن أنها في مطلق الكفار^(٤٥). وأما الوجه الذي اختاره الشيخ في تفسيره في اختصاص الشفاعة في الآية الكريمة بالكافار على ما يظهر من كلامه فهو يتمثل في أمرين:

الأول: أن حقيقة الشفاعة إنما هي في إسقاط المضار، وأما في زيادة المنفعة فلا تصدق الشفاعة ولا يتحقق عنوانها، لأنها لو صدقت الشفاعة في زيادة المنفعة لصح لكل أحد منا أن يشفع في النبي ﷺ إذا سأله الله أن يزيد في كرامته، وهو على خلاف الإجماع.

الثاني: إن الشفاعة لدفع العقاب عن المستحقين دل عليه قول النبي ﷺ: ادخلت شفاعتي لأهل الكبائر من أمري، فيخرج المؤمنون وال المسلمين من نفي الشفاعة في الآية الكريمة، وبعبارة أخرى الآية مطلقة في نفي الشفاعة والحديث يخصصها في غير المسلمين والمؤمنين، فتكون الآية خاصة بالكافار.

وهذان الأمران يظهران من كلامه حيث قال في تعقيبه في تفسير الآية:
«وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ مخصوص عندنا بالكافار، لأن حقيقة

الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي ﷺ فيشفعه الله تعالى، ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلاة لما روي من قوله ﷺ: ادخلت شفاعتي لأهل الكبار من أمري: وإنما قلنا لا تكون في زيادة المنافع، لأنها لو استعملت في ذلك، لكان أحدها شافعا في النبي ﷺ إذا سأله أن يزيده في كراماته، وذلك خلاف الإجماع فعلم بذلك أن الشفاعة مختصة بما قلناه وعلم بشivot الشفاعة أن النبي في الآية يختص بالكافر دون أهل القبلة».^(٤٦).

وفي مورد آخر قال:

إن ذلك مختص بالكافر، فإن الكفار لا تنفعهم الشفاعة، لأن النبي ﷺ لا يشفع لهم، فأما المؤمنون فإنها تنفعهم ولا خلاف أن هاهنا شفاعة نافعة للمؤمنين^(٤٧).

وهذا مبني على الأمر الثاني المتقدم إذ أن الحديث يخص شفاعة النبي ﷺ بأمته، فتكون الآية خاصة بنفي الشفاعة عن المشركين ومع عدم الشفاعة لهم لا ينتفعون بها.

جواب المناقشة:

أما الأمر الأول من عدم صدق الشفاعة في إضافة المنفعة فإنه لا يصلح لتقييد الآية بالكافر، وإنما يفيد نفي الشفاعة التي تقول بها المعتزلة، ويحتمل أن مراد الشيخ دفع دخل من خلال مجموع الأمرين؛ أي أنه يريد أن مع كون الشفاعة لرفع المضار فإنها لا تنفع الكفار، لكنها مختصة بال المسلمين، لكن إن ما استدل به لنفي صدق الشفاعة بزيادة النفع حيث يلزم منه إمكان شفاعة أي مسلم للنبي ﷺ غير صالح، لأن الشفاعة حتى بناءً على زيادة النفع تتطلب أرضية في الشافع والمشفوّع،

وخصائص لكل منهما، ومن هنا لا يصح أن يشفع أي أحد للنبي ﷺ، بل هو الشافع للمؤمنين أجمعين.

فلم يبق إلا تخصيص الآية الكريمة بقرينة الحديث النبوى الشريف ((ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر))، ولكن المعتزلة تناقش في الحديث من عدة وجوه^(٤٨) :
الأول: من حيث السند فإن هذا الخبر خبر واحد وهو مخالف للقرآن الكريم
فيجب ردّه.

الثاني: من حيث أن المسألة من المسائل العقائدية التي يحتاج في إثباتها تحقق العلم، وهو لا يتحقق بخبر الواحد.

الثالث: من حيث نصه فإن ظاهر الحديث حصر الشفاعة لأهل الكبائر، وهذا لا يصح لأن الشفاعة من المناصب العظمى، وتخصيص الشفاعة لأهل الكبائر يقتضي حرمان أهل الصغار منها، وهو منوع، فلا أقل من التسوية بين أهل الكبائر وأهل الصغار، فلا محالة من حمل الحديث بعد قوله على الاستفهام الاستنكاري، كقوله تعالى على لسان إبراهيم: «هَذَا رَبِّي»^(٤٩)، فيكون المعنى إن الشفاعة لغير أهل الكبائر، أو حمل المراد من أهل الكبائر على أهل الطاعة الكبيرة، لا أهل المعصية الكبيرة، لأن تقدير الطاعة أولى من تقدير المعصية، لانسجامه مع بقية الأدلة - عند المعتزلة -.

وقد أقر الفخر الرازي بأن هذا الحديث لوحده لا يكفي لإثبات هذه المسألة، وإن ثبت عنده التمسك بمجموع الأحاديث^(٥٠).

وعلى كل حال فإنه توجد أحاديث أخرى تدل على شمول الشفاعة للمذنبين ولا اختصاص بأهل الكبائر، ولربما حمل أهل الكبائر على كون كل معصية كبيرة

أولى من صرفه عن شمول أهل الكبائر أو من جمله على أهل الطاعة الكبيرة.

المناقشة الثالثة: وهي مناقشة نقضية، ومحصلها أنَّ الآية إذا كانت مطلقة في نفي الشفاعة في يوم القيمة فلا بدَّ من أن يلتزم المعتزلة بعدم تحقق الشفاعة بزيادة الثواب، لأنَّ هذه الآية على ما يزعمون تنفي مطلق الشفاعة^(٥١).

جواب المناقشة:

إنَّ نفي الشفاعة بصورة مطلقة الظاهر من الآية الآنفة إِنَّما هو في الشفاعة برفع العقاب عن مطلق مرتكبي الكبائر (الشرك فما دونه) إذا مات مرتكبها ولم يتتب، لا نفي الشفاعة في زيادة الثواب للمؤمنين، وذلك لأنَّ نفي الاجتزاء نفس بنفس الذي يتعقبه نفي الشفاعة جاء بلسان التحذير الظاهر من سياق الآية، ولأنَّ ظاهر ﴿وَاتَّقُوا﴾ إرادة حصول الزاجر، والزجر عن ما فيه مخاطر وضرر، لا عن فوات زيادة المنافع، لأنَّ فوات زيادة المنافع ليس فيه خطر وضرر حتى يزجر عنه، فلو قال تعالى "اتقوا يوماً لا أزيد فيه منافع المستحق للثواب بشفاعة أحد" لم يحصل بذلك زجر عن العاصي، وأما لو قال "اتقوا يوماً لا أسقط فيه عقاب المستحق للعقاب بشفاعة شفيع" كان ذلك زجراً عن العاصي^(٥٢).

فما نفي الشفاعة في الآية إلا بمعنى نفي الاجتزاء بدفع العقاب، فلا تقتضي نفسُ عن نفس حقاً أخلت به النفس الثانية، سواء قلنا بأنَّ الضمير في "منها" في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يرجع إلى النفس الثانية العاصية، أو إلى النفس الأولى التي يفترض أن تكون شافعة، وإذا كان عوده إلى النفس الثانية كان المعنى أنه لا يقبل استحقاق هذه النفس للشفاعة، ولا يؤخذ منها عدل أي فدية لدفع العقاب عنها، وأما إذا كان عود ضمير "منها" إلى النفس الأولى فإن شفاعتها ولو شفعت في النفس الثانية لا تُقبل، كما أنها لو أعطتْ فداء لأجل دفع العقاب عن

النفس الثانية لم يقبل منها الفداء، وهذا ما يظهر من الرمخشري في الكشاف من قوله: «إِنْ قَلْتَ: هَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشُّفاعةَ لَا تَقْبُلُ لِلْعُصَمَةِ؟ قَلْتَ: نَعَمْ، لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ حَقًا أَخْلَتْ بِهِ مِنْ فَعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، ثُمَّ نَفَى أَنْ يَقْبُلَ مِنْهَا شُفاعةً شَفِيعًا فَعْلَمَ أَنَّهَا لَا تَقْبُلُ لِلْعُصَمَةِ». إِنْ قَلْتَ: الْضَّمِيرُ فِي **«وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا»** إِلَى أَيِ النَّفْسَيْنِ يَرْجِعُ؟ قَلْتَ: إِلَى الثَّانِيَةِ الْعَاصِيَةِ غَيْرِ الْمُجْزِيِّ عَنْهَا، وَهِيَ الَّتِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ. وَمَعْنَى لَا يَقْبُلُ مِنْهَا شُفاعةً: إِنْ جَاءَتْ بِشُفاعةً شَفِيعًا لَمْ يَقْبُلْ مِنْهَا. وَيُجَوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النَّفْسِ الْأُولَى، عَلَى أَنَّهُ لَوْ شَفَعَتْ لَهَا لَمْ تَقْبُلْ شُفاعَتَهَا، كَمَا لَا تَحْزِيَ عَنْهَا شَيْئًا، وَلَوْ أُعْطِتَ عَدْلًا عَنْهَا لَمْ يُؤْخَذُ مِنْهَا»^(٥٣).

المناقشة الرابعة: ومفادها أن الآية وإن كانت عامة، لكن توجد أدلة كثيرة من الروايات متواترة إجمالاً تفيد معنى مشترك وهو تتحقق الشفاعة للمؤمنين لدفع العقاب، قال المجلسي إن كل الآيات التي استدل بها لنفي الشفاعة في دفع العقاب مختصة بالكافر جمعاً بين الأدلة^(٥٤). وهذه المناقشة تجري في جميع الآيات التي يستدل بها المعتزلة، وسوف تأتي طائفة من الأحاديث الدالة على ذلك لاحقاً.

في رواية عن الإمام الصادق ع عليه السلام فسر آية ((يوم لا تجزي...الخ)) باليوم الذي يكون فيه موت الشخص فإن الشفاعة والفاء لا يعني عنه وأما في القيمة فأنا وأهلي نجزي عن شيعتنا كل جراء...الخ^(٥٥). فيستفاد من هذه الرواية بناء على هذا المعنى للآية أن الشفاعة المنافية لا تختص بالكافر.

الاستدلال بالآية الثانية:

الآية الثانية التي تمسك بها المعتزلة لنفي شمول الشفاعة لأهل الكبائر ما لم يتوبوا

هي قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٥٦)

والفا sque أو المركب للكبيرة ظالم ما لم يتبع ، لأن الظالم هو من أتى بظلم ، فتنطبق عليه الآية الكريمة ولا تخص الكافرين لعلوم الظالمين فيها^(٥٧) ، واستدل الزمخشري بهذه الآية على عدم شمول الشفاعة للمذنبين إذا لم يتوبوا وأيّد هذا المعنى من آيات أخرى ، قال تعقيبا على تفسيره للآية :

«إِنَّ الشُّفَعَاءِ هُمُ الْأَوْلَيَاءُ إِلَهُ، وَأَوْلَيَاءُ اللَّهِ لَا يَحْبُّونَ وَلَا يَرْضَوْنَ إِلَّا مِنْ أَحْبَهُ اللَّهَ وَرَضِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، فَلَا يَحْسُنُهُمْ، وَإِذَا لَمْ يَحْسُنُوهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَمْ يَشْفُعُوا لَهُمْ». قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٥٨) وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٥٩) ولأن الشفاعة لا تكون إلّا في زيادة التفضل، وأهل التفضل وزياسته إنما هم أهل الشواب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٦٠):

ويؤيد صحة تفسير المعتزلة للآلية الكريمة على مستوى أن المذنب إذا لم يتب لم تشمله الشفاعة ما يظهر من رواية للشيخ الصدوق، يرويها في كتاب التوحيد بسند معتبر، قال عليه السلام: حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمданى رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، قال: سمعت موسى بن جعفر عليه السلام... (جاء فيها):

وقال عليه السلام: من سرته حسنة وساعته سيئته فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظلاها، والله تعالى ذكره يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعٌ﴾ فقلت له^(٦١): يا ابن رسول الله وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا أحمد ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب عليها إلا ندم

على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحفاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصراً والمصر لا يغفر له لأنَّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقد قال النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. وأما قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فـإِنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللهُ دِينَهُ، والدِّينُ الْإِقْرَارُ بِالْجَزَاءِ عَلَى الْمُحْسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فـمَنْ ارْتَضَى اللهُ دِينَهُ نَدَمَ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنَ الذَّنَوبِ لِعْرَفَتْهُ بِعَاقِبَتِهِ فِي الْقِيَامَةِ^(٦٢).

فظاهر الحديث أنَّ المراد من الظالمين -في الآية- الذين لا تناهم الشفاعة كل من ارتكب الكبيرة ولم يتتبَّع ولم يندم على ما ارتكب، وإنْ كان يتشهد الشهادتين على ظاهر لسانه، إذ أنه في الحقيقة غير مؤمن بقلبه بمجازاته بالعقاب على ما ارتكبه إذا لم يتتبَّع، وأنَّ المرتضى عند الله الذي تناه الشفاعة ليس هو مطلق من انتسب إلى الإسلام بالشهادتين، بل لا بدَّ من اعتقاده بجازة المذنب على ما ارتكب من الذنوب الملائم لاستيائه من فعله.

مناقشة الاستدلال:

المناقشة الأولى: إنَّ المراد من الظالمين في الآية الكريمة هم المنافقون والمشركون^(٦٣)، أو خصوص المشركين، وليس المراد من الظالمين ما يشمل من ارتكب الكبيرة من المؤمنين ولم يتتبَّع عنها، ويشهد لذلك صدر الآية الكريمة قال عز وجل:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَاجَرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٦٤) فإنَّ الله تعالى أمرَ الرسول ﷺ أن ينذر مشركي قومه^(٦٥)، أي أنها واردة في زجر الكفار الذين يجادلون في آيات الله فهي مختصة بهم^(٦٦).

وأما دعوى عموم الظالمين، والكفار إنما هم مصدق لا ينافي صدق عنوان الظالمين على فساق المسلمين، فإنما تكون ثابتة فيما إذا لم يتحقق انصراف الظالمين للمعهود السابق، وهنا المعهود السابق هم الكفار الذين يجادلون في آيات الله، فالانصراف متحقق^(٦٧).

جواب المناقشة:

وهو الجواب عن المناقشة الأولى للأية الأولى المتقدم من أن مورد النزول لا يوجب التخصيص، والمدار على عموم اللفظ للظالمين، وتحذير رسول الله ﷺ من يوم القيمة يتسمج وأن يكون عاماً لكافة العالمين، للكافرين بأن يكفوا عن كفرهم وأن يؤمنوا، وللفاسين من المسلمين أيضاً بأن يكفوا عن المعصية ويسارعوا للتوبة والعمل بالطاعة، وأما وجود المعهود السابق وهم الكفار لا يوجب حصول انصراف الظالمين إليه والتخصيص به، بل المعهود السابق مصدق للظالمين والتعليل للإنذار حاصل بكمي كلية.

المناقشة الثانية: ما يستفاد من كلام الشيخ الطوسي والمحكي عن بعض المفسرين ومفادها أنه على فرض أن المراد من الظالمين ما يشمل مرتكب الكبيرة الذي لم يتبع وإن النفي للشفيع في الآية الكريمة إنما هو للشفيع الذي يُطاع لا الشفيع الذي يُحاب، وإن من يشفع يوم القيمة من الأنبياء والأولياء والملائكة والمؤمنين إنما يسألون الشفاعة على نحو الاستكانة إلى الله تعالى، لا أنه يجب على الله عزوجل أن يطيعهم في ذلك^(٦٨)، فنفي الشفيع المطاع نظير أن تنفي أن يكون عندك كتاب يُباع، فإنه لا يعني أنه لا يوجد عندك كتاب، وحيث أن الطاعة تدل على دنو مرتبة الطيع عن مرتبة المطاع، ولا مرتبة أعلى من الله سبحانه فلا يصح وجوب طاعة الله للشفيع، وهذا ما نفته الآية^(٦٩).

جواب المناقشة:

ليس المراد من "يُطاع" الطاعة على نحو الحقيقة، بل المراد من الطاعة هو الإجابة على نحو الكنایة^(٧٠) وذلك لأمرین:

الأول: لا بدّ من حمل كلام الله تعالى على ما ينسجم مع الحكمة والإفادة، ولو كان المراد الطاعة على الحقيقة لما كانت هناك فائدة، إذ الجميع يعلم ضرورة بأنه لا مرتبة أعلى من الله تعالى، فلا أحد يُوجب الطاعة على الله تعالى، فتحمل الطاعة على الإجابة كما يستعمله العرب على وجه الكنایة^(٧١)، فالمعنى ولا شفيع يُشفع.

الثاني: إن الله تعالى نفي أن يكون عنده شفيع يطاع للظالمين، والله تعالى مشفوّع إليه، وبطبيعة الحال فإن الشفيع مرتبته أدنى من المشفوّع إليه، فلو كان المراد من الطاعة المعنى الحقيقي لا بمعنى يُحاب لاقتضى أن يكون الشفيع أعلى مرتبة من المشفوّع إليه، لأن من له حق الطاعة أعلى مرتبة من المطيع وهو خلف كونه شفيع عنده، فقوله شفيع يفيد أنه دون المشفوّع إليه، فكان ذلك قرينة أخرى على حمل يطاع على المحاذ بمعنى يُحاب، فمعنى ولا شفيع يطاع لا شفيع يُحاب، أو ولا شفيع يُشفع^(٧٢).

ولدفع توهّم أنه بناءً على كون المراد من (لا شفيع يطاع) هو لا شفيع يُشفع فإنه لا فائدة من ذكر الصفة ونفيها مع إمكان نفي الشفيع فقط، أجاب الزمخشري بوجود الفائدة قال:

«إِنْ قَلْتَ: الْغَرْضُ حَاصِلٌ بِذِكْرِ الشَّفِيعِ وَنَفِيَهُ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ وَنَفِيَهَا؟ قَلْتَ: فِي ذِكْرِهَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ وَهِيَ أَنَّهَا ضَمَّتْ إِلَيْهِ لِيَقَامَ انتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَ الشَّاهِدِ عَلَى انتِفَاءِ الصَّفَةِ لِأَنَّ الصَّفَةَ لَا تَتَأْتِي بِدُونِ مَوْصُوفِهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ إِزَالَةٌ لِتَوْهِيمِ وُجُودِ الْمَوْصُوفِ، بِبَيَانِهِ أَنَّكَ إِذَا عَوْتَبْتَ عَلَى الْقَعُودِ عَنِ الْغَزوِ فَقُلْتَ: مَالِي فَرْسٌ أَرْكَبَهُ وَلَا مَعِي سَلاحٌ أَحَارِبُ بِهِ، فَقَدْ جَعَلْتَ

عدم الفرس وقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح عندي فكذلك قوله ولا شفيع يطاع معناه كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع، فكأن ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأثيره بعدم الشفيع وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهם خلافه»^(٧٣).

مع أنه يوجد احتمال آخر في المراد من المطیع بناء على كون المراد المعنى الحقيقي للطاعة، وهو أن المطیع غير الله تعالى من الزبانية والخزنة، والطاعة من هؤلاء من هو أعلى منزلة منهم من الأنبياء عليهما السلام والمؤمنين صحيحة واقعة في موقعها^(٧٤)، فنفي الشفيع المتتصف بهذه الصفة نفي لأصل وجود الشفيع للظالمين.

رد للجواب:

توجد قرينة على أن المراد من معنى الطاعة هو المعنى الحقيقي، وهي أن قريش كانت تعتقد أن الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى، فيقولون فيها: (إِنَّا شُفَعَوْنَا عَنْهُ) وأنها تشفع لهم من غير إذن الله تعالى، ولذا أجاب الله عليهم بقوله تعالى ﴿مَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٧٥)، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتقدون بأنه يجب على الله تعالى طاعة الأصنام في تلك الشفاعة^(٧٦).

وإذا كانت الطاعة بالمعنى الحقيقي في قوله ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ فإنه إنما هو نفي للشفيع الذي يتوهمن أن على الله طاعته، لا نفي الشفيع الجاب.

جواب الرد:

مضافاً إلى أن حمل الطاعة على المعنى الحقيقي بسبب ما كانت تعتقد به قريش، مبني على كون المراد من الظالمين في الآية خاص بقريش أو المشركين - وقد تقدم

الجواب عنه - وهو خلف فرض كون المراد من الظالمين أعم من الكفار ومن فساق المسلمين، فإن اعتقاد جواز شفاعة الأصنام لهم عند الله تعالى بغير إذنه لا يلزم منه أنهم يعتقدون أن على الله وجوب طاعة الأصنام، أو أنها أعلى منه مرتبة.

المناقشة الثالثة: وهي ما يختارها الفخر الرازي من الجواب على المعتزلة، ومفادها أن النفي وسلب الشفيع والحميم عن الظالمين في جملة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ إما أن يكون على نحو عموم السلب أي كل ظالم ليس له شفيع، وإما أن يكون على نحو سلب العموم أي ليس لكل ظالم شفيع، فعلى الأول فإنَّ كل من صدق عليه عنوان الظلم لا يكون له شفيع يوم القيمة، وأما على الثاني فلا تفيد أن كل من تلبس بعنوان الظلم لا يكون له شفيع فقد يكون بعض أفراد الظالم له شفيع، والصحيح هو الثاني أي سلب العموم، لأن قضية ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ المراد منها نقىض القضية القائلة (للظالمين حمييم وشفيع) وهي قضية موجبة كلية، ونقىض الموجبة الكلية سالبة جزئية أي (بعض الظالمين ليس له شفيع)، والسائلة الجزئية تصدق مع تتحقق ذلك السلب في بعض أفراد الظلام وعدم تتحققه في بعض آخر، فما كان كافراً من أفراد الظلام فإنه لا شفيع له، وما كان فاسقاً من أفراد الظلام فإن له شفيع⁽⁷⁷⁾.

ولهذا نظير في القرآن الكريم نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁷⁸⁾ فقوله: إن الذين كفروا لا يؤمنون، إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله، لأن كثيراً من كفر فقد آمن بعد ذلك، أمّا لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواءً آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتحلّص من الخلف، فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب، فكذا قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ ﴿٧٩﴾ يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب .^(٧٩)

جواب المناقشة:

إن ظاهر قوله تعالى: **«مَا لِظَالَمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»** هو عموم السلب، إلا إذا قامت قرينة على إرادة سلب العموم، نظير ظاهر النهي المستفاد من الجملة الخبرية التي تقول لا يُكرم الفاسقون، فإنه لا يجوز إكرام كل فرد من أفراد الفاسق، وأما إذا دلت قرينة على خروج بعض أفراد الفاسق عُرْفَ بِأَنَّ الْمَرَادْ لَا كُلَّ أَفْرَادَ الْفَاسِقِ، نظير قيام القريئة على أن المراد من الذين كفروا في قوله: **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»**^(٨٠) لا كل أفراد الكافر.

الاستدلال بالآية الثالثة:

وهي قوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعِيْغُ فِيهِ وَلَا حُلَّةً وَلَا شَفَاعةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ»**^(٨١)

فالآلية الكريمة تناطح الذين آمنوا وتوعده وتهدد تارك الإنفاق الواجب بالعذاب في اليوم الذي لا يوجد من يخلصه من العذاب فلا يستطيعون يوم القيمة تعويض ما لم ينفقوه في الدنيا (لا بيع فيه)، ولا يوجد صديق يتسامح معهم بسبب عصيانهم في الإنفاق في الدنيا ولأن **«الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»**^(٨٢) وтарك الزكاة والكافر ليسا من المتقين، ولا شفيع يشفع لهم، ولو كان نفي الشفاعة مختص بالكافر لما صدق تهديد تارك الزكاة بها، ولا يصدر ذلك من الحكيم، وما استشهد به الحسن على كون المراد بالأمر بالإنفاق هو الزكاة اقتراحه بالوعيد .^(٨٣)

وأما ذكر الكافرين في آخر الآية فهو للتغليظ في معصية ترك الزكاة.

قال الزمخشري في بيان المراد من ولا شفاعة في الآية:

«وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحُطُّوا عَنْكُمْ مَا فِي ذِمْتِكُمْ مِنَ الْوَاجِبِ لَمْ تَجْدُوا شَفِيعًا يَشْفَعُ لَكُمْ فِي حَطٌّ الْوَاجِبَاتِ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ ثُمَّةً فِي زِيَادَةِ الْفَضْلِ لَا غَيْرَ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَرَادَ وَالتَّارِكُونَ الزَّكَاةَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَقَالَ الْكَافِرُونَ لِلتَّغْلِيْظِ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ آيَةِ الْحَجَّ (وَمِنْ كُفَّارِ) ^(٨٤) مَكَانٍ وَمَنْ لَمْ يَحِجْ، وَلِأَنَّهُ جَعَلَ تَرْكَ الزَّكَاةِ مِنْ صَفَاتِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِ **﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** ^(٨٥).

وهكذا تفسير البيضاوي والأمثل للكافرين هنا^(٨٦)، ويرى الجعفي أن المراد من الكافرين هم الكافرون بالنعم^(٨٧)، وهو يتناصف أيضاً مع نفي الشفاعة عن الفاسقين.

المناقشة الأولى: ينقلها ابن حيان عن بعض المفسرين: بأن الاستدلال مبني على أن الأمر بالإإنفاق اقترب بالوعيد لتاركه، ولكن الحق أن الآية ليس فيها وعيد له^(٨٨)، وإنما أرادت أن تقول للمؤمنين ما مفاده: حصلوا منافع الآخرة حين تكونوا في الدنيا، فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة، والمراد من الكافرين هم المشركون وذريتهم لأجل حتى المسلمين على قتالهم بالنفس وبإنفاق الأموال^(٨٩).

رد المناقشة:

إن ظاهر الآية -بناءً على أنها تأمر بالإإنفاق الواجب- هو الوعيد على تاركه وتكشف عن خطورة التخلف عن هذا الواجب، وعلى فرض التنزل وأنها ليست في مقام الوعيد فإن نفي الشفاعة خطاب موجه لتارك الزكاة، فيكشف على أن مرتكب الكبيرة لا تشمله الشفاعة إلا إذا تاب.

المناقشة الثانية: وهي مناقشة الرازبي وهي نفس مناقشته التي اختارها في رد

الاستدلال بالآية الأولى، وهي المناقشة الرابعة على الاستدلال بالآية الأولى هنا، والتي مفادها وجود الدليل المخصص للآية الكريمة في شمول الشفاعة للمرتكب الكبيرة، وهذه المناقشة سِيَّالة تَرْدُ على كل أدلة المعتزلة، وسوف نرى مدى صحة هذه المناقشة باستعراض الأدلة المخصصة لاحقاً.

المناقشة الثالثة: وهي مستفادة من كلام العالمة الطباطبائي قَيْثَى من كون الدليل أخص من المدعى، فإن الظلم الناشئ من ترك الإنفاق لا تكون لصاحبه شفاعة، وليس كل كبيرة توجب حرمان أصحابها من الشفاعة يوم القيمة: «أن هذا الظلم وهو ترك الإنفاق لا يقبل التكبير، ولو كان من الصغار لقبله، فهو من الكبائر، وأنه لا يقبل التوبة، ويتأيد بذلك ما وردت به الروايات: أن التوبة في حقوق الناس غير مقبولة إلا برد الحق إلى مستحقه، وأنه لا يقبل الشفاعة يوم القيمة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُونُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُونُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ إلى أن قال ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٩٠).

(يتبع في العدد القادم)

المواضيع:

- (١) كتاب العين، ج ١، ص ٢٦٠.
- (٢) المصدر السابق.
- (٣) المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٨٧.
- (٤) المصدر السابق.
- (٥) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٥٧.
- (٦) أوائل المقالات للشيخ المفيد، ص ٤٧.

- (٧) تفسير السمرقندى، ج ١، ص ٩٥.
- (٨) تفسير البحر الحيط، ج ١، ص ٤٤٦.
- (٩) شرح المقاصد، ج ٢، ص ٢٣٨.
- (١٠) انظر التسهيل لعلوم التنزيل للغرناتى، ج ٤، ص ٢١، في تفسير سورة الشورى في تفسير (ويغفو عن السينات).
- (١١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوقي، ص ٤٠٦؛ وسائل الشيعة ج ١٥، باب صحة التوبة من الكبائر، ص ٣٣٦ نشر آل البيت عليهم السلام.
- (١٢) شرح المقاصد في علم الكلام، للفتازانى، ج ٢، ص ٢٣٦، نشر دار المعارف النعمانية الطبعة الأولى.
- (١٣) الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص ٤٦٤.
- (١٤) انظر تقريب هذه الجهة من تفسير الميزان ج ١، ص ١٦٢، في ذكره للإشكال الأول.
- (١٥) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦٢ - ١٦٣.
- (١٦) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٥٩.
- (١٧) سورة الفرقان: ٧٠.
- (١٨) سورة الفرقان: ٣٢.
- (١٩) سورة محمد: ١٠٩.
- (٢٠) سورة النساء: ٣١.
- (٢١) سورة النساء: ٤٨.
- (٢٢) إسلام الكافر، فإن الإسلام يجب ما قبله.
- (٢٣) سورة التصصص: ٦٥.
- (٢٤) سورة الأنعام: ١٦٠.
- (٢٥) سورة الطور: ٢١.
- (٢٦) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦١.
- (٢٧) ذكر دليلهم الفتزاڻي في شرح المقاصد، ج ٢، ص ٢٣٦، وذكره العلامة الطباطبائى من بعنوان الإشكال الرابع من غير ذكر لصاحبه تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦٥.
- (٢٨) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦٥ - ١٦٦.
- (٢٩) الأصول الخمسة ٤٦٦.

- (٣٠) ونفي ابن حجر العسقلاني وقوع الخلاف في شمول الشفاعة لرفع الدرجات، فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٨٥.
- (٣١) التفسير الكبير ج ٣، ص ٦٢، نشر دار الكتب العلمية.
- (٣٢) أوائل المقالات للشيخ المفيد، ص ٤٧.
- (٣٣) الاعتقادات للشيخ الصدوق، ص ٦٦.
- (٣٤) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ٤٤٣، نشر شكورى ط ١٤١٣ هـ.
- (٣٥) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٧٦.
- (٣٦) سورة البقرة: ٤٨.
- (٣٧) استدل بها القاضي عبد الجبار الهمданى في كتاب الأصول الخمسة، ص ٦٨٩، في الطبعة القدية، وفي طبعة دار أحياء التراث العربى ص ٤٦٤، تصحیح وتعليق سعیر مصطفی، والزمھشی فی تفسیر الكشاف ج ١، ص ٢٧٩.
- (٣٨) تفسیر الفخر الرازی التفسیر الكبير، ج ٣، ص ٥٣ نشر دار الكتب العلمية.
- (٣٩) لاحظ المصدر السابق مع تصرف في العبارة لأجل التوضیح.
- (٤٠) لاحظ المصدر السابق مع تصرف في العبارة لأجل التوضیح.
- (٤١) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج ١، ص ٩٠ - ٩١.
- (٤٢) المصدر السابق مع تصرف.
- (٤٣) بجمع البيان، ج ١، ص ٢٠١.
- (٤٤) المصدر المتقدم من تفسیر الرازی مع التصرف.
- (٤٥) تفسیر التبیان، ج ١، ص ٢١٣.
- (٤٦) تفسیر التبیان، ج ١، ص ٢١٣ - ٢١٤.
- (٤٧) الرسائل العشر للشيخ الطوسي، ص ٣٢٤.
- (٤٨) لاحظ كتاب فيض القدير، ج ٤، ص ١٦٣، في فصل حرف السين.
- (٤٩) سورة الأنعام: ٧٨.
- (٥٠) التفسیر الكبير، ج ٣، ص ٦٠.
- (٥١) التفسیر الكبير، ج ٣، ص ٥٣ بتصرف.
- (٥٢) لاحظ المصدر السابق.

- (٥٣) تفسير الكشاف، ج ١، ص ٢٧٩.
- (٥٤) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٢، وهذه المناقضة المختارة للفخر الرازي في جوابه على الاستدلال بهذه الآية الكريمة، انظر تفسيره ج ٣، ص ٦٥.
- (٥٥) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٤٤، وج ٩، ص ٣١٢.
- (٥٦) سورة غافر: ١٨.
- (٥٧) أنظر متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار، ج ٢، ص ٦٠٠، وكتاب شرح الأصول الخمسة له أيضاً ص ٤٦٤ ط إحياء التراث.
- (٥٨) سورة البقرة: ٢٧٠.
- (٥٩) سورة الأنبياء: ٢٨.
- (٦٠) سورة النساء: ١٧٤، وكلام الزمخشري في تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٢١، طبع مصطفى البابي بمصر، وج ٤، ص ١٥٨ في طبع ونشر البلاغة.
- (٦١) القائل أو السائل هو الرواية وهو ابن أبي عمير رض.
- (٦٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، ص ٤٠٧ - ٤٠٨؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٣٥.
- (٦٣) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ٨، ص ٣٣٤، في تفسيره لهذه الآية الكريمة، بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧٨.
- (٦٤) سورة غافر: ١٨.
- (٦٥) تفسير الطبراني، ج ٢٤، ص ٦٦.
- (٦٦) ذُكر هذا الوجه في تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٥٠، عن جماعة من الجمهور.
- (٦٧) نقل المناقضة الفخر الرازي على نحو الرد والجواب اختصرتها في أصل المناقضة انظر التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٥١.
- (٦٨) تفسير التبيان للشيخ الطوسي، ج ٩، ص ٦٥.
- (٦٩) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٥٠، وكتاب الكافي في الفقه لأبي الصلاح الحلبي، ص ٤٧١.
- (٧٠) انظر الذريعة للسيد المرتضى علم الهدى ج ١، ص ٣٧.
- (٧١) نقله الفخر الرازي عن المعتزلة في تفسيره، ج ٢٧، ص ٥١.
- (٧٢) انظر الأمرين في تفسير الفخر الرازي، ج ٣، ص ٥٦ - ٥٧، بتصرف بالغ للتوضيح.

- (٧٣) وكلام الزمخشري في تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٢١، طبع مصطفى البابي بصر، وج ٤، ص ١٥٨ في طبع ونشر البلاغة.
- (٧٤) انظر الذريعة للسيد مرتضى ج ١، ص ٣٧.
- (٧٥) سورة البقرة: ٢٥٥.
- (٧٦) انظر تفسير الفخر الرازى، ج ٢٧، ص ٥١ مع تصرف للتوضيح.
- (٧٧) انظر تفسير الفخر الرازى، ج ٣، ص ٦٥.
- (٧٨) سورة البقرة: ٦.
- (٧٩) انظر تفسير الفخر الرازى، ج ٢٧، ص ٥٢.
- (٨٠) سورة البقرة: ٦.
- (٨١) سورة البقرة: ٢٥٤.
- (٨٢) سورة الرحمن: ٦٧.
- (٨٣) تفسير التبيان للشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٣٠٥؛ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسى، ج ٢، ص ٢٥٦؛ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ج ٣، ص ٢٦٦.
- (٨٤) سورة التور: ٥٥.
- (٨٥) سورة فصلت: ٦، انظر تفسير الكشاف، ج ١، ص ٣٨٤.
- (٨٦) تفسير البيضاوى، ص ٥١١، نشر دار الفكر، تفسير الأمثل، ج ٢، ص ٢٤٠.
- (٨٧) تفسير ابن أبي حاتم، ج ٢، ص ٤٨٦.
- (٨٨) وإلى هذا القول ذهب الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسى: تفسير التبيان، ج ٢، ص ٣٠٥؛ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥٦.
- (٨٩) انظر تفسير البحر المحيط لابن حيان، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (٩٠) سورة المدثر: ٤٨، تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣٩٧.

حادثة الصلح في كلامات الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ

فاضل عبد الجليل الزاكى

كما لازالت حادثة الصلح التي جرت بين الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين معاوية بن أبي سفيان -رغم كثرة ما كتب حولها وما قيل فيها - من المواضيع المهمة والغامضة عند أكثر الناس، الأمر الذي يكشف عن جانب كبير من المظلومية التي ألمت بالإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته وبعد مماته، وهذا رأيت أن أدخل إلى ظروف الصلح بنظرة تحليلية تعتمد كلامات الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن بعضها ببعض النصوص التاريخية.

قبل البدء:

قبل الشروع في المقصود أرى ضرورة التذكير بأمرتين مهمتين:

- ١- نعتقد نحن الشيعة بعصمة الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره من الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وذلك استناداً للكثير من النصوص الواردة، وبالتالي لا نجد مشكلة في تفسير ما قد يصدر منهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أفعال سواء تكناً من فهم أسبابها أم لا، فإن خفاء السبب لا يعني انتفاءه، فلكل معلول علة، وعصمة الإمام تدفع كل الاحتمالات والأسباب التي تتنافى مع العصمة كالخوف أو الركون إلى الدعوة.
- ٢- كان التاريخ منذ القدم وما زال حتى الآن في غالبه يكتب بأقلام مأجورة تقتات من خلال ما تكتب، فتنزور الحقائق أو تخفيتها تقرّباً وتزلفاً من هذا الظلم أو ذاك، وهذا يجد الباحث صعوبة في تلمس طريقه وسط هذا الكم الهائل من الدس

والتشويه الذي كُتب على هوى السلطان.

ومن هذا المنطلق فنحن نعتقد بأن الظلم الذي حاقد بأهل البيت علّيهم قد حجب عنا الكثير من الحقائق، فصرنا نجهلحقيقة الأسباب التي دفعتهم لاتخاذ هذا الموقف أو ذاك، وسواء علمنا بالأسباب التفصيلية أم لا فإن ذلك لا يغير منحقيقة تلك الأسباب، ونحن سننسعى لتلمس طريقنا في تحليل حادثة الصلح وسط هذا الظلام والغموض الذي أحاط به، وذلك بالرجوع إلى ما وصلنا من كلمات قليلة عن الإمام الحسن علّيهم.

دعایات امویۃ:

يسعى البعض لتصوير الإمام الحسن علّيهم على أنه شخص ميال للراحة، يحب حياة الدعة ويهرب من الجهاد والقتال، وهذا سعي لعقد الصلح مع معاوية مع ما فيه من ذلة ظاهرة، فهو على العكس من أخيه الحسين علّيهم الذي يؤمن بالجهاد كوسيلة لاسترداد الحقوق ولا يتوانى عن التضحية بأسرته وبنفسه في سبيل هذا الهدف، وهذه الدعایات تم استخدامها بأساليب مختلفة، ولكن الغاية منها أحد إلى أمرین:

الأول: تشويه صورة الإمام الحسن علّيهم بوصمه بقصر الهمة والجبن، وبحبه لحياة الدّعّة وبالتالي فهو غير مؤهل لإدارة شؤون الأمة.

الثاني: تشويه صورة الإمام الحسين علّيهم ببيان وجه المفارقة بين موقفه الجريء الطامح للسلطة الدنيوية دون مبالاة منه بما قد يؤدي إليه ذلك من سفك لدماء المسلمين، في قبال موقف أخيه الحسن علّيهم الذي كان حريصاً كل الحرص على تجنب سفك الدماء حتى وإن أفقده ذلك منصب الخلافة وأوجب له صغاراً عند الناس.

ولكن النصوص والمعطيات التاريخية تؤكد أن هذه مجرد دعايات تدخل في ضمن الظلم الذي حاقد بأهل البيت عليهما السلام، إذ أنهم -بأجمعهم- تعاطوا مع مسألة الخلافة بمنطق واضح لا لبس فيه، فالخلافة بالنسبة لهم تكليف لا تشريف، ووسيلة لا غاية، فهو تكليف طالما أحسوا بثقل مسؤوليته الملقاة على عواتقهم، وهو الوسيلة لمحو الظلم وإقامة حكم الله في الأرض، ولم تكن تحركاتهم للوصول للخلافة تحمل في طياتها أية أهداف شخصية على الإطلاق، ولذا نجد في كلماتهم عليهما السلام الكثير من الشواهد على ذلك، سيما ما ورد عن أمير المؤمنين عليهما السلام في الخطبة الشقشيقية حيث قال: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لو لا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارروا على كفة ظالم، ولا سغب مظلوم، لأنقيتُ حبلها على غاربها، ولسيقتُ آخرها بكأس أوها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهدتني من عفطة عنز»^(١)، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «دخلتُ على أمير المؤمنين عليهما السلام بذري قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلتُ: لا قيمة لها. قال: والله هي أحب إلى من أمرتكم، إلا أن أقيم حقاً أو ادفع باطلًا»^(٢).

ورغم حرص الأئمة عليهم على حفظ دماء المسلمين وتجنب سفكها، إلا أن علمهم بأن إقامة حكم الله في الأرض لا يأتي من دون وجود المعصوم على سدة الحكم في الدولة الإسلامية، جعلهم يتحركون لأداء هذا التكليف وتنفيذ هذا الهدف، رغم ما قد يترتب على ذلك من سفك للدماء أحياناً، إذ أنه هدف تسخوا أنفسهم بالغالي والرخيص في سبيله أمثالاً لأمر الله عزوجل، فالائمة عليهم السلام لم يشكوا قط في مشروعية القتال من أجل إقامة حكم الله في الأرض، أو من أجل حفظ الدولة

الإسلامية وردع الفئات المخارة على الإمام الشرعي، وهذه النقطة كانت واضحة جداً في ما دونه لنا التاريخ من كلمات الإمام الحسن عليه السلام، والذي كان يعتبر أن معاوية وأهل الشام فئة باغية يجب قتالها بحكم الشرع، «فَإِنْ بَعْتُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَبْغِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»^(٣)، ونستشهد هنا ببعض تلك النصوص التي تدل على عزم الإمام عليه السلام على قتال معاوية وأهل الشام:

الإمام يهدد معاوية بالقتال:

نقلت المصادر بعض ما جرى بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية من مراسلات، وكان من ضمنها:

أ- ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، من أن معاوية أرسل بعض الجواسيس للتجسس على الكوفة والبصرة فعرف الحسن عليه السلام بذلك فأمر بقتلهم، وكتب إلى معاوية:

«أَمَّا بَعْدَ فَإِنَّكَ دَسَسْتَ إِلَيِّي الرِّجَالَ كَأَنَّكَ تُحِبُّ الْلَّاقَاءَ، لَا أَشَكُّ فِي ذَلِكَ، فَتَوَقَّعَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...»^(٤).

ب- ومنها رسالة أخرى طويلة أوردها أبو الفرج الأصفهاني أيضاً في كتاب (مقاتل الطالبيين) جاء في آخرها:

«فَدَعَ التَّمَادِيَ فِي الْبَاطِلِ وَادْخَلَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ بِعْتِي، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَقُّ بِهِذَا الْأَمْرِ مِنْكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَابٍ حَفِيظٍ، وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ مُّنِيبٌ، وَاتَّقِ اللَّهَ وَدُعِّيَ الْبَغْيُ وَاحْقَنَ دَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَاللَّهِ مَا لَكَ خَيْرٌ فِي أَنْ تَلْقَى اللَّهَ مِنْ دَمَائِهِمْ بِأَكْثَرِ مَا أَنْتَ لَاقِيهِ بِهِ، وَادْخُلْ فِي السَّلَمِ وَالطَّاعَةِ، وَلَا تَنْازِعْ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ لِيُطْفَئَ اللَّهُ

النائرة بذلك، ويجمع الكلمة و يصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيّاك سرت إليك بال المسلمين فحاكمتك، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»^(٥).

من خلال هذا النص نجد أن الإمام الحسن عليه السلام يطرح عدة أمور:

١- يلقي الحجة على معاوية بدعوته إلى الحق كما فعل جده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبوه أمير المؤمنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في حربهما وكما هو مقتضى التعاليم الإسلامية، حيث ورد في الآية الكريمة «وَإِنْ طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا فَأَصْلِحُوهَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتَلُوا الَّتِي تَبَغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٦).

٢- يؤكّد الإمام عليه السلام أن الحق له دون معاوية، وأن أحقيته بأمر الخلافة ليست وليدة ادعاءات كاذبة، وإنما هو حق ثابت له من الله عَزَّ ذِيَّلَهُ بل نجد في كلام الإمام عليه السلام ما يؤكّد علم معاوية التام بأحقية الإمام بمنصب الخلافة، فنراه عليه السلام يقول: «فإنك تعلم أنني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ»، ويضيف عليه السلام قائلاً: «ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك».

٣- يوضح الإمام عليه السلام بأن موقفه من معاوية هو مقاتلته ما لم يدخل في الطاعة ويدعو البغي، فلم يكن موقف الإمام يحمل سوى الإصرار والعزيمة على القتال، ولم يبد منه ما يوحى بشيء من التهاون أو الميل إلى الدعة كما يروج البعض.

الإمام يدعو الناس إلى القتال:

ونقل أبو الفرج الأصفهاني أيضاً بأن الإمام الحسن عليه السلام دعا الناس للصلوة:

«فَخَرَجَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ وَصَدَّمَ الْمِنْبَرَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجِهَادَ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَسَاهَ كُرْهَا، ثُمَّ قَالَ لِأَهْلِ الْجِهَادِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، فَلَسْتُمْ أَيْهَا النَّاسُ نَائِلِينَ مَا تُحِبُّونَ إِلَّا بِالصَّابِرِ عَلَىٰ مَا تَكْرُهُونَ، بِالْغَنِيِّ أَنْ مَعَاوِيَةَ بَلَغَهُ أَنَّا كَنَا أَزْمَعْنَا عَلَىٰ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ فَتَحَرَّكَ لِذَلِكَ، اخْرَجُوا رَحْمَكُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَعْسُكُرَكُمْ بِالنَّخْيَلَةِ، حَتَّىٰ نَظَرُ وَتَنَظَّرُ وَنَرِى وَتَنَرِى».

قال: وإنَّه في كلامه ليتخوَّفَ خذلان الناس له، قال: فسكتوا فما تكلَّمَ منهم أحدٌ ولا أجابه بحرف، فقام عدي بن حاتم وعدة أفراد آخرين فلاموا أهل الكوفة على تخاذلهم^(٧).

يتضح من خلال هذا النص أمور:

١- أن خروج معاوية كان بهدف استباق الأوضاع حيث علم بان الحسن عَلَيْهِ السَّلَام سيخرج لقتاله فتحرك لذلك، «بلغني أن معاوية بلغه أَنَّا كَنَا أَزْمَعْنَا عَلَىٰ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ لِدِي إِلَمَامٌ أَيْ خُوفٌ أَوْ تَرْدُدٌ فِي مُوَاجَهَةِ مَعَاوِيَةَ، وَهَذَا نَرَاهُ يَبَدِّرُ بِالْتَّحْرِكِ لِمُوَاجَهَةِ مَعَاوِيَةَ، وَلَكِنْ مَعَاوِيَةَ يَعْلَمُ بِالْأَمْرِ فَيَسْرَعُ لِلْخُرُوجِ قَبْلَ أَهْلِ الْكَوْفَةِ».

٢- أن موقف الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام كان واضحاً من معاوية ابتداءً وبقاءً، فما إن علم بتحرك معاوية حتى أمر الناس بالخروج لقتاله، ولم يحمل هذا الموقف في طياته أدنى تردد أو تلکؤ من جانب الإمام عَلَيْهِ السَّلَام.

٣- أن الإمام عَلَيْهِ السَّلَام رغم عزيته على قتال معاوية إلا أنه كان يعلم بنفوس أهل الكوفة، فكان يتخوَّفَ خذلانهم له بعد ما رأى من مؤشرات، وقد صدق مخاوفه

تلك، فلم يُظهر أهل الكوفة التجاوب المطلوب في مواجهة هذا الخطر الداهم.

وبذلك تتضح لنا حقيقة موقف الإمام عَلِيٌّ بن أبيه من قتال معاوية بشكل جلي، ولكن يبقى السؤال المهم عن تلك الأسباب التي دفعت الإمام عَلِيٌّ للصلح مع معاوية رغم أنه يعتبره باعِرًا وخارج عليه؟.

وفي مقام الجواب نستعرض عدة نصوص تتفق في المقام:

أسباب الصلح:

نقل الديلمي في كتاب أعلام الدين قال:

«خطب الحسن بن علي عَلِيٌّ بعد وفاة أبيه محمد الله وأثنى عليه شم
قال: أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة، ولكن كننا نفاث لهم
بالسلامة والصبر، فشيب السلام بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم
تتوجهون معنا ودينكم أمم دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمم
دينكم، وكنتا لكم وكنتم لنا وقد صرتم اليوم علينا، ثم أصبحتم تصدّون
قتيلين، قتيلاً بصفتين تبكون عليهم، وقتيلان بالنهر وإن تطلبون بثأرهم،
فأما الباكى فخاذل، وأما الطالب فثائر، وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس
فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلناه منه وأغضضنا على القذى،
ولإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله وحاكمناه إلى الله.

فنادى القوم بأجمعهم: بل البقية والحياة»^(٨)

في هذا المقطع يوضح الإمام لنا أهم أسباب الصلح، وهي:

أ- أن القوم قدموا الدنيا على الدين، إذ كان أهل الكوفة في زمن أمير

المؤمنين عليهما السلام ي يكون الحد الأدنى من التوحّد والالتفاف حول القيادة والتسليم لأوامرها، ولكن نفوسهم تغيرت بعد ذلك فتفرقـت كلمتهم وجاهروـا بعـدوا بهـم للقيادة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فـمعلوم أن المـهـرب تـحـتـاج إلى قـلـوب شـجـاعـةـ، كـماـ أـنـهـاـ عـادـةـ ماـ تـتـرـاقـفـ معـ البـلـاـيـاـ وـالـحـنـ الـيـ لـابـدـ منـ الصـبـرـ عـلـيـهـاـ، وـكـانـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ يـتـمـتـعـونـ بـبعـضـ الشـجـاعـةـ وـالـصـبـرـ الـأـمـرـ الـذـيـ مـكـنـهـمـ مـنـ الصـمـودـ طـوـالـ فـتـرـةـ حـرـبـ صـفـيـنـ رـغـمـ طـوـلـ أـمـدـهـاـ وـكـثـرـةـ مـنـ قـتـلـ فـيـهـاـ^(٤)ـ، وـهـذـهـ الـأـمـورـ لـمـ تـكـنـ لـتـحـصـلـ لـوـلـ أـنـهـمـ قـدـمـواـ دـيـنـهـمـ عـلـىـ دـنـيـاهـمـ، وـلـكـنـ نـفـوسـ الـكـوـفـيـنـ مـاـ لـبـثـتـ أـنـ تـبـدـلـتـ فـخـلـاطـتـ الشـجـاعـةـ وـالـصـبـرـ بـالـجـبـنـ وـالـجـزـعـ، ذـلـكـ أـنـهـمـ قـدـمـواـ دـنـيـاهـمـ أـمـامـ دـيـنـهـمـ، هـذـاـ يـخـاطـبـهـمـ الإـمـامـ عـلـيـهـاـ قـائـلاـ: «كـنـاـ نـقـاتـلـهـمـ بـالـسـلـامـةـ وـالـصـبـرـ، فـشـيـبـ السـلـامـةـ بـالـعـدـاوـةـ وـالـصـبـرـ بـالـجـزـعـ»ـ وـ«وـكـنـتـمـ تـتـوـجـهـوـنـ مـعـنـاـ وـدـيـنـكـمـ أـمـامـ دـنـيـاـكـمـ، وـقـدـ أـصـبـحـتـمـ الـآنـ وـدـنـيـاـكـمـ أـمـامـ دـيـنـكـمـ»ـ وـ«وـكـنـاـ لـكـمـ وـكـنـتـمـ لـنـاـ وـقـدـ صـرـثـمـ الـيـوـمـ عـلـيـنـاـ»ـ.

ب- كان المجتمع الكوفي عدة فئات، نجملها فيما يلى:

١- الفئة المنحرفة عن آل البيت عليهما السلام وهذه الفئة عثمانية الهوى، تحمل أهل البيت عليهما السلام مسؤولية مقتل عثمان، وهذه الفئة كانت موجودة منذ زمن أمير المؤمنين عليهما السلام وقد امتنعوا عن نصرته، وكانوا يطعنون في قتاله لمعاوية يوم صفين كما ذكر المؤرخون^(١٠)، ورغم أن هذه الفئة لم تكن كبيرة جداً بالقياس إلى الفئات الأخرى، إلا أنها مع ذلك كانت تمثل ثقلًا مهمًا في المجتمع الكوفي.

٢- الفئة التي تخاف معاوية، (تبكي قتلى صفين)، (أما الباكى فخاذل)، وهذه الفئة لم تكن قليلة بل هي الفئة الأكبر، وعلى عكس ما هو المتوقع فبدلاً من الحماس، نجد التخاذل.

٣- الفتة التي تحقد عليه وعلى أبيه عليهما السلام وتريد قتله، طلبا لثار قتل النهر وان، وهذه الفتة أقل من سابقتها ولكنها ليست قليلة أيضا.

٤- وهناك فتة رابعة أشار إليها الإمام الحسن عليهما السلام في بعض خطبه، وهي الفتة التي كانت ترجوا أن تناول من دنيا معاوية، حيث أنها يئست من المكاسب الدنيوية مع الإمام، فكانت هذه الفتة تكاتب معاوية وتعده بقتل الإمام عليهما السلام في مقابل بعض الوعود الكاذبة التي يوزعها معاوية، وفي هذا الصدد يقول الإمام الحسن عليهما السلام مخاطبا إياهم:

«وَيَا أَيُّهُمْ أَنْتُمْ إِنْ مَعَاوِيَةَ لَا يَفِي لَأَحَدٍ مِّنْكُمْ بِمَا حَسِّنَتْ فِي قَتْلِي
وَلَكُنْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَبْنَائِكُمْ وَاقْفَنِي عَلَى أَبْوَابِ أَبْنَائِهِمْ يَسْتَسْقِيُونَهُمْ
وَيُسْتَطِعُونَهُمْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ فَلَا يُسْقَوْنَ وَلَا يُطْعَمُونَ، فَبَعْدًا وَسَحْقًا لِمَا
كَسَبْتُهُ أَيْدِيهِمْ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيِّ مُنْقَلِبٍ يَنْقَلِبُونَ»^(١١)

٥- وهناك فتة خامسة مهمة - رغم قتلها- وهي الفتة التي ترى ضرورة حرب معاوية ومواجهته وعدم التنازل له مهما كلف ذلك من ثمن، وهذه الفتة رغم إخلاصها وتفانيها إلا أنها ليست على مستوى واحد، فعدد كبير من أفراد هذه الفتة لا يعتقد بإمامية الإمام عليهما السلام وعصمته بالمعنى الذي نعتقده نحن في الإمام، وبالتالي فهم يضعون تصرفات الإمام تحت المجهر لدراستها وتقييمها، ويعطون لأنفسهم الحق في إبداء النظر إزاء ما يقوم به الإمام عليهما السلام، ويكن استجلاء ذلك بشكل واضح من خلال بعض المحاورات التي جرت بين بعضهم وبين الإمام عليهما السلام بعد عقد الصلح حيث خاطبه بعضهم بما ذكر.

والنتيجة:

أن الإمام كان سيخوض حرباً معلومة النتائج مسبقاً، بل كان من المتوقع أن يقوموا بالغدر به وتسليميه إلى معاوية من دون قتال، والنتيجة أن هذه المواجهة لا يرجى من ورائها أي نفع.

ولهذا نرى الإمام الحسن عليه السلام يقول:

«وَاللَّهُ لَوْ قَاتَلْتُ مَعَاوِيَةَ لَا خَذَلُوا بَعْنَقِي حَتَّى يَدْفَعُونِي إِلَيْهِ سَلَمًا، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَسَالَهُ وَأَنَا عَزِيزٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقْتَلَنِي وَأَنَا أَسِيرٌ، أَوْ مَنْ عَلَيْيِ فَكُوْنُونَ سَبَّةٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وَمَعَاوِيَةَ لَا يَزَالْ يَمْنَ بَهَا وَعَقْبَهُ عَلَى الْحَيِّ مِنَا وَالْمَيْتِ»^(١٢).

كما نرى الإمام الحسن عليه السلام يجيب أحد الأشخاص قائلاً:

«يَا أَبَا سَعِيدٍ إِذَا كُنْتُ إِمَاماً مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذَكْرُهُ لَمْ يَجِبْ أَنْ يُسَفِّهَ رَأْيِي فِيمَا أَتَيْتُهُ مِنْ مَهَادِنَهُ أَوْ مَحَارِبَهُ، وَإِنْ كَانَ وَجْهُ الْحَكْمَةِ فِيمَا أَتَيْتُهُ مَلْتَبِسًا، أَلَا تَرَى الْخَضْرُ عَلَيْهِ لَمَا خَرَقَ السَّفِينَةَ وَقَتْلَ الْغَلامَ وَأَقْامَ الْمَجَارَ سُخْطَ مُوسَى عَلَيْهِ فَعَلَهُ لَا شَبَاهَ وَجْهُ الْحَكْمَةِ عَلَيْهِ حَتَّى أَخْبَرَهُ فَرَضَيَ، هَكَذَا أَنَا سُخْطُمْ عَلَيْيِ بِجَهَلِكُمْ بِوَجْهِ الْحَكْمَةِ فِيهِ وَلَوْلَا مَا أَتَيْتُ لِمَا تُرَكَ مِنْ شَيْعَتْنَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا قُتِلَ»^(١٣).

تساؤل مهم:

إذا كان الإمام الحسن عليه السلام يعرف بحقيقة المجتمع الكوفي من أول الأمر فلماذا لم يبادر إلى الصلح واستمر في المماطلة قرابة ستة أشهر؟ ألم يكن من الأفضل أن

يسلم الحكم إلى معاوية من أول الأمر؟

والجواب:

- ١- لم يكن الإمام الحسن عليه شاكراً في عدم أهلية معاوية لتسليم الخلافة، إذ أن الخلافة الشرعية منصب إلهي يختص الله به من يشاء من عباده بالنص، ولا تكون بالغلبة والقهر، وهذا نجده يخاطب معاوية قائلاً: «فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله»، ولكن الإمام أرغم على التنازل لمعاوية نتيجة الظروف القائمة آنذاك، وهذا فكان الإمام يسعى لتأخير ذلك قدر الإمكان.
- ٢- كان الإمام الحسن عليه يسعى لإلقاء الحجة على الناس وذلك بدعوتهم لقتال معاوية، وقد استنفذ وقتاً ثميناً في هذه المحاولة، إذ أن الأسباب كانت تتكشف يوماً بعد يوم.
- ٣- بذل الإمام عليه جهده في دعوة الناس لحرب معاوية وأهل الشام، وذلك ليبين للناس أنه يرى في أهل الشام فرقاً باغية يجب قتالها، ولو اعتمد الإمام على علمه الغيبي وسلم الأمر إلى معاوية من أول الأمر لكان معنى ذلك إعطاء الشرعية لحكومة معاوية.
- ٤- كان الإمام يسعى من خلال تأخير الصلح مع معاوية إلى فرض بعض الشروط على معاوية رغم علمه بأن معاوية لا يفي بتلك الشروط، إلا أنه بذلك كشف زيف الادعاءات الأموية، ومن أهم تلك الشروط التي فرضها الإمام على معاوية أن يكون أمر الخلافة بعد معاوية إلى الإمام الحسن، وبعده إلى الإمام الحسين عليهما ^(٤).

المواهش:

- (١) نهج البلاغة ١: ٣٦ ، الخطبة ٣ بعد انصاره من صفين (الخطبة الشقشيقية).
- (٢) نهج البلاغة ١: ٨١ ، الخطبة ٣٣ عند خروجه لقتال أهل البصرة.
- (٣) سورة الحجرات: ٩.
- (٤) مقاتل الطالبيين: ٣٣.
- (٥) مقاتل الطالبيين: ٥٦.
- (٦) سورة الحجرات: ٩.
- (٧) مقاتل الطالبيين: ٣٩ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٨.
- (٨) أعلام الدين: ٢٩٢.
- (٩) ذكرت بعض المصادر بأن عدد قتلى صفين من الفريقيين بلغ ستين ألفاً (تاريخ بغداد ١٢٠: ٩) وقيل كانوا سبعين ألفاً (تاريخ خليفة بن خياط: ١٤٧)، وذكر نصر بن مزاحم المتربي بأنه قتل من أهل الشام خمسة وأربعمائة ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفاً (واقعة صفين: ٥٥٨).
- (١٠) الكامل في التاريخ ٣: ٣٢٥.
- (١١) تاريخ الطبرى ٤/ ١٢٢، علل الشرائع ١: ٢٢١.
- (١٢) الاحتجاج ٢: ١٠.
- (١٣) علل الشرائع ١: ٢١١.
- (١٤) عمدة الطلب: ٦٧ .
ونقل ابن أثيم في تاريخه أن عبد الله بن الزبير سأله الحسين عليهما السلام ما يفعله وهل سببأي يزيد؟ فأجابه الإمام الحسين عليهما السلام طويلاً: «أني لا أباع له أبداً، لأن الأمر إنما كان لي من بعد أخي الحسن، فصنع معاوية ما صنع وتحالف لأخي الحسن أنه لا يجعل الخلافة لأحد من بعده من ولده، وأن يردها إلى إِن كنتُ حيّاً».
أنظر: كتاب الفتوح لابن أثيم ٥: ١٢.

دروس في الأخلاق السياسية في الإسلام

عادل علي الشعلة

كثير مما جاء في كتاب النبي الأعظم عليه السلام لولاته على اليمن: «وخذهم بأخلاق الله، واحملهم عليها، فإن الله تعالى يحب معاي الأخلاق ويبغض مذامها»^(١).

ما لا ريب فيه أن النبي وأهل بيته (صلى الله عليهم أجمعين) قد بذلوا جهدهم في تأسيس مدرسة أخلاقية تربوية رائدة، لتساهم في تحقيق مكارم الأخلاق باعتبار أن مكارم الأخلاق هي الهدف الكبير لبعثة النبي الأكرم عليه وآله، وقد رُوي عنه عليه وآله أنه قال: «إِنَّمَا بُعْثِتَ لِتُقْرَأَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ»^(٢)، وقد وصف سبحانه وتعالى باني هذه المدرسة بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(٣).

وبما أن الإسلام قد جعل الأخلاق أساساً بنية عليه مبادئه وأحكامه ومفاهيمه، فقد وجب علينا تحمل مسئوليتنا الأخلاقية في تعلم الأخلاق، والتلبس بها، والدعوة إليها، ومن هنا أجد ضرورة دراسة الأخلاق دراسة موسعة، لما لذلك من أثر في جميع مفاصل حياتنا العلمية والعملية، فإن سوء تعامل الإنسان مع ذاته ومع المحيط من حوله ومع ربه هي أزمات أخلاقية تعصف بمجتمعنا المسلم، فضلاً عن غيرها.

وبودي أن أركز حديشي الأخلاقي في بعده السياسي، لتطبعي نحو صياغة حياة سياسية طاهرة، تقود العاملين فيها نحو الله سبحانه وتعالى، إذ ما نجده اليوم في الصف المؤمن من اختلافات مرفوضة، ونزاعات مريضة، وتنافسات مقيدة ليس إلا بسبب

الابتعاد عن القيم الأخلاقية وتعاليم المدرسة المحمدية.

وعنوان البحث الذي أود استيعابه – إن أبقياني الله ووفقني – هو: **الأخلاق السياسية في الإسلام**.

وقفة مع عنوان البحث:

تعريف الأخلاق:

ومن أجل التعرف على معنى الأخلاق، أشير إلى معناه في اللغة ومن ثم معناه الاصطلاحي.

التعريف اللغوي: أما الأخلاق في اللغة، فهي جمع **خلق** – بضم اللام وسكونه – **والخلق على معانٍ**:

١- السجية والفطرة والطبع، وهو ما جُبل عليه الإنسان ولا يزول منه، وقد استخدم هذا المعنى في بعض الروايات، ففي الخبر عن إسحاق بن عمار: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنَّ **الخلق منيحةٌ** – أي عطية – **يمنحها الله عزوجل خلقه**، فمنه سجية – أي طبيعة – ومنه نية – أي يكون عن قصد وابتلاء، فقلت: فأيتها أفضل؟ فقال عليه السلام: صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره، وصاحب النية يصبر على الطاعة تصبراً، فهو أفضلاهما»^(٤).

٢- المروءة، وهي اتباع محسن العادات، واجتناب مساوئها، وما ينفر عنه من المُباحات، ويؤذن بخسنة النفس ودناءة الهمة^(٥)، كقيام الفقيه بالأكل أو البول في الأسواق أو يُفرط في المزاح ويُكثر من ذكر الحكايات المضحكة، فذلك مما يدل على ضعف في عقله. ويُمكن أن تعرف بـ "التلخق بخلق أمثاله في زمانه ومكانه"، فأكل

السوق في السوق يختلف عن أكل غيره.

٣- الدين والملة.

التعریف الاصطلاحی: وأما معنی الأخلاق فی الاصطلاح، اصطلاح علماء الأخلاق، فحينما نطلق لفظة الأخلاق، فإننا نريد منها أحد أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن المراد من الأخلاق هي: الأخلاق الصفاتية الباطنية: الخلق ملکة من ملکات النفس، أي صفة راسخة في النفس لا تزول بسرعة، وأظهر خاصية تمييز بها الملکة هي أن أفعال الإنسان تصدر منه، بلا إمعان فکر أو إعمال رویة، ففي نفس كل إنسان صفات كثيرة العدد، متباعدة الآثار كالوفاء، والصدق، والسخاء، والشجاعة، وهذه الصفات وأمثالها هي التي تكون مصدراً لأكثر أعمال الإنسان. فالأخلاق على هذا الأساس هي مجموعة الكمالات المعنوية، والشجاعة الباطنية، والصفات النفسية التي تركزت في النفس، وانطبع بها انتباعاً كاملاً، وليس عملاً من الأفعال، وإن كان العمل الاختياري مظهراً لها الخارجي، نعم ذهب بعضهم إلى أن الأخلاق هي العمل الخارجي، وسيأتي الحديث عنه في الأمر الثاني.

الأمر الثاني: هو أن يُقال بأن المراد من الأخلاق: الأخلاق السلوكية النابعة من الباطن: هي الأفعال والسلوكيات الناشئة من الملکات النفسانية للإنسان، فمثلاً يُقال عن الشخص الذي يعيش في حالة من الغضب والحدّة دائمًا بأنه ذو أخلاق ردئه، وبالعكس، ويقولون عن الشخص الكريم بأنه ذو أخلاق طيبة، والعكس، وقس على ذلك الكثير من السلوكيات.

هذه السلوكيات يُعبر عنها بالسلوكيات أو الأفعال الأخلاقية وهي تُقابل

السلوكيات والأفعال العاديه، ويفرق بين الفعلين الأخلاقي والعادي بالقيمة، فال فعل العادي له قيمة مادية، فيقال بأن عمل المهندس أو الباقي يساوي كذا دينار، بينما ليس للفعل الأخلاقي قيمة مادية، فإن قيمته أعلى وأكبر من ذلك، بل يبقى الذهن البشري عاجزاً عن تقدير قيمة بعض الأفعال الأخلاقية، فهل بإمكان الذهن البشري أن يقدر مادياً تضحية الإمام الحسين عليه السلام بالطفل الرضيع وبولده علي الأكبر وبابن أخيه القاسم وبأخيه أبي الفضل العباس وبعيالاته وخيرة أصحابه؟ هل يمكن القول بأن تضحيته بابنه الرضيع تساوي مائة مليون دينار؟! هل يمكن القول أن تضحيته بنفسه تساوي مئات ملايين الدينار؟! طبعاً لا، إن هذا الفعل الأخلاقي يبقى مقدراً محدوداً، محلاً للثناء، وأكبر من أن يُقى بالأشياء المادية.

الأمر الثالث: أن المراد من الأخلاق هي: القوانين الأخلاقية: وهي «عبارة عن مجموعة من المبادئ التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضها»، فهي المقياس الذي نقيس به سلوكياتنا، ونرسم على ضوئه طريق السلوك الحميد.

ومن هنا يكن أن نعرف الأخلاق بأنها: «علمٌ يبحث فيه عن أسس اكتساب هذه الصفات الحسنة، وطرق محاربة الصّفات السيئة، وأثارها على الفرد والمجتمع».

علمٌ يعلمنا كيف نحرك تعاليم المدرسة الحمديه في سلوكياتنا، وكيف نصوغها في حياتنا، فيكون همّنا الإسلام، حركته، نوّه، عزّته، ارتفاعه، نهضته، فإذا كان ذلك لا يتحقق إلا على يد فلان من الناس المؤمنين، أو كان ذلك سيتحقق على يد فلان الصالح بشكل أفضل، فيجب على التنجي وإعطائه فرصة إدارة الأمور وصيانتها وتحقيقها، وليس من المهم أن يظهر اسمي، بل المهم أن يرتفع اسم الإسلام عالياً، فإذا كانت رفعة الإسلام تتطلب تواضعه فيجب على ذلك، يجب أن أكون متواضعاً لمن

كان أعلم أو أكفاء أو أصلاح مني، وأنحول من موقع القيادة -صغريرة كانت أو كبيرة- موقع التبعية لأكون تحت يدي الأصلاح الأكفاء في قيادة المسيرة، أو في خدمة الدين، أو في إماماة المؤمنين أو في أي شأن من شؤون الحياة السياسية أو الاجتماعية أو غيرها، فقد روي عن النبي ﷺ: (من أُمّ قوماً وفيهم من هو أعلم منه لم يزل أمرهم إلى سفال إلى يوم القيمة).^(٦)

إذاً، إذا صاغتنا أخلاق الإسلام فلن تجد للهوى مكاناً، وللنزاعات وجوداً.

السياسة والإسلام:

أما تعريف السياسة:

«فييمكن القول بأن "السياسة" في علم السياسة الغربي، مرتبطة بمجموعة مفاهيم، مثل مفهوم: الشعب والقانون والسلطة والمصلحة العامة والدولة، ويستبطن قيم الصراع والتكييف والحلول الوسط وتحكيم الواقع بلا ضوابط، ولذا عرفها بعض الغربيين بأنها: "فن المُمكِن".».

وبعض آخر بأنها: "فن يقوم على الخديعة والمكر والنفاق...، إلى غير ذلك من الأوصاف الدنيئة التي ألحقت بالسياسة، ومن ذلك يقضي هذا البعض بضرورة فصل الدين عن الدولة، مما يعني عزل الإسلام عن الشئون السياسية.

ويذهب بعضهم إلى تعريفها بأنها "فن إدارة البشر والأشياء"، وهذا التعريف قد يكون مقبولاً بنظرة ما، لكن الواقع العملي للسياسيين يفسر هذا التعريف بفن إخضاع البشر وتملك الأشياء، ولذا لا تزال كلمة السياسة محمّلة في الأذهان بإيحاءات الترويض والتذليل والإكراه ومعاني التحكم والتسلط والولاية الجائرة.

إذاً، نحن لسنا ملزمين بتعریف السياسة بما يعتقدون، وعلينا أن نعرفها بطريقة تُبعدها عن الخبر والخدعة، لأن منظورنا الإلهي القائم على أساس توحيد الخالق يفرض علينا ذلك، ويُوجب علينا الالتزام بالقسط والعدل في كل شأن من شؤون الحياة. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن التعريف اللغوي للسياسة بـ"القيام على شيء بما يصلحه"^(٧) أو "القيام بالأمر وتدييره"، هو معنى عام يشمل شؤون الدولة والحكم ولا يختص بهما، ويتنااسب مع مفهوم السياسة في الرؤية الإسلامية التوحيدية.

وكذلك بعض التعاريفات الاصطلاحية، مثل الذي يُعرفها بأنها: "القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأموال"^(٨)، أو يعرفها بأنها: "تدير الأمور الاجتماعية العامة ذات الصلة بالحكم والسلطة"، مثل هذه التعاريف تتنااسب أيضاً مع مفهوم السياسة في الرؤية الإسلامية التوحيدية، فإنّ أمور الأمة كلها الداخلي منها والخارجي يُساس في الإسلام وفق مصلحة الأمة العامة، وهذه المصلحة العامة ليست محكومة برؤية الحزب الواحد أو العائلة الواحدة أو الطائفة الواحدة أو الفرد الواحد، بل إنّ هذه المصلحة محكومة بتعاليم الشريعة السمحاء، التي تضمن عدم وجود أيّ تعدد على حق أي إنسان، مُسلماً كان أو غير مُسلم.

ومن الواضحات أن "الخلق" من أهم هذه الأشياء التي يراد إصلاحها، والذي يتم عن طريق إرشادهم وهدايتهم؛ مما يجعل السياسة قيادة إلى ما فيه خير الناس الدنيوي والأخروي، وتهدف إلى عبودية البشرية لرب واحد، وتفعيل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجلب المصالح ودرأ المفاسد لتحقق بذلك الغاية التي من أجلها خلقهم الله سبحانه وتعالى، وكل ذلك لا يتحقق على يد الفرد الواحد، بل

بحاجة إلى تازر جماعي، مما يعني أن السياسة في الرؤية الإسلامية تتسم بالشمولية والعمومية، فتخاطب - كمفهوم - كل فرد مكلف في رسالة الإسلام بأن يرعى شؤونه، ويهتم بشؤون المسلمين من حوله، فيُصبح الشأن العام في المنظور الإسلامي هما شخصياً، يتحمل كل فرد مسؤولية ما تجاهله، بقدر إمكانياته، وبحسب موقعه بما يكفي.

فالسياسة وعي فردي مسؤول، تجعل الممارسة الفردية اليومية مرتبطة ارتباطاً تاماً بعموم الناس، ومفهومها - السياسة - مرتبطاً بالتوحيد والاستخلاف والشريعة ومصلحة الشرع والأمة، وتنمو - السياسية - وتكامل من خلال مفهوم الواجب مع باقي مفاهيم الرؤية الإسلامية مستبطنـة القيم الإسلامية وأبرزها العدل.

معنى الإسلام:

عندما نقول «الإسلام» فإننا نقصد به الدين الذي يتکفل بيان الطريق الصحيح في «العمل» و«الوظيفة»، وحينما قلنا بأن الإسلام يتولى مسألة الهدایة والإرشاد، فإنه يتولاه في جميع مجالات «العمل» و«الوظيفة»، ويبيّن الصحيح مما سواه في جميع تلك الموارد، فالإسلام دينٌ وفكـرٌ جامـعٌ وشموليٌّ، يعالج الهواجـس القلبـية والوظيفـية للإنسان، إزاء نفسه وإزاء الآخرين أيضـاً. وفي مقدمة هذه الأمور، السـلطة والحكومة التي تشكل محور «العمل السياسي» الإنساني. وعلى أساس هذا المعتقد، للإسلام حكومـته الخاصة والتـي تسمـى بـ«الحكومة الإسلامية».

معنى الأخلاق السياسية في الإسلام:

فالأخلاق السياسية في الإسلام على ضوء ما تقدم، هي: مجموعة من المبادئ،

التي يراد جريان السلوك البشري على مقتضها في مجال العمل السياسي، وتكون مقاييسه الذي يقيس به سلوكياته، ويرسم على ضوئه طريق السلوك السياسي الحميد. وبهذا نعطي الأخلاق بعداً يتتجاوز دائرة الضبط الفردي، لضبط المجتمع وتوجيهه الوجهة الخيرة في علاقاته وشئونه السياسية.

وبهذا نحقق الاندماج الديني في بعده الأخلاقي مع السياسة، رفضين المفهوم "الإكلييري" "الكنسي" الذين يقول: «إنَّ الدِّينُ لِللهِ وَالْوَطْنُ لِلْجَمِيعِ، وَإِنَّ مَا لَقِيَصَرَ لَقِيَصَرَ، وَمَا لَهُ اللَّهُ عَبَارَةُ الْعَلَمَانِيِّينَ الْمُنْسُوبَةُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» فالرسالة التي بُعثت بها سيدنا محمد بن عبد الله عليهما السلام، لم تركز على الروح وتزكيتها فحسب، بل ركَّزت معالجتها -بالإضافة لذلك- على الأخلاق ومكارها الفردية والاجتماعية، وفي الخبر عن فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: «إِنَّ اللَّهَ يُرِيقُ أَدْبَرَ نَبِيِّهِ فَأَحْسَنَ أَدْبَهُ، فَلَمَّا أَكْمَلَ الأَدْبَ، قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ثُمَّ فَوَضَّعَ إِلَيْهِ أَمْرُ الدِّينِ وَالْأُمَّةِ لِيُسُوسَ عَبَادَهُ، فَقَالَ ﴿وَمَا أَتَأْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا﴾، وإنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مُسَدِّداً موفقاً مؤيداً بروح القدس، لا يزالُ ولا يُخطئُ في شيءٍ مما يُسوسُ به الخلق فتأندب بآداب الله»^(٩).

وعلى ضوء الاندماج الديني -في بعده الأخلاقي- مع السياسة يُمكننا تصحيح بعض المفاهيم السياسية الرائجة، كمقوله: "أنَّ السياسة لا دين لها"، فهذه المقوله تُجرِّدُ السياسة من القيم والأخلاق، وتجعلها سياسة كذبٍ ونفاقٍ وخداع.. سياسة منافع ومصالح فرديةٍ وشخصيةٍ وفؤوية.. سياسة ممارستها "ميكيافيلية" وهي «مبدأ سياسي ابتدعه نيكولو ماكيافيل كاتب سياسي إيطالي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) يقضي

بإيشار الغشّ والخداع والماروغة والتسويف وسوء النية والدهاء والأنانية في تحقيق الأهداف المنشودة، دون إقامة أي اعتبار لنداء الضمير أو مبادئ الدين والأخلاق، على أساس أنّ الغاية تبرّر الوسيلة».

تعتمد الخداع والغشّ وكلّ ما يبرّر الوسيلة من أجل الغاية.

إنّ هذا المفهوم للسياسة مرفوضٌ في الإسلام كدينٍ وكتشريع، فالإسلام يعتبر أنّ الدين لله والوطن لله، ويعتبر أنّ ما لقيصر لله، وأن لا فصل -في الإسلام- بين الدين والدولة، أو بين السياسة والدين، وأنّ السياسة يجب أن تُبنى على الدين، وبذلك تكون "سياسةً متديّنة" أي سياسةً مبنيةً على القيم والمثل والأخلاق.

بعض المقدمات المهمة في البحث:

المقدمة الأولى- موضوع الأخلاق السياسية في الإسلام:

من المُتَعَارِفُ عَلَيْهِ بِيَانِ مَوْضِعِ الْعِلْمِ الْمُبْحُوثُ فِيهِ، إِذَا نَكَلَ عِلْمٌ مَوْضِعُهُ، فَمَوْضِعُ عِلْمِ الطَّبِّ هُوَ جَسْمُ الْإِنْسَانِ وَبَدْنُهُ مِنْ حِيثِ اتِّصافِهِ بِالصَّحةِ أَوْ عَرُوضِ الْمَرْضِ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ نَقُولُ بِأَنَّ مَوْضِعَ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ السِّيَاسِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ: هُوَ نَفْسُ الْإِنْسَانِ وَرُوحُهُ مِنْ حِيثِ اتِّصافِهَا بِصَفَاتِ سِيَاسِيَّةٍ حَسَنَةٍ مَمْدوَحَةٍ أَوْ قَبِيحةٍ مَذْمُومَةٍ، وَهَذَا يُعْطِي قِيمَةً كَبِيرَةً لِهَذَا الْعِلْمِ، قِيمَتُهُ بِأَنَّهُ يَهْتَمُ بِجَوْهَرِ الْإِنْسَانِ وَحَقِيقَتِهِ، وَلَذِكَ فَالْمُخَطَّبُ الإِلَهِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّ أَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكَلَّ بِكُمْ﴾^(١٠)، لَمْ يَتَوَجَّهْ لِبَدْنِهِ الزَّائِلِ الْفَانِيِّ بِلْ تَوَجَّهْ لِرُوحِهِ وَنَفْسِهِ وَعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ، فَنَحْنُ فِي هَذَا الْعِلْمِ نَعْتَنِي بِمَا يَصُونُ الرُّوحَ الْخَالِدةَ.

المقدمة الثانية- مسائل علم الأخلاق السياسية في الإسلام:

أما المسائل التي نبحثها في علم الأخلاق السياسية من منظور إسلامي، فهي تلك الأبحاث التي تدرس الصفات والملكات المعنية بالبعد السياسي، لتبين حقائقها وروابطها، وانشعاب بعضها عن بعض، وعلل حصولها وزواها، وطرق تحصيل كرائتها، وكيفية إزالتها رذائلها.

المقدمة الثالثة- أغراض الأخلاق السياسية في الإسلام:

هناك الكثير من الغايات والأغراض المترتبة على دراسة وتطبيق الأخلاق السياسية الإسلامية في حياة الإنسان والناس، نذكر منها الأغراض التالية:

الغرض الأول- إيصال الإنسان إلى الكمال السياسي:

وهذا الكمال لا يمكن تحقيقه إلا من خلال تقويم بُعدين:

البعد الأول: البعد (الباطني) النفسي: وذلك عن طريق تهذيب النفس من رذائل الأخلاق السياسية، وتطهيرها من العقد المريضة والتصورات السياسية الفاسدة والمغلوطة، ففي كل إنسان قوة نفسية -تصدر عنها أعماله وتصرفاته- تُسمى بالإرادة، وهي مقياس التمايز بين الإنسان وغيره من الحيوانات، وبين الإنسان والإنسان.

فإذا كانت إرادة الإنسان مسبوقة بالتعقل والتدبر، فسوف تتوجه إلى الأغراض النافعة وحينئذ يكون تنافس الإنسان مع العقلاء الشرفاء، ويصل في هذه المنافسة لمراتب يسمو فيها على الملائكة.

أما إذا كانت إرادة الإنسان مسبوقة بالأوهام فسوف تتجه إلى ما تأمر به غرائزه وميوله وشهواته، وحينئذ يكون تنافسه مع الحيوانات، ويصل في هذه المنافسة لدرجة يكون **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾**^(١١).

البعد الثاني: بعد (السلوكي) الاجتماعي؛ وذلك عن طريق التخلق بأخلاق الله تعالى، والتأدب بآداب الرسل والأولياء، ليتمكن من خلق التعايش الآمن، وتطبيق قوانين العدالة، وصيانة الحقوق من الظلم والجور.

إذا تركت نفوس المسؤولين والقيادات السياسية أيًّا كان موقعها، انعكست تلك التزكية على سلوكياتهم في التعامل مع الله وفي التعامل مع الناس، فقد قال موسى عليه السلام لفرعون: **﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾**^(١٢) لكون التزكية مُطهرة من الأمراض والآفات، وضابطة للسلوكيات.

فمن تزكت نفسه وخشي ربها لن يكون ظالماً في سلوكه أو جائراً في ممارساته، وسيتغير كيانه كما تغير أصحاب السحرة حينما أمنوا بنبي الله موسى بن عمران عليه السلام، فرغم قربهم من السلطان، ورغم رغد عيشهم مقارنة لغيرهم، لكنهم آثروا أن يُقتلوا تطلعًا لما عند الله تعالى، فكان شعارهم: **﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾**^(١٣)، ذلك لأن الإيمان بالآخرة أخذ من أنفسهم فصاغ سلوكياتهم.

والجدير ذكره، أنّ ما يتلمسه الإنسان في نفسه، وهي نزعة نفسية ثابتة، حب المجدودة في كل شيء من صفاته وأفعاله ومتلكاته، فإنه يجب أن يكون جميلاً في كل مظهر من مظاهره، ومتميزاً في كل شأن من شؤونه، ومتقدماً في كل ما يتطلع إليه،

وناجحاً في جميع أعماله، ولذا تجده محبًا للتقدير، مُتلذذًا من الكلمات المادحة الموجهة إليه، - طبعاً لست في صدد بيان كيفية التعامل مع مثل هذه السلوكيات الآن، وما هو الموقف من مدح الناس وما شابهه، ولكني في صدد بيان كون هذا الحب من تكوين الإنسان - وهذا يدلنا على أنّ الغاية الأولى للإنسان هي الكمال المطلق.

إذا تبين هذا الكلام فسوف نعرف قيمة المعرفة والعمل بالأخلاق السياسية الإسلامية، فإن علم الأخلاق السياسية يدرس صفات وأفعال الإنسان السياسية، ويعرفه بكيفية التحليل بالجيد منها، والتخلص عن الفاسد منها، لتحقق حالة التوازن والتميز والجودة التي توصله إلى الكمال المطلق في أخلاقه وأفعاله السياسية لتحقيق سعادته وغايته في الدارين.

الغرض الثاني- تحقيق اللذة المادية والمعنوية:

فالمتحلي بالأخلاق السياسية من منظور الإسلام، لا يقف في هدفه النهائي عند حدود اللذائذ المادية والدنيوية، بل يتطلع إلى اللذائذ المعنوية أيضًا، فالطمأنينة لذة معنوية لا تُضاهيها لذائذ الدنيا بأسرها، ويمكننا بكلمات الإمام السجاد عَلَيْهِ الْأَمْرُ^{عليه السلام} أن نقترب من موقعة اللذائذ المعنوية – هذا إذا كنا محرومين من استدراوتها، «إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذاقَ حَلاوةَ مَحِبَّتِكَ فَرَأَمَ مِنْكَ بَدْلًا وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنْسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حِوْلًا»^(١٤)، وحول مناجاته لربه يقول: «وَفِي مُنَاجَاتِكَ رَوْحِي وَرَاحَتِي وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلْتِي وَشِفَاءُ غُلْتِي وَبَرْدُ لَوْعَتِي»^(١٥) «يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي وَيَا دُنْيَايِي وَآخِرَتِي»^(١٦) .. إنه يُعبر لنا عن لذة لا تُتجار بها لذة، وسعادة لا تُضاهيها سعادة.

ويُمكن القول بأن التطلع للمعنىيات في حقيقة الأمر مسألة فطرية في الإنسان وليس هي نتيجة للتحلي بالأخلاق من منظور إسلامي، يمكنني القول بأن التحلّي بالأخلاق من منظور إسلامي، يلبي هذه الحاجة الفطرية وينميها ويُشعّلها، فلو جئنا بمسألة حب التسلط والاقتدار مثلاً، فهو مسألة موجودة في الإنسان في مختلف مراحله العمرية، صغيراً كان أو كبيراً عجوزاً معتقاً، كما ورد عن النبي ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر»^(١٧) وفي أخرى: (الحرص على الحياة)، فحب التسلط والاقتدار أمر مغروز في فطرة الإنسان منذ ولادته حتى مماته، وما حركته الداءوبة في تسخير الكائنات، واحتراق الصناعات، وتسخير الطاقات إلا لأجل إشباع هذا الميل الفطري..

وقد يتتجاوز هذا الإشباع الأمور المادية للاقتدار الاعتباري كالوصول أو الحصول على الواقع الاجتماعية المرموقة، كالرئاسة لموقع من المواقع السياسية والاجتماعية، وتجد أن تلبية حاجات هذه الميول الفطرية قد يتزايد لدرجة النهم، وما صورة الاحتلال والظلم والجور والقهر وسلب الحقوق إلا مفردات لتلبية الحاجة الغريزية التي لم تُقيدها الضوابط الأخلاقية الإسلامية، ولذا أقول مهما سعى الإنسان لتلبية ميله الفطري، فلن يستطيع أن يسد جوعته حتى لو تمكن من تسخير كل القوى المادية ووصل إلى أعلى الواقع الاعتباري، ولن يُشبّع هذا الميل الفطري اللامائي إلا إذا اتصل بالقدير المتعالي، منبع القدرة اللامتناهي.

ولذا فمن حصر اللذائذ بالشهوة الجنسية أو المالية أو ما شابهها فهو واهم، فهل الملائكة التي ليس لها هذه الشهوات ليس لها لذة؟! بل لها من اللذائذ ما تطلع لاستذواقه، بل يمكن القول أيضاً بأن من حصر التمتع بدائرة اللذائذ الدنيوية من

دون التفكير بنتائجها الصالحة أو السيئة، وترك اللذائذ المعنوية ورعاية الأخلاق، فسوف لن يحرم نفسه اللذائذ الحقيقة فحسب، بل سيحرم نفسه حتى من الوصول إلى اللذائذ المادية التي يتطلع إليها، فحال الظلمة السياسيين الذين يسلبون حقوق البشر، ويتمتعون بها بغير وجه حق، كذلك المعتاد على الأفيون، فإنه وإن انتعش باللذة حال استخدامه، ولكنه بعد زوال تلك النشوة يعيش مع الآلام المادية والمعنوية القاتلة من الأمراض العصبية، والقلق، والندم الشديد وربما الموت، وأنى لمن أسرته شهوته من التخلّي عن هذه اللذة الدنيوية المُحرمة؟ !

وأنى لمن أسرته شهوة السلطة والقوة من التخلّي عن الخطايا والمخيانات السياسية؟ !

وهل سيبقى ظلمه وجوره بلا آلام مادية ومعنوية؟ !

ألم يعيشوا الوحدة والخوف وهم في أوج القدرة المادية؟

هل سيبقى الطغاة السياسيون في حصانة من رجال العزة والكرامة؟ أين فرعون؟ أين نفرود؟ أين إرم؟ أين عاد؟ أين السادات؟ أين شاه إيران؟ أين صدام؟

والقائمة طويلة ممن خسروا لذائذهم المادية والمعنوية.

فمن أراد اللذائذ الدنيوية والمعنوية السياسيين فليتحلى بالأخلاقيات السياسية، كالعفة السياسية، والأمانة السياسية، والصدق السياسي، والرجلولة السياسية، وغيرها من الأخلاق الفاضلة التي تجعل السياسي في راحة بال، ويشعر بدعم الناس في المآزق السياسية، ويتعزز في نفسه عنصر المقاومة والصمود أمام المشكلات والأزمات.

فالتمسك بالأخلاق السياسية الفاضلة من شأنه المساعدة في عمران الدنيا

وتحوילها إلى جنة مليئة باللذائذ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١٨)، كما أن التمسك بالأخلاق السياسية الفاضلة من شأنه عمران الآخرة لما تؤدي به من قرب الله ونيل ثوابه، أما التمسك بالأخلاق السياسية الفاسدة والإجرامية فمن شأنه خراب الدنيا، وتحوبله إلى حرقه ودمار، ومن شأنه خراب الآخرة، ودخول النار الحرق، المتولدة من وحل المفاسد الأخلاقية.

الغرض الثالث- بناء المجتمع المسلم:

فالحياة السياسية أحد الأبعاد الاجتماعية التي يُراد صياغتها وفق التعاليم الإسلامية لتنطلق من منطلق الرؤية التوحيدية، وتحرك في فلك عبودية الله سبحانه وتعالى، وإننا إذا لم نُفعَل تعاليم الشريعة في هذا بعد الحيوي فلن تكون مُسلمين، ولن نتمكن من صناعة مجتمع سياسي مُسلم في رؤيته وتفكيره ومحاساته، بل سيظل مجتمعاً مرقاً في رؤيته ومبانيه وتوجهاته وممارساته.

نعم، إننا لن نتمكن من بناء واقع إسلامي في أخلاقه السياسية من دون تطبيق سياسة إسلامية حقيقة مستمدَّة من القرآن الكريم والسنّة المطهرة للنبي وأهل بيته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ)، وتطبيقاتها وتجسيدها لن يكون ممكناً إذا كنا نجهلها، فالإيمان بالله ورسوله وبأهل بيته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ) يفرض على المؤمن أن لا يرضى بسلط مفاهيم الباطل ورؤاه، ولذا فإنه يبذل جهده للإحاطة بالقوانين وال تعاليم الإلهية الذي تقوم بوجبه سيادة نظام الحق في الدولة والمؤسسات والفرد والعمل على تحقيقها على أرض الواقع.

فالخلاصة أن الجahليات الحديثة استهدفت تقويض شريعة السماء، وهدم

أُخْلَاقُنَا الرَّبَانِيَّةُ الَّتِي صَاغَتْ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١٩)، وَفَهْمٌ وَدِرْسَةٌ وَعَمَلٌ بِالْأَخْلَاقِ السِّيَاسِيَّةِ مِنَ الْمُنْظُورِ إِسْلَامِيٍّ يُسَاهِمُ فِي إِعْدَادِ تَلْكَ الصِّيَاغَةِ الْخَيْرِيَّةِ فِي بَعْدِ مِنْ أَبعادِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

المواهش:

- (١) (مَكَاتِيبُ الرَّسُولِ لِلْأَحْمَدِيِّ الْمِيَانِجِيِّ ج٢ ص٦٥١).
- (٢) بَحْرُ الْأَنُوَارِ، ج١٦ ص٢١٠.
- (٣) سُورَةُ الْقَلْمَنْ.
- (٤) الْاَصْوَلُ مِنَ الْكَافِيِّ، ج٢ بَابُ حَسْنِ الْخَلْقِ الْمُحَدِّثِ رَقْم١١.
- (٥)" رِيَاضُ الْمَسَائِلِ السَّيِّدِ عَلِيِّ الْطَّبَاطِبَائِيِّ ج٤ الصَّفَحةُ [٣٢٩] [٣٣٠].
- (٦) عَلَلُ الشَّرَائِعِ: ص٣٢٦.
- (٧) تَاجُ الْعَرُوسِ فِي مَادَةِ سُوسِ.
- (٨) الْبَحْرُ الرَّائِقُ (٧٦/٥).
- (٩) أَصْوَلُ الْكَافِيِّ ج١ ، ص٢٦٦.
- (١٠) سُورَةُ السَّجْدَةِ: ١١.
- (١١) سُورَةُ الْفَرْقَانِ: ٤٤.
- (١٢) سُورَةُ النَّازَعَاتِ: ١٨ - ١٩.
- (١٣) سُورَةُ الشُّورِيِّ: ٣٦.
- (١٤) مَنَاجَاهُ الْمُحِبِّينِ.
- (١٥) مَنَاجَاهُ الْمُرِيدِينِ.
- (١٦) مَنَاجَاهُ الْمُرِيدِينِ.
- (١٧) مُسْتَدِرَكُ الْوَسَائِلِ وَمُسْتَنبِطُ الْمَسَائِلِ، ج١٢، ص: ٥٨.
- (١٨) سُورَةُ الْاعْرَافِ: ٩٦.
- (١٩) سُورَةُ آلِ عُمَرَانَ: ١١٠.

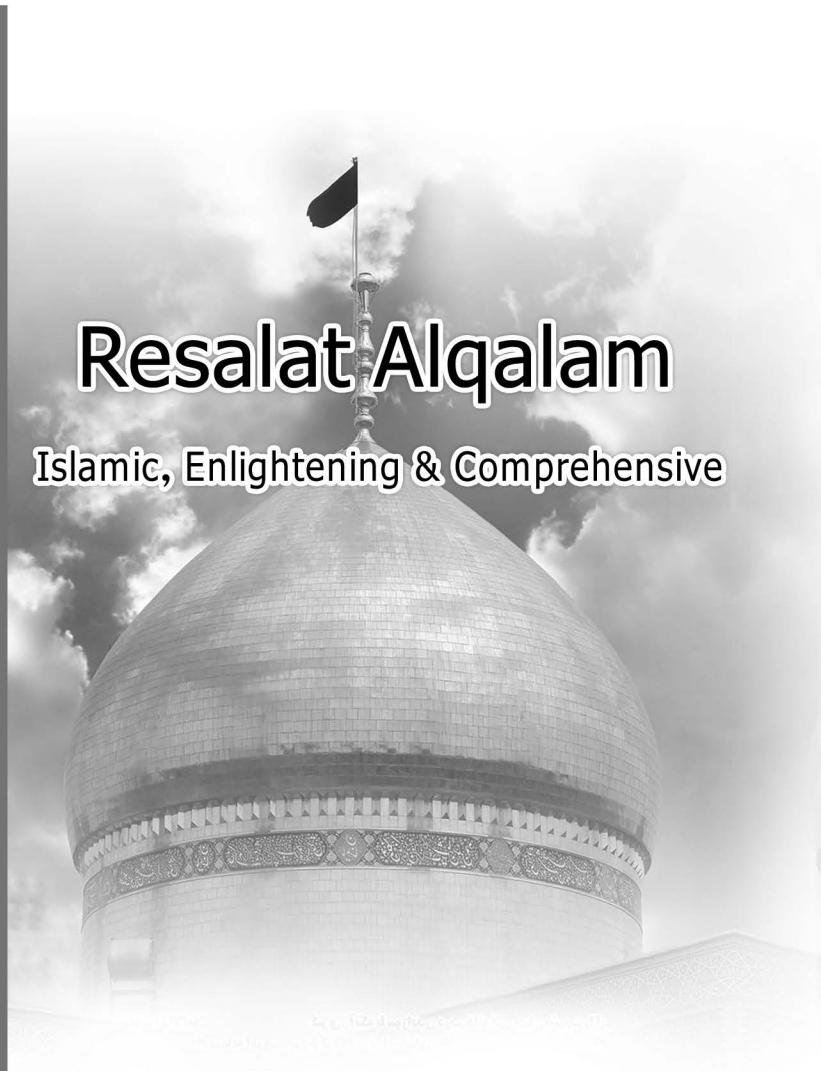
ضوابط قبول المقالات

ضمن دعوة **رسالة القلم** الإخوة الطلاب للمشاركة بكتابتهم وبحوثهم، تعرض بين أيديهم الضوابط المفترض توافرها في المقالات والبحوث المقدمة، وهي كما يلي:

- * الكتاب الأساسيون للمجلة هم طلبة العلم البحرينيون، سواءً في مدينة قم المقدسة أم غيرها، وأماماً قبول مقالات غيرهم فراجع إلى هيئة التحرير.
- * أن يكون المقال مصروف الحروف على برنامج الور德، ويُسلّم إلى رئيس التحرير على قرصٍ أو غيره، أو يُرسل على بريده الإلكتروني:
Ali.karbabadi@hotmail.com
- * أن لا يقلّ المقال عن سبع صفحاتٍ (A4) بحجم خطٍّ (١٥).
- * أن يكون المقال علمياً، ويراعي الضوابط الفنية من تحرير المصادر والعناوين الجانبية، وأن لا تكون فيه استطراداتٌ مخللة بوحدة الموضوع، وما ماثل ذلك.
- * مراعاة عدم وجود الأخطاء المطبعية والإملائية والفنية قدر الإمكان.
- * تفضيل مراعاة الكتابة بالخطوط والرموز الخاصة بالمجلة، وكذلك الأسلوب الخاص للترقيم والحواشي، ويطلب ملف الورود المنسق وخطوط المجلة من أعضاء هيئة التحرير.
- * للمجلة الحق في نشر المقال وعدمه، وإجراء بعض التعديلات الضرورية إذا لزم الأمر، مع مراجعة الكاتب قدر الإمكان.



- General Supervisor & Executive Manager:
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:
Ali Ahmad Alkarbabadi
- Managing Editor:
Ali Ahmad Aljofairi
- Publishing Committee:
Abdulraoof Hassan Alrabia
Aziz Hassan Salman
Fadhel Abduljaleel Al Zaki
Ghazi Abdulhassan



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom